يوم قُتِلَ السادات

أسرار قصة الإغتيال كاملة
من وجهة النظر الإسرائيلية



تأليف: عوديد جرانوت
جاك رينج

تقديم الترجمة العربية:
د. رفعت سيد أحمد

مكتبة رجب

هــذا الكتــاب
يــوم قتــل الســادات

* بالوثائق والاسرار الجديدة المثيرة ، يقدم هذا [الكتاب ـ الوثيقة] ، الرواية الإسرائيلية الكاملة لقصة إغتيال السادات يـوم ٦ / ١٠ / ١٩٨١ ، وكيف خطط لها الاسلامبولى ورفاقة ، وكيف تشكلت جماعة الجهاد الاسلامى فى أنحاء مصر ، وأعددت نفسها ليوم الاغتيال ؟ وماذا حدث بالتفصيل ساعـة الاغتيـال ومن كان هناك وقتها وماذا قال الرؤساء والوزراء ساعة الاغتيال ؟ .

* والكتاب يحتوى على وقائع جديدة تنشر لأول مرة ، وهو بكل المقاييس ، إضافة هامة للمكتبة العالمية فى حادثة كبرى هزت مصر والعالم : حادثة إغتيال السادات .

* ورغم إختلافنا الكامل مع الرؤى الإسرائيلية بشأن قضايانا العربية والإسلامية ، الا أننا وجـدنا أهميـة أن نعـرف كيف يفكرون ويحللون ويرصـدون هـذه القضايا ، وقضية (مصرع السادات) تأتى فى مقدمة هذه القضايا .

الناشــر
مكتبــة رجب
١٧ شارع البيدق ـ ميدان العتبة ـ القاهره
ت : ٣٩٠٥٩٤٣ ـ ٨٦٢١٥٦ فاكس : ٣٩٢٦٢٥٠

يوم قتل السادات

اسرار قصة الإغتيال كاملة
من وجهة النظر الإسرائيلية

تأليف

عوديد جرانوت & جاك رينج

ترجمة

محمد أمين فتح الفتوح & حسام الدين رشاد

تقديم الترجمة العربية

د. رفعت سيد أحمد

الناشـــــــر

مكتبــــــة رجب

١٧ ش البيدق - ميدان العتبة - القاهرة

ت : ٣٩٠٥٩٤٣ - ٨٦٢١٥٦ فاكس : ٣٩٢٦٢٥٠

رقـــم الإيـــداع ١٥٣١ / ٩٥

I .S . B.N 977 - 5162 - 08 - 4

اسم الكتاب : يوم قتل السادات

اسم المؤلف : عوديد & چاك

اسم المترجم : محمد أمين فتح الفتوح & حسام الدين رشاد

الغـــــلاف : للفنان محمود الشيخ

النـــــاشر : مكتبة رجب

سنــة النشــر : ١٩٩٥

الجمع التصويرى

مصر لخدمات الناشرين

٩ شارع ٨٦ ثكنات المعادى - القاهرة

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

تقديـــــم

لماذا أغتيل السادات ؟ الاسباب والنتائج بقلم د . رفعت سيد أحمد

فى تمام الواحدة ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٦ اكتوبر ١٩٨١ ، سقط الرئيس المصرى (أنور السادات) ، مضرجاً فى دمائه ، وكان السبب المباشر هو رصاصات قاتلة ، أطلقها أربعة من الشباب المصرى من المنتمين الى تنظيم الجهــاد الاسلامى الذى تشكل عام ١٩٧٩ ؛ وهم [خالد الاسلامبولى – عبد الحميد عبد السلام – عطا طايل حميدة – حسين عباس] . وقيل إن الأخير كان صاحب الطلقة الأولى التى إستقرت فى العنق ، وأنه أطلقها من فوق (المركبة) وهى تسير فى العرض العسكرى الكبير ؛ قبل أن ينزل هو ورفاقه منها ليكملوا تفريغ رصاصاتهم فى صدور وأرجل الجالسين على المنصة .

*كان ذلك ، بإيجاز ، هو ما حــدث ، ظهر ذلك اليوم الهام فى تاريخ مصر الحديث ؛ ولقد تعددت الدراسات والرؤى والاجتهادات ، التى حاولت أن تجيب عن سؤال أساسى وهو : لماذا اغتيل السادات ؟ .

فى تقديرنا أن الأمر يتجاوز مجرد خلافات سياسية بين تيار سياسى معارض (وعريض وقتذاك بالفعل) وبين نظام سياسى استبدادى ؛ الأمر لم يكن مجرد خلاف سياسى بين تنظيم الجهاد (ومعه العديد من القوى السياسية المعارضة) وبين نظام الرئيس السادات ، وشخصة بخاصة ؛ إن الأمر يتجاوز ذلك فى تقديرنا ليذهب الى الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية ، العميقة الجذور التى مهدت الطريق أمام الصدام الدامى ، وهى أسباب تمتد لتصل الى هزيمة ١٩٦٧ وما تلاها من تداعيات سياسية واجتماعية قاتلة لشرعية النظام السياسى الذى تلى هذه الهزيمة الشرسة ، هذا فضلاً عن الأزمات الاقتصادية المتتالية التى مهدت الطريق الى المنصة ، بدءاً بما سمى بالانفتاح الاقتاصدى والذى بدأ عملياً مع نهاية التسينات ، وقانونياً مع صدور القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ . يضاف الى ذلك التراجع القيمى أمام عمليات الاغتراب والتغريب التى نهجها النظام الساداتى منذ عام ١٩٧١ وحتى وأد رأس النظام عام ١٩٨١ ، وكيف أن هذا (الرأس) كان معادياً بالفكر وبالسياسات للإسلام ، كمضمون حضارى ، واجتماعى وعقائدى لهوية هذه الأمة .

* وفى سبيلنا لتفصيل هذه الأسباب ، نوجزها على النحو التالى ؛ والذى قد يفيد فى إعطاء مدخل أولى قبل الولوج إلى الرؤية الاسرائيلية الخطيرة للغاية – والتى بين أيدينا – لعملية مصرع السادات بكل تفاصيلها :

فأولاً : تداعيات حرب ١٩٦٧ وأثرها على شرعية النظام السياسى :

. كانت محصلة حرب ١٩٦٧ احتلال أراضى ثلاث دول عربية (مصر - الأردن - سوريا) فى وقت واحد ، واحتلال القدس ، وقدرت المساحة التى احتلتها اسرائيل من مصر (٦١,٠٠٠ كليومتر مربع هى مساحة سيناء) وقتل فيها ١١,٥٠٠ ألف قتيل ، وخسر الطيران المصرى ٩٥ ٪ من قوته وتم تدمير ٨٥ ٪ من معدات القوات البرية ووفقا لرواية محمود رياض فإنه فى ١٩٦٧/٦/١١ لم يكن بالقاهرة سوى ٧ دبابات (مذكرات محمود رياض - البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط - بيروت ١٩٨١ ص ٨١) .

ويحدثنا التاريخ أنه قبيل رحيل عبد الناصر وتولى السادات لمقاليد السلطة ، امتزجت عدة عوامل فى وقت قياسى جدا لتعجل بعملية التحول نحو تكوين مركب سياسى / اقتصادى / اجتماعى جديد ساهم فى صعود التيار الاسلامى الأصولى ، الذى قاد من بعد حركة الاحياء الاسلامى فى السبعينات . ومن تلك العوامل : انفصال سوريا عام ١٩٦١ وفشل الوحدة مع العراق وسوريا عام ١٩٦٣ ، وانحصار مد القومية العربية والتحول عن الاشتراكية بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وهى الهزيمة التى كانت سببا من أسباب تآكل الولاء للدولة وانتشار التنظيمات السرية وزعزعة مفهوم الاستقرار السياسى ، ثم وفاة عبد الناصر عام ١٩٧٠ واقرار صيغة الانفراج الدولى عام ١٩٧٢ ، وتأثيرات المال النفطى ، وهى العوامل التى دفعت بالسادات الى محاولة خلق بدائل اقتصادية وسياسية أخرى مثل محاولة تصفية القوى الناصرية والشيوعية داخل الجامعات والنقابات المهنية من خلال تقوية الاتجاه الاسلامى أو محاولت ايجاد بدائل للحرب بالسلام .

ومن النتائج الهامة لحرب ١٩٦٧ :، الانتعاش الملحوظ فى الاتجاه الاسلامى والمسيحى بما تضمنه هذا من تآكل حجم الولاء للدولة وبدء تكون تنظيمات سرية عديدة ، وبروز عوامل عدم الاستقرار السياسى التى ارتبطت فى أغلبها بانتعاش التوجه الاسلامى . ومن المظاهر التى تؤكد هذا الانتعاش العام لدى الشعب المصرى عقب ١٩٦٧ ، أنه عند وضع دستور ١٩٧١ وصل الى مجلس الشعب ومشيخة الأزهر العديد من البرقيات تطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية فى البلاد ، فأصدر وقتها شيخ الأزهر بيانا بهذا الشأن (يونيو ١٩٧١) ، وأصدر مجلس الشعب ثم المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى قرارا بأن تكون الشريعة الاسلامية هى المصدر للرئيسى للتشريع ، ولكن لجنة صياغة الدستور جعلتها « مصدرا رئيسيا » مفترضة وجود مصادر أخرى للتشريع .

وفضلا عما سبق يلاحظ أيضا ان السادات تعمد فى بدايات حكمه محاولة كسب تعاطف الاتجاهات الاسلامية ، وتقوية بعضها خاصة داخل الجامعة ، ويعود ذلك - اضافة للأسباب السابقة - الى أزمة الشرعية السياسية الخاصة بنظام حكمه ، مما دفعه للبحث عن ركيزة جديدة يستند إليها ، خاصة أنه لم يكن يمتلك مقومات للشرعية مناظرة لتلك التى

عرفها النظام الناصرى من قبيل الشخصية الكاريزمية لعبد الناصر ، وانجازاته الاقتصادية والاجتماعية التى وسعت من قاعدة شرعيته جماهيريا .

وثانيا – الانفتاح الاقتصادى وتداعياته الدرامية على مصر : ارتبطت سياسة الانفتاح الاقتصادى « بورقة اكتوبر » التى قدمها السادات فى مايو ١٩٧٤ من الناحية الرسمية ، والتى لم تقدم فى واقع الأمر تحليلا تفصيليا أو محددات لمفهوم الانفتاح وابعاده .. بل تضمنت فقط الاشارة الى الامكانات المتاحة للاستعانة بالاستثمارات العربية والأجنبية فى عملية التنمية ، كما أنها لم تطرحها باعتبارها سياسة بديلة للسياسة الاقتصادية التى تتبناها مصر منذ الستينات بمكوناتها المختلفة ، بل حرصت الورقة فى مجموعها على التأكيد على الاستمرار فى تبنى منطلقات وأسس تلك السياسة .

وفى الأشهر التى تلت حرب أكتوبر ، حرص الرئيس السادات فى خطبه وأحاديثه عند تعرضه لمفهوم الانفتاح الاقتصادى ، على أن يؤكد على تلك المنطلقات العامة التى طرحتها الورقة – أى التأكيد على الانفتاح لا يتناقض مع الاشتراكية – وعلى ضرورة أن تأتى الاستثمارات العربية والأجنبية فى اطار خطة واضحة ذات أولويات محدودة ، وعلى أن الانفتاح هو انفتاح على « الغرب والشرق على حد سواء » .

وباستثناء هذه المبادئ العامة ، لم تقدم ورقة أكتوبر ولا الرئيس السادات فى تصريحاته تحديدا واضحا لمفهوم الانفتاح وما يثيره من قضايا ، والحقيقة أن كل التعريفات التى قدمها الرئيس السادات لسياسة الانفتاح الاقتصادى فى عامى ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ كان تعريفات عامة وغامضة .

وسياسة الانفتاح الاقتصادى – كما طبقها السادات – تعتبر بمثابة انقلاب على المقومات الأساسية للمجتمع ، وهي جزء لا يتجزء من مفهوم السلام الأمريكى – الاسرائيلى ، حيث أنها كسياسة أتت مواكبة لعمليات فض الاشتباك الأول والثانى بين القوات المصرية والاسرائيلية على يد هنرى كيسنجر ، وما سمى وقتها بمفاوضات « الكيلو ١٠١ » ، وهى السياسات التى أدت فيما بعد الى مبادرة القدس عام ١٩٧٧ .

وبالنسبة لكونها انقلابا على المقومات الأساسية للمجتمع ، فإن ذلك يتضح من الكثرة الملحوظة للتشريعات والقرارات المتعلقة بتلك السياسة ، اذ بعد أن اعلنت الحكومة لأول مرة فى بيانها أمام مجلس الشعب (٢١ ابريل ١٩٧٣) عن « الانفتاح الاقتصادى » ، انبرت لجنة مشتركة من مجلس الشعب يرأسها محمود أبو وافية ، ومصطفى كامل مراد ، ووضعت برنامجا شاملا تحول الى قانون وافق عليه مجلس الشعب واعطاه رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ بعنوان « قانون نظام استثمار رأس المال العربى والأجنبى والمناطق الحرة » ، وحاول

مقاومته عدد من أعضاء المجلس دون فائدة .

إن القانون السابق ، يعد بمثابة البداية الحقيقية لسياسة الانفتاح الاقتصادى التى ساهمت بدورها فى صعود حركة الاحياء الاسلامى ، ويتطلب فهم سياسة الانفتاح استعراض مواد القانون المتعلقة بالمقومات الاساسية للاقتصاد المصرى . وبداية فإن هذا القانون قد أدى الى عودة قطاع كبير من الطبقة الرأسمالية الى مجالات اقتصادية عديدة مثلت فى مجملها انقلابا حقيقيا على الركائز الأساسية للمجتمع مثل مجالات التصنيع والتعدين والطاقة والسياحة والنقل (مادة ١ فقرة ١) واستصلاح الأراضى البور والصحراوية واستزراعها بدون حد ، وذلك عن طريق تأجيرها لمدة خمسين عاما يجوز مدها الى خمسين أخرى ، ومشروعات تنمية الانتاج الحيوانى والثروة المائية (مادة ٣ فقرة ٢١) والاسكان والمتداد العمرانى (مادة ٣ فقرة ٣) وشركات الاستثمار (مادة ٣ فقرة ٥) والبنوك التجارية (مادة ٣ فقرة ٦) .

ثم حرم القانون تأميم المشروعات التى تقــع فى نطاقــة أو مصادرتها (المادة ٧ فقرة ب) وحرم الحجز على أموالها أو تجميدها أو مصادرتها أو فرض الحراسة عليها عن غير الطريق القضائى (المادة ٧ فقرة ٢) ، واعتبرها شركات قطاع خاص أيا كانت الطبيعة القانونية للأموال الوطنية المساهمة فيها فلا تسرى عليها التشريعات واللوائح والتنظيمات الخاصة بالقطاع العام أو العاملين فيه (المادة ٩) ، فلا يشترك العامل فى مجالس ادارتها (المادة ١٠) ولا يشتركون بنسبة محددة قانونا فى أرباحها (المادة ١٢) ، ولا يشترط نسبة خاصة من المصريين فى مساهمتها (المادة ١٢ فقرة ٣) ، ولا تخضع لرقابة التنفيد (المادة ١٣) ولا لتراخيص الاستيراد (المادة ١٥) ولا للضرائب عن الارباح التجارية والصناعية وملحقاتها (ضريبة الدفاع) لمدة خمس سنوات ، اعتبارا من أول ضريبة مالية لبداية الانتاج (المادة ١٦). ولا تخضع أرباحها الموزعة لضريبة الايراد العام بحد أقصى ٥ ٪ من رأس المال (المادة ١٧) وتعفى الفوائد المستحــقة على قروضــها من جميــع الضرائب الرسوم (المادة ١٨) ولا تخضع مبانى الاسكان الادارى وفوق المتوسط لأى حد فى القيمة التجارية (المادة ١٩) . وتحول اجور ومكافـــآت الاجانب الى الخارج فى حدود النصف (المادة ٢٠) ويحول رأس المال نفسه بعد خمس سنوات على أقساط (المادة ٢١) .

بعد صدور هذا القانون توالت التشريعات والقرارات لتحقيق أهداف سياسة الانفتاح ، واشتركت فيها كل المؤسسات حتى رئاسة الجمهورية ، فقد أصدر مجلس الشعب يوم ٢٥ يوليو ١٩٧٤ القانون رقم ٩٤ لسنة ١٩٧٤ بتفويض رئيس الجمهورية فى اصدار قرارات لها قوة القانون فى شئون الاستيراد والتصدير ، استثناء من القانون رقم ٦٥ لسنة ١٩٦٣ الذى كان ينص فى مادته الأولى على أن « يكون استيراد السلع من خارج الجمهورية بقصد

الاتجار أو التصنيع مقصورات على شركات وهيئات القطاع العام أو تلك التى يساهم فيها القطاع العام ، وكان بذلك أحد أركان التحول الاشتراكى .

أما بالنسبة للآثار الاجتماعية الضارة التى نتجت عن سياسة الانفتاح الاقتصادى فيجملها بعض الاقتصاديين فى خمس نتائج هى : (أ) اتساع الفوارق الطبقية . (ب) ظهور الحلول الفردية ومحنة الانتماء ، وانهيار هيبة السلطة . (ج) شيوع عبادة المستورد وأزمة الثقة فى النفس . (د) السلوك الطفيلى . (هـ) الانحطاط الثقافى .

وفى رأى فريق من الباحثين والعلماء الاجتماعيين أنه اذا أخذنا الأوضاع القتاصدية والاجتماعية فى الريف المصرى خلال الفترة الناصرية كأساس نجد أنه مقابل تقليص وتصفية نفوذ كبار ملاك الأراضى (مئة فدان فأكثر) تحسنت أوضاع الملاك والحائزين المتوسطين ، فزاد نصيبهم من الدخل الزراعى من ٢٥٪ عام ١٩٥٠ الى ٣٣,٢٪ عام ١٩٦٦ ، وانخفضت عدد الأسر الريفية التى تعيش تحت خط الفقر من ٣٥٪ عام ١٩٥٨ الى ٢٦,٨٪ من اجمالى الأسر فى الريف المصرى عام ١٩٦٥ ، الا أن الدورة قد عادت فى الاتجاه العكسى بعد عام ١٩٧٤ فارتفعت أعداد الأسر التى تعانى من الفقر تحت المستوى المحدد دوليا ٤٣,٣٪ .

وهناك جانب آخر من جوانب الآثار السيئة لسياسة الانفتاح الاقتصادى ، تمثل فى استشراء الفساد الأسرى لعائلة السادات ، وخاصة أخوته وزوجته ، وأدت هذه السياسة الى تهيئة المناخ السياسى والاجتماعى لأحداث العنف الجماهيرى والتى بدأت مع حادث الفنية العسكرية عام ١٩٧٤ ، وأعقبتها أحداث ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧ .

نخلص مما سبق الى القول بأن سياسة الانفتاح الاقتصادى بالطريقة التى طبقت بها ، قد أثرت سلبا على أنساق القيم السائدة فى المجتمع المصرى خلال الفتـــرة التالية لعام ١٩٧٤ ، وافرزت بالمقابل أنماطا من السلوك الاجتماعى السلبى ، وهى العوامل التى مهدت جديا الى تعدد عمليات وأد السادات ونظامه والتى كان نضجها محاولة ١٩٨١ .

وثالثا : سياسات التفريط فى قضية فلسطين وتداعياتها : لعبت سياسة الصلح مع اسرائيل دورا رئيسيا فى التمهيد لعملية اغتيال السادات ، ثم دوراً موازياً فى اعطاء حركة الاحياء الاسلامى فى السبعينات مبررا دينيا قويا لمعارضة النظام ولمحاولة ضربه ، لأنه فرط فى واجب دينى وهو واجب تحرير القدس ، وأدت سياسة الصلح مع اسرائيل التى قننتها اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩ الى تدهور العلاقة بين النظام السياسى وبين حركة الاحياد الاسلامى على اختلاف تنظيماتها - وتحديدا الجماعات الاسلامية بالجامعة - والتى شرعت فور زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٧ ثم توقيعه لاتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩ فى

إحداث اضطرابات ومظاهرات فى عدد من الجامعات الرئيسية مثل (القاهرة - عين شمس - أسيوط) نتج عنها سوء العلاقات مع النظام السياسى ، وساعد فى تصعيدها الموقف المعادى للسادات من الثورة الايرانية ، فضلا عن محاولات توظيفه لقضية تطبيق الشريعة الاسلامية لأهدافه السياسية .

ولعل أهم الجوانب التى أثر فيها منهج السادات فى الصلح مع اسرائيل هو قضية الهوية والانتماء لدى أجيال متتابعة من الشباب المصرى ، أحدثت لديهم سياسة الصلح مع اسرائيل هزة عنيفة فيما يؤمنون به من قيم اسلامية ، ما تمثله تلك السياسة من انهيار لبعض ركائز الهوية العربية التى كانت سائدة من قبل ، وحدث ما يمكن ان نسميه بازمة الهوية لدى هذا الجيل ، وإن جاء الرد على تلك الأزمة بطريقة عنيفة مضادة ، ومتزامنا مع دعوة عدد من الكتاب الى حياد مصر (توفيق الحكيم بدأها يوم ١٩٧٨/٣/٣)

وبداية فإن مفهوم الهوية يعد من أكثر المفاهيم استخداما فى علم الاجتماع ، وهو يعنى بالأساس « الوعى بالانتماء » .. وبالتالى فتحديد نطاق وحدود وأولويات الانتماء للمواطن داخل وطنه ، يرادف مباشرة مفهوم « الهوية القومية » . ان الهوية القومية بهذا المعنى تتكون من لغة واحـــدة ووطن واحد ومنظومة من التجارب والخبرات التاريخية للجماعة .

وفضلا عم سبق يلاحظ أيضا نمو الشعور لدى الفئات الشعبية بالاغتراب عن النظام السياسى نتيجة انهيار التضامن التقليدى تحت ضغط التحضر والتحديث المشوه ، وارتباط ذلك بأزمة الهوية كأحد أنواع الأزمات السياسية والاجتماعية التى لم تكون بعد روح المجتمع الواحد . وقد تحدث أزمة الهوية فى المجتمعات القديمة أيضا (مصر كنموذج لها) ، ويتمثل ذلك فى حدوث صراع سياسى واجتماعى بين « الهوية القومية » التى استقرت وتأصلت فى نسق القيم السائدة للأمة وبين « الهوية الوطنية » المرتبطة بإحدى الجماعات أو أحد الأقاليم ، وذلك إذا ما تمت تقوية الأخيرة بدرجة تجعلها تقف موقف الند من الأولى أو تتفوق عليها .

هذا .. ويلاحظ ان الفترة التالية لعام ١٩٧٧ وحتى عام ١٩٨٠ فى مصر ، قد شهدت بعض الخلل فى المكونات الأساسية للهوية العربية والاسلامية ، وكانت القطاعات الشعبية على اختلافها (فلاحون وعمال وموظفون صغار) أكثر القطاعات عرضة لما روجت له اجهزة الاعلام الرسمية بفشل البديل العربى فى حل معضلات الواقع المصرى سياسيا واقتصاديا ، وبأهمية البديلين الأمريكى والاسرائيلى داخل النسيج الاجتماعى المصرى ، الأمر الذى يعنى ضرب أحد المكونات والركائز الأساسية للهوية العربية والاسلامية فى مصر :

ركيزة التمايز والصدام مع الوجود الصهيونى ، وتم هذا جميعه من خلال عمليات الغزو السياحى والثقافى المنظم فتمت العديد من اللقاءات والمؤتمرات السياسية والثقافية .

وفى مايو ١٩٨٠ تم توقيع الاتفاقية الثانية وأنشئ المركز الاكاديمى الاسرائيلى عام ١٩٨٢ والذى اتجه الى محاولة زعزعة الهوية القومية فى مصر من أساسها من خلال شبكة علاقاته واتصالاته بالمؤسسات والهيئات العلمية والاعلامية والشعبية المصرية ، ومن خلال أبحاثه الهامة فى الأصول العرقية للمجتمع المصرى وفى كيفية تفتيت مصر طائفيا ، وفى الوحدة الثقافية والعقائدية بين اليهودية والاسلام ، وفى الشعر العربى الحديث وقضايا التعليم الزراعى والميكنة الزراعية واستصلاح الأراضى ، وفى توزيع الدخل وحياة البدو والبربر وكيفية السيطرة عليها وفى تأثير السلام على العقل العربى ، وغيرها من الأبحاث المهمة المتصلة - بشكل مباشر أو غير مباشر - بضرب اصول الهوية العربية فى مصر بعد تحليلها ورصدها تاريخيا .

ورغم ما حدث من محاولات لضرب الهوية العربية لمصر نتيجة لسياسة الصلح مع اسرائيل ، فإن بعض الدراسات الميدانية أثبتت ان تلك المحاولات لم تنل من التوجهات الأساسية لدى المثقفين المصريين فى نطاق عدائهم لاسرائيل . ففى أحد الدراسات الميدانية بعد « التطبيع » عندما سئل المبحوثون (عددهم ٢٠٠ مبحوث) عما إذا كانوا يعتقدون ان المصريين والاسرائيليين سيستطيعون التعايش بشكل عادى فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد ، أم لن يستطيعوا ذلك ، جاءت الاجابات كما يلى : ٧٠٪ أجابوا بأنه لن يحدث تعايش فى المستقبل القريب و ٦٠٪ رأوا أنه لن يحدث تقارب فى المستقبل البعيد ، و٧٥,٥٪ من المبحوثين رأوا أن اسرائيل غير قادرة على بناء علاقات طبيعية تقبل فى اطارها التعايش مع الشعوب العربية بما فيها الفلسطينيون ، و ٧٨,٥٪ من عينة المبحوثين رأت ان إسرائيل وأمريكا شئ واحد فى مجال عدائهم للعرب . [د . سلوى العامرى - تصورات المثقفين المصريين لخصائص بعض الجماعات القومية واتجاهاتهم نحو هذه الجماعات - رسالة دكتوراه - ١٩٨٥] .

ومن الواضح بشأن سياسة الصلح مع اسرائيل ، أنها فشلت رغم الفوائد العديدة التى عادت على اسرائيل إثر توقيعها ، والتى تضمنتها نصوص اتفاقات كامب ديفيد ، وذكرها العديد ممن شارك فى تلك الاتفاقات أو راقبها ثم قام بتحليلها « نموذج (مذكرات محمد ابراهيم كامل) . ورغم ذلك فان هذه السياسة قد فشلت فى أن تحول القطاعات الرئيسية من المجتمع المصرى عن المفاهيم الثابتة المعادية لاسرائيل والتى تمثل مكونا أساسيا من مكونات الهوية للمجتمع ، وكانت حركة الاحياء الاسلامى هى اكثر تلك القطاعات ثباتا فى العداء لسياسة الصلح مع اسرائيل .

إن ما نود التركيز عليه هنا هو أن هذه السياسات بشأن قضية فلسطين وما تبعها من أزمة أصابت الهوية العربية والاسلامية لدى الشعب المصرى - قد ساهمت فى تمهيد الطريق الى اغتيال السادات ، وبخاصة لدى حركات الاحتجاج الاسلامى التى تضع فلسطين فى قلب اهتمامها العقائدى .

تلك فى تقديرنا أبرز العوامل التى مهدت الطريق أمام تنظيم الجهاد الاسلامى لاغتيال السادات ظهر يوم ١٩٨١/١٠/٦ . وهناك بالتأكيد عوامل أخرى مساعدة : سياسياً (مثل النزعة الاستبدادية للنظام ، ولا ديمقراطيته ، والتى تجسدت خير تجسيد فى احداث سبتمبر ١٩٨١ والتى زج فيها بتجمعات وقيادات المعارضة السياسية المصرية على اختلافها) واقتصادياً (مثل التفاوت الطبقى الواضح واهمال الريف المصرى على حساب الحضر نسبياً ، لأن الحضر اصلا كان مضاراً وان كان بدرجة أقل ؛ وضرب الصناعة الوطنية ، ورهن البترول المصرى ، ومد اسرائيل به لتطويل أجل بقائها فى قلب العرب) ، وغيرها من العوامل العسكرية والاجتماعية والثقافية .

نعم كان لهذه العوامل دورها المساعد ، الا ان العوامل الأخرى التى سبق تفصيلها ، كانت لها الاولوية والاسبقية بلا شك .

والكتاب الذى دعانا الناشر (رجب) للتقديم لترجمته العربية ، يقدم تفصيلات أخرى أكثر إثارة لمقدمات عملية الاغتيال ، وهو فضلاً عن ذلك يقدم لنا - ولأول مرة - رؤية الاسرائيليين لعملية اغتيال السادات (رجلهم الأول والتاريخى فى مصر) . ورغم العديد من التجاوزات ، والمبالغات التى قدمها الكتاب ، والتى ننبه لها ونحذر منها ونعتمد على ذكاء وفطنة القارئ فى كشفها ، إلا ان الكتاب يظل رغم ذلك حدثاً هاماً ، يستحق الترجمة ، لأسباب عديدة ، أبرزها ان هذه هى أول ترجمة عربية له .. وثانياً لأنه يحتوى على رؤية العدو لواحدة من أبـــرز أحداثنا المعاصرة واكثرها درامكتيكية : حدث اغتيال السادات .

* وأيضاً يكتسب هذا الكتاب أهميته من كون ترجمته تأتى فى ظرف تاريخى استثنائى ، يتمثل فى ملابسات ومضاعفات اتفاق (غزة - اريحا أولاً) الذى كرس الوجود اليهودى العنصرى فى وطننا الفلسطينى المحتل ، والذى صار فيه بعض المرتزقة من الكتاب العرب يترحمون على (كامب ديفيد ١٩٧٩) وعلى (السادات) ، الذى لو استمعنا لنصائحه وسرنا على نهجه عام ١٩٧٩ لما كنا قد وصلنا الى هذا الحال من الضعف .. هكذا يتبجح البعض من المرتزقة الجدد والقدامى ، وينسون فى غمرة تبجحهم - ان ما وصلنا اليه من تردى معاصر ، وانهيار كامل كان سببه المباشر (كامب ديفيد) ؛ وليس العكس ؛ فهذه الاتفاقية المشئومة هى التى فتحت الباب على مصراعيه لسقوط باقى العرب

رهناً للعصر الصهيونى . إن هؤلاء الكتاب يناقشـــون (النتيجة) ، ويتغافلـــون عن مناقشة (السبب) . وينسون عن عمد ، أن مصر هى (الجهاز العصبى للامة العربية) ، وفقاً لمقولة الراحل العظيم جمال حمدان ؛ فإذا ما اختل (الجهاز العصبى) ، فمن المؤكد أن كل الأطراف سترتعد وتتداعى ، وتنهار ؛ وهو ما حدث فعلياً بعد كامب ديفيد ١٩٧٩ .

* إن هذا الكتاب اليهودى ، يكشف لنا خلفيات خطيرة عن السادات وعصره ، وعن الانهيار الذى تعمد الصهاينة احداثه فى مصر لكى يشلوا العالم العربى بعد ذلك ؛ وهو لذلك كتاب هام بكل المقاييس رغم كل العداء الذى نكنه لمؤلفه ، وللكيان الذى نشر فيه ، وللعصابات التى قرأته أولاً بالعبرى ، والتى تسمى اليوم (اسرائيل) . ورغم كل ذلك فإن هذا الكتاب هام ، ويستحق القراءة ، وبخاصة فى هذا الظرف التاريخى الانهزامى الذى يعيشه حكامنا ونخبتنا المثقفة ، فهذا الكتاب قد يفيد فى تذكيرهم جميعاً بمصير واحد حاول أن يفرط فيما لا يملك ؛ وحاول أن يتجبر على البشر وأن يعادى الله ، جهاراً ؛ بمعاداته لمصالح الخلق ، ولدعاة الحق من الاسلاميين والاصلاحيين أياً كانت إنتماءاتهم ، إنه قد يفيد (نرجو ذلك) وفى الختام يهمنا أن ننصح الذين يسيرون على نهجه ومنواله ، آملين منهم أن يرتعدو ويتعظوا ويتأملوا قليلاً فى مسار الرجل ومصيره .

د . رفعت سيد أحمد

القاهرة ١٩٩٣/١٠/١

الفصل الأول

الدور الليبى : عملية البيريه الأحمر

دق جرس التليفون فى السادس من اكتوبر بمكتب العقيد معمر القذافى فى المخيم العسكرى بمنطقة العزيزية فى طرابلس . وكان العقيد فى ذلك الوقت يقوم بجولة فى احدى الوحدات العسكرية الليبية الموجودة بالقرب من العاصمة ، وقد شعر مدير مكتبه ابراهيم حونيش بالغضب والسخط ازاء جرس التليفون الذى أقلقه أثناء فترة الاسترخاء ظهراً .

وقد كان على الخط قائد وحدة الاستماع فى جهاز الاستخبارات الليبى ، حيث كان يرغب فى التحدث مع العقيد القذافى بصورة عاجلة . وصاح حونيش قائلاً : انه ليس موجود . ومن خلال الاعراب عن مشاعر عدم الصبر سأله قائلاً : ما الأمر ؟ رد عليه رجل الأستخبارات قائلا : ان هناك شيئا يحدث فى مصر . لقد تم اطلاق طلقات رصاص فى العرض العسكرى ، فقال حونيش وهو لايزال نائما : « هل ذكرت طلقات » ، رد عليه المتكلم « هذا هو الأمر » وقد لوحظت علامات التأثر فى صوته بدرجة كبيرة . « لقد سجلنا اذاعة العرض العسكرى من اذاعة القاهرة وفجأة توقف المذيع وبــدأ يصرخ قائلاً : يا خونــة يا خونة .. ثم بعد ذلك سمعت أصوات مجموعة طلقات من اسلحة اتوماتيكية وتوقف بث اذاعة العرض » .

وسأله مدير المكتب قائلاً : ما الذى يمكن ان تفهمه من ذلك (وقد بدا فى هذه اللحظة متيقظاً تماماً) ؟ . فقال الضابط « اننى اعتقد بأنهم اطلقوا النار على السادات وربما قتلوه . فلاشك أن هناك شئ خطيراً يحدث هناك . ويبدو لى أنه من الجدير إبلاغ العقيد القذافى » .

إن حونيش لم يكن فى حاجة الى النصيحة . فقد توجه مباشرة الى السنترال ووجهه احمر كالدم وصاح فى وجه عامل التليفون قائلا : ابحث لى عن العقيد فوراً .. هل انت تسمعنى ؟ حملق فيه عامل التليفون مندهشاً ، ثم عاد حونيش الى مكتبه . وفى ذلك الوقت كان يخطو فى الحجرة ذهابا وايابا بخطوات عصبية ، حتى دق فى النهاية جرس التليفون وكان المتحدث هو العقيد معمر القذافى .

وقال مدير المكتب بصوت متأثر : « لقد وقع حدث كبير .. انهم أطلقوا النار على السادات فى العرض العسكرى ... إننى اعتقد بأنهم اطلقوا النار .. اريد القول بأنه كانت هناك طلقات فى العرض العسكرى وان المذيع المصرى صاح قائلاً : خونة ... خونة ... ثم توقف الارسال بعد ذلك .. وهذا يعنى انه لم يحدث شئ جديد حتى هذه اللحظة » ، ثم

سأله العقيد وقد ارتفعت نبرات صوته إلى حد الصياح تقريباً : هل انت متأكد ؟ واضاف هل انت متأكد مما تقوله ؟ اننى اعتقد ذلك يا سيدى ، وهذا يعنى اننى متأكد تقريباً بأنه قد حدث له شئ بل وربما شئ خطير والا لماذا يوقفون الأرسال » . ان العقيد القذافى لم يسمح له بانهاء كلامه ، فقد أفضى فى سماعة التليفون بمجموعة من صيحات الفرح التى لم يسبق لمدير مكتبه أن سمعها من قبل . فقد بدا له فى لحظة أن العقيد معمر القذافى قد اختل عقلياً حيث قال : لقد نجحنا .. فى النهاية فعلنا ذلك . ولكن يا سيدى ؟ فصاح القذافى قائلاً له : لا تقل سيدى .. الآن اركع واسجد شاكراً الله الذى توج طريقنا بالنجاح . فلولا تحقيق ارادة ربنا ، لما كنا قد نجحنا فى المهمة ولما كانت خطتنا قد نفذت . وقال جونيش : سيدى اننى لست افهم او بعد أن هدأت تقريباً تلك المشاعر الثائرة والمعربة عن السرور عبر الطرف الثانى لخط التليفون قال : « سيدى اننى اقسم لك باننى لست فاهماً » ، فرد عليه العقيد معمر القذافى قائلا ، انك غبى وليست فيك ذرة من العقل . اننا قتلناه . نحن الذين قتلناه . وقال العقيد معمر القذافى انتظرنى اننى سأتوجه فوراً الى مقر القيادة وخلال ربع ساعة سأوضح لك كل شئ ..

أنه باستثناء فترات قصيرة اتسمت « بشهر العسل » والمعانقات المتبادلة ، فقد تميزت علاقات معمر القذافى مع انور السادات بمشاعر الاحتقار والأزدراء الشديد والاستهانة بدرجة كبيرة من جانب الحاكم الليبى . ان السادات من خلال اعماله واخطائه كان صورة عكسية تماماً لعبد الناصر ، الذى يعتبر الإله الموقر والذى لا ينسى بالنسبة للقذافى . فكلما دعم السادات حكمه وسلطته كلما ازدادت مشاعر الغربة بينهما ، لدرجة ان الهوة بينهما أصبحت لا يمكن تجاوزها . لقد حاول القذافى عدة مرات مساعد الحاكم المصرى من اجل اعادته الى الطريق الصحيح – وليثبت لنفسه فى نفس الوقت أنه لم يتماد فى تقديره السلبى تجاه السادات وحاشيته – ولكنه منى دائما بمشاعر خيبة الأمل والأحباط الشديد . لقد أدرك معمر القذافى أنه لن يستطيع ابداً ان يعقد تحالفا حقيقيا بينهما .

ان الاتجاه المتسامح للسادات تجاه أخطاء العقيد معمر القذافى ، الذى اعتبر نفسه الحاكم المنتظر للدولة المصرية – الليبية الموحدة وهو مثل الاسلوب الذى اتبعه اب مع ابنه المدلل مما دفع القذافى الى الأخذ بهذا الرأى وابعاده الى فترة العزلة فى الصحراء والتى خطط فيها دون هوادة لكيفية التخلص من السادات .

وبعد فشل فكرة الوحدة بين مصر وليبيا ، اصبح نظام حكم السادات هدفاً لمحاولات تخريبية دائمة من جانب القذافى . فقد كانت تتغلغل الى الأراضى المصرية جماعات للقيام بأعمال القتل والارهاب ، ولكنها نجحت دائماً فى التواجد لأيام معدودة فقط فى الاراضى المصرية – أو عدة أسابيع على الأكثر – وذلك قبل ان تقوم اجهزة الأمن المصرية بالقبض

عليها . وبمرور الوقت حاول الليبيون الانتقال من اسلوب العملاء الذين تم تغلغلهم إلى تقديم المعونة بالاسلحة والمعدات للمتعاونين فى المجال المصرى ، والذين كانوا يرغبون ايضا فى قتل انور السادات . وفى بعض الحالات – مثلما حدث فى قضية الهجوم على الكلية الفنية العسكرية بالقاهرة فى ١٩٧٤ – كان يبدو ان الهدف يمكن الوصول اليه ، ولكن المصريين نجحوا ايضا فى التغلب على تلك المحاولات .

ان وقف اطلاق النار الذى أخذه السادات على عاتقه فى حرب اكتوبر ، واتفاقيات الفصل بين القوات التى تم التوصل اليها فى اعقابها . كل هذه الأمور عملت على زيادة ضغط دم العقيد معمر القذافى بمعدلات كبيرة . ان رحلة السادات للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ كانت بالنسبة للحاكم الليبى منبأ وذريعة للحزب . كما ان صورة حاكم مسلم يركع ليؤدى صلاة الصبح على سجادة صغيرة بالقرب من سريره ثم يتوجه بعد ذلك الى المطار من اجل عرض السلام على اليهود اعداء الإسلام ، قد تسببت فى احساس معمر القذافى بضيق شديد ، وشعر ان احتماله فاق الحد . فقد رأى نفسه فى احلامه يقوّد الطائرات الليبية لضرب قصر عابدين ، وأمر مساعديه بارسال سفينة مليئة بالمتفجرات لقناة السويس من اجل اغراقها فى وســط ممر الملاحة وغلقه تماماً امام حركة السفن ومن ضمنها – من خلال مشاعر الخزى والعار – تلك التى تحمل علم اسرائيل .

إلا ان كل هذه الأمور كانت بمثابة أحلام زائفة تبددت إزاء مناعة تحصينات المصريين فى الصحراء الغربية – وازاء فعالية وكفاءة اجهزة التجسس المضادة فى الجيش المصرى . وقد رأى معمر القذافى وهو يضغط على اسنانه – ومن خلال الاحساس بعدم المقدرة على عمل شئ –كيف يتبلور السلام بين مصر واسرائيل . فى البداية كان التوقيع على الاتفاق فى مارس ١٩٧٩ ، ثم بعد ذلك رفع العلم الأسرائيلى بالقاهرة فى فبراير ١٩٨٠ . وعلى غراره فقد شاهدوا المسرحية المخجلة للحكام العرب التى استباحوا فيها دم انور السادات فى مؤتمر القمة الذى انعقد فى بغداد بعد التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد ، ولكن عندما تمت مطالبتهم بالتنفيذ بدا الحكام العرب كأشخاص لا يرجى منهم فائدة ، وكجبناء فى تنفيذ قراراتهم . .

ان معمر القذافى لم يكف عن المطالبة بخطة الاغتيال ، واعتبرها هدفاً رئيسياً لرجاله وطالب جهاز استخباراته بان يهتموا ليلاً ونهاراً بطرح خطط بديلة لتنفيذ المهمة . لقد تم بذل جهد كبير من اجل استخلاص الدروس من حالات الفشل السابقة ، واتضح جلياً انه كان هناك خطأين رئيسيين وقعا تقريباً فى جميع المحاولات التخريبية التى باءت بالفشل – الأول – محاولة الاستعانة بعملاء اجانب ليسوا مصريين فتم ، العثور عليهم والقبض عليهم بسهولة من قبل اجهزة الامن المصرية . والخطأ الثانى : الرغبة فى التسرع فى استخدام

العملاء الذين وصلوا للهدف بعد فترة قصيرة بدلا من اعطائهم فترة زمنية اكثر من من اجل التمركز ومعرفة المنطقة المحيطة بهم .

وفى مقابل ذلك اتضح لليبيين - من خلال استخلاص دروس الهجوم على الكلية العسكرية بالقاهرة فى ١٩٧٤ - أنهم كانوا على وشك النجاح جداً عندما استعانوا بعناصر مصرية عملت من خلال صفوف الجيش .

فهل كان هذا اعتقاداً زائفاً الذى بثه رؤساء الحكم فى مصر بأن الجيش المصرى محصن من أى خطأ ونظيف من اى شئ يلوثه ؟ أم كانت هناك ذرة من الحقيقة فى اعتقادهم ؟ وسواء كان هذا أو ذاك ، فقد حظى الجيش بوضع مفضل وذى امتيازات ، ولذلك يمكن أن يكون بسهولة بمثابة محمية لغرس المؤامرات . وفى النصف الثانى لسنة ١٩٨٠ فقط بدا لليبيين أنهم عرفوا الطريق السليم .

ان الحل كله كان ثمرة فكر شخصية غامضة ذات اهمية كبيرة تحركت فى الظل بجانب معمر القذافى ولم تستفد منه خيراً أو شراً ، بالرغم من انها كانت غير معروفة تقريباً لأجهزة المخابرات الغربية .

لقد كانت شخصية سيد قذاف الدم ابن عم القـــذافى وأحد ابناء قبيلة معمر القذافى . ان اسم هذا الرجل القوى هو قذاف الدم - والذى معناه اللفظى نفث الدم وتعنى بالترجمة الحرة فاصد الدم - قد ادى دوره بجانب العقيد بصورة ملائمة ومدهشة . لقد كان قذاف الدم مسئولا عن جهاز تصفية معارضى النظام الحاكم فى ليبيا ذاتها ، وايضاً فى دول خارج البلاد . وباعتباره يتبع معمر القذافى مباشرة وموالى له ، فقد اقام له قذاف الدم جهاز استخبارات قتالى مستقل ، مهمته تحديد اماكن عناصر المعارضة للحاكم الليبى فى جميع انحاء العالم ، ثم بعد ذلك العمل على التخلص منهم . واعتاد رجال قذاف الدم على مصادقة دوائر رحبة فى الأحياء العربية بالخارج واهتموا بجانب مهمتهم الخاصة بجمع معلومات استخبارية ايضاً .

وفى نهاية عام ١٩٨٠ عرض قذاف الدم أمام معمر القذافى خطة تفصيلية لتصفية السادات وقلب نظام الحكم فى مصر ، وهى خطة بدت مؤكدة جداً وذات احتمالات نجاح بدرجة كبيرة عن جميع الخطط السابقة .

وتقوم الخطة على مجموعة من الطلبة المصريين الموجودين بالخارج للدراسة فى احدى الدول الاوربية . لقد كان القاسم المشترك لأعضاء هذه المجموعة هو معارضتهم لسياسة السادات ونشاطهم فى الجامعة فى اطار خلية لمنظمة المخربين « اللجنة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة لمؤسسها احمد جبريل » . ان هذه المنظمة كانت لها علاقات

وثيقة مع قذاف الدم والمخابرات الليبية وعن طريقها أمكن معرفة مكان هذه المجموعة .

وعندما تعرف قذاف الدم على الطلبة المصريين اكتشف أن معظمهم تم استدعاؤه للعودة لمصر – خلال بضعة شهور لتأدية الخدمة الالزامية فى الجيش المصرى ، حيث نص القانون الجديد الذى صدر فى مصر مؤخراً بأنه اذا لم يتم تحقيق هذا الشرط ، فإنهم سيفقدون حق العودة لوطنهم ، وهذا يعنى ان يفقدوا جنسيتهم . هكذا تولدت الفكرة فى ذهن قذاف الدم : أن يتم جلب أعضاء المجموعة سراً الى ليبيا ، ويتم تدريبهم على استخدام الأسلحة ومواد التخريب ويتم تزويدهم بأجهزة اتصال حديثة . ثم بعد ذلك تتم عودتهم الى اوربا للسفر من هناك لمصر وتجنيدهم فى الخدمة العسكرية . انهم سيثبتون اقدامهم شيئا فشيئاً ويصبر فى التشكيل العسكرى ، وسيبحثوا بأنفسهم عن الفرصة المناسـبة لضرب السادات وهيئته الحاكمة .

وقام الجزء الأخر لخطة العمل على الشخصية المتعددة لرئيس هيئة الأركان العامة المصرى السابق سعد الدين الشاذلى ، الذى أصبح – نتيجة ابعاده وهو ذو البيريه الأحمر عن منصبه فى ذروة حرب اكتوبر لفشله فى وقف الزحف الاسرائيلى الى الضفة الغربية لقناة السويس – عدواً خطيراً للسادات ، كما تمتع بعد إبعاده بشعبية متزايدة فى صفوف كبار الضباط فى الجيش المصرى .

لقد تم تعيين الشاذلى سفيرا لبلاده بلندن حيث شن من هناك حملة سب ضد السادات وحكمه . وتم ابعاده للبرتغال وهناك قرر اقامة « الجبهة الوطنية لتحرير مصر » ، وهى منظمة اخذت على عاتقلها مهمة العمل من اجل تحرير مصر من عبء انور السادات . ان المبادرة الخاصة باقامة هذه المنظمة وأموالها جاءت عن طريق قذاف الدم . وقد دعا قذاف الدم الشاذلى الى تنفيذ المرحلة الثانية فى خطة الانقلاب التى اطلقت عليها المخابرات الليبية اسم « البيريه الأحمر » . وفور وصول الأنباء الأولى عن تنفيذ عملية اغتيال السادات بأيدى مجموعة الطلبة المصريين – الذين سيعملون فى تلك الأثناء كضباط فى الجيش المصرى – سيتم استدعاء الشاذلى بسرعة الى مقر اذاعة طرابلس من اجل استغلال بثها الضخم فى دعوة مؤيديه وانصاره الكثيرين فى صفوف الجيش الى تنظيم صفوفهم وتولى السلطة استعداداً لعودة الشاذلى للوطن . لقد كان افتراض المخابرات الليبية ان مثل هذا النداء عبر موجات الأثير سيحظى باستجابة كبيرة وبصدى داخل مصر وفى الجيش وخارجها . وفى اعقاب ذلك يتم تنفيذ المرحلة الثالثة من الخطة وهى استغلال الاذاعات الليبية فى شن حملة مخططة من البداية للقيام بعملية مسح مخ بصورة مركزة لجماهير الشعب المصرى . وقام خبراء ليبيون باعداد حملة للحرب النفسية : نداءات وشعارات باللهجة المصرية وانباء كاذبة عن « حجم حالة التمرد » التى تهدف إلى بث الفرقة والفوضى بين الشعب المصرى

وتسهيل مهمة الاستيلاء على السلطة امام انصار الشاذلي . وقد اطلع معمر القذافى على الخطة ولم يجد فيها عيباً . وبعد أن صدق عليها بدأ جهاز المخابرات الليبى فى تنفيذها . وتم سفر الطلبة المصريين جواً الى المعسكر العسكرى فى ٧ ابريل بالقرب من طرابلس حيث اجتازوا هناك سلسلة من التدريبات الصارمة تحت توجيه وارشاد خبراء سوفييت وليبيين . وقرب منتصف ١٩٨١ تم ارسالهم لمصر عن طريق أوربا . وكانت تعليمات قذاف الدم لهم هى التزام الصمت والهدوء واستخدام اللاسلكى بصورة هامسة ، والامتناع عن اجراء أى اتصال لا لزوم له فيما عدا ارسال بيانات فى تاريخ متفق عليه ، عندما يقتنعون بأنه قد اتيحت الفرصة الملائمة للقيام بهذا العمل .

وبالرغم من أنه لم يتم تحديد موعد ملزم ، فقد اقتـــرح قذاف الدم على الطلبة المصريين – قبل سفرهم من طرابلس – ان يفكروا فى موعد السادس من اكتوبر ١٩٨١ كأحد المواعيد الملائمة للقيام بهذه المهمة . وافترض أن طرد السادات خلال ١٩٨١ وتغييره بسعد الدين الشاذلى سيرغم اسرائيل على أن تفكر من جديد فى سياستها وان تؤجل عملية انسحابها من سيناء يالتى كان مقررا أن تتم فى ابريل ١٩٨٢ . ان مثل هذه الخطوة ستسحب بالفعل الأساس الخاص بتحقيق اتفاقية السلام المصرية – الاسرائيلية ، وعند انتهاء هذه الاتفاقية – سيتم وضع حد للمشاركة المصرية – الامريكية التى برزت فى المناورات المشتركة لجيوش مصر والولايات المتحدة وازدياد التواجد العسكرى الأمريكى فى هذ الدولة . وتم اطلاع سعد الدين الشاذلى من قبل الليبيين على سرية العملية وأعطى موافقته وتأييده لها ، فقد تجلت فيه مشاعر الانتقام بدرجة قوية تجاه السادات ، وذلك ازاء تدهور وضعه نتيجة إبعاده من منصبه .

وتم إعداد واستيعاب خطة الارسال والبث لمتطلبات الحرب النفسية وتم تجهيزها للعمل لدى تلقى نبأ تنفيذ عملية « البيريه الأحمر » . ان عبقرية الخطة قد تمثلت فى بساطتها ومرونتها ، وفى الحقيقة فإن مسئوليها ومنفذيها كانوا من ابناء الشعب المصرى الذين سيسقطون – هكذا افترض القذافى – مصر كثمرة ناضجة فى أيدى معمر القذافى .

ولم تمض نصف ساعة على نبأ اطلاق النار فى العرض العسكرى حتى عاد معمر القذافى بصورة مفاجئة إلى مقر قيادته فى منطقة العزيزية حيث ،كان ينتظره نائبه عبد السلام جلود وابن عمه سيد قذاف الدم .

وقد سأل معمر القذافى أثناء دخوله المقر : هل هو حى ؟ قال قذاف الدم اننا ما زلنا لم نعرف بعد. فقال معمر القذافى « إننى أرغب فى أن اقبل هؤلاء الشباب .. فهم جديرون بكل ثناء ومديح ، فقد قاموا بعمل ممتاز » ثم ضرب على كتف قذاف الدم . فكر قذاف الدم بصوت مسموع قائلا : « لكن الغريب انهم لم يتصلوا بنا قبل ذلك وفق ما تم الاتفاق

عليه . الا ان القذافى لم يسمعه فقد انتابته مشاعر الإيثارة والانفعال . وتساءل قائلا : أين الشاذلى ؟ رد عليه نائبه عبد السلام جلود قائلا : انه فى طريقه الينا . فقد عرفنا مكانه في الجزائر وهو سيكون معنا خلال بضعة ساعات . ثم قال معمر القذافى : « اذا كان الأمر كذلك : لماذا تنتظرون ؟ نفذوا فوراً خطة البث والارسال » . وخلال دقائق قليلة بدأت أجهزة الاعلام الليبية فى بث اذاعات طارئة وفقا لخطة « البيريه الأحمر » . فقد أذاعت وكالة الأنباء الليبية نبأ فى الساعة الواحدة والنصف ظهراً يفيد بان هناك مسيرات شعبية كبيرة تجرى فى شوارع الاسكندرية كتعبير تلقائى عن الفرحة والسرور ازاء رحيل أنور السادات . ثم اقتبست الوكالة بعد ذلك نبأ وبيانا ملفقا عن قوات ثورية مصرية » . وجاء فى البيان ان الأغتيال يعد جزءاً من الانقلاب العسكرى بقيادة « ضباط احرار » ، وقد أبلغ راديو طرابلس مستمعيه بأن السادات مات على منبر الرئاسة ... وفور ذلك دعا المذيع الليبى الشعب المصرى للاعلان عن مولد « مصر الجديدة » والحرة . وكل بضعة دقائق كان الراديو الليبى يذيع انباء ملفقة عن تقدم كتائب عكسرية نحو محطة الاذاعة بالقاهــــرة بهدف السيطرة عليها ، كما كان يعلن عن مئات القتلى نتيجة طلقات وحدات مضادة للدبابات انضمت للمتمردين وعلى الجالسين فى المقصورة فى العرض العسكرى .

وبعد ذلك بفترة بسيطة افاد الراديو الليبى تداعى الحكم المصرى وغلق المجال الجوى المصرى امام الرحلات الجوية . لقد كان فى استطاعة المستمع ان يأخذ انطباعا بأن مصر يجرفها الآن تيار من الفوضى والارتباك وذلك فى أعقاب عملية الاغتيال فى العرض العسكرى .

وكان المذيع الليبى يتوقف كل عشر دقائق عن البث ، ليعلن بتأثر أنه خلال فترة قصيرة سيلقى رئيس الأركان المصرى الســـــابق الفريق سعد الدين الشاذلى – بطل حرب اكتوبر – خطاباً للأمة المصرية التى ولدت من جديد : « الشاذلى فى طريقه الآن الى الاستوديو » .

لقد استمر برنامج البث الليبى وفقا لخطة البيريه الأحمر حتى ساعات الليل . وفى خلال أيام سيدلى وزير الخارجية الامريكى الكسندر هيج بشهادته أمام مجلس الشيوخ الامريكى بأنه – وفقاً لانطباعاته – فانه لم تكن هناك حملة مركزة لأجهزة الاعلام الليبية منذ لحظة الاعلان عن الاغتيال واعتبارها عملية تلقائية ، بل كانت ثمرة اعداد دقيق فى الوقت المناسب . إن الكسندر هيج لم يعلن فى ذلك الوقت عن وجود عملية « البيريه الأحمر » ولكن الرئيس الامريكى السابق جيمى كارتــــر ووزير الخارجية السابق هنرى كيسنجر ، قد أكدا فى مقابلة مع شبكة التليفزيون « أي . بى . سى » أنهما مقتنعان بأن معمر القذافى وقف بصورة أو بأخرى وراء عملية الاغتيال .

وبالرغم من ان القذافى كان لا يزال غير متأكد من وفاة انور السادات ، الا أنه لم ير أنه من الجدير وقف عملية حطة البث والارسال وظهور سعد الشاذلى ، فقد كان مقتنعاً بانه فى هذه المرة نجحت المؤامرة بصورة جيدة . ان التأكيد الذى صدر فى ساعة متأخرة جداً بشان وفاة السادات قد جعله يشعر بالرضاء والارتياح . والقصة الوحيدة والمؤسفة بالنسبة لمعمر القذافى كانت ان بيان التخلص من انور السادات قد القاه نائبه حسنى مبارك ، وهذا دليل على أن هناك شئا قد تعقد ، وان النائب قد ظل على قيد الحياة . وحوالى الساعة ٢٢ اتصل قذاف الدم بالعقيد معمــــر القذافى قائلا : إننى آسف يا معمر اننــا لم نأخذ هذا فى الاعتبار » . فقفز العقيد كما لو كانت حية قد لدغته قائلا : « ماذا تقول ؟ كيف يمكن ان يحدث ذلك ؟ وما يمكن احتماله ؟ » . رد ابن عمه : « لقد درست وتأكدت تقريباً من أن هذه ليست مجموعتنا . ان المقصود على ما يبدو خلية اخرى ... ان هناك انباء مقتطفة تفيد بأن المقصود هو أعضاء إحدى الجماعات الاسلامية » .

ضرب القذافى بقبضة يديــــه على المائدة قائلا : « الى الجحيم : لماذا لا ننجح ولو مرة ؟ ». فرد عليه قذاف الدم الذى لم يجد كلمات أخرى قائلا : اننى آسف يا ابن عمى . ومرت فترة حتى هدأ القذافــــى من مشــاعر خيبة الأمــــل ، ثم قال اترك هذا الأمر .. المهم ان الخائن قد تمت تصفيته .. والآن ارى أن اذيع بياناً فى الأذاعة » . وقد أخذ القذافى ورقة من مكتبه وكتب فيها بضعة سطور . ثم بعد ذلك امر أن يتم إيصاله مباشرة بالمذيع فى مبنى الأذاعة واملى عليه بنفسه : « إلى رجال القوات المسلحة المصريين : فلاحين وتلاميذ وطلبة رجالا ونساء .. هؤلاء الذين عاصروا عبد الناصر وهؤلاء الذين بنوا السد العالى . ان وجه السادات القبيح قد تلاشى . لقد مات السادات وماتت معه مشاعر الخزى والخجل والخيانة . وحدوا صفوفكم وتوجهوا بجماهيركم الى مقر الاذاعة واعلنوا ان مصر ماضية فى طريق الثورة .. طريق عبد الناصر » .

وفى الساعة ٢٢,١٥ تمت اذاعة تلك الأقوال من اذاعة طرابلس . ولكن خطاب الترويج لسعد الدين الشاذلى لم تم اذاعته . إن عملية البيريه الاحمر قد فشلت بالفعل فشلاً ذريعاً ، ولكن السادات رغم ذلك لقى حتفه ولو كان ذلك بأيدى آخرين . وفكر القذافى فى أن هذا الحدث يعد سبباً كافياً للاعلان عن يوم عيد قومى .

وبعد مضى يومين ، سمع صوت الشاذلى رئيس الاركان المصرى المعزول من طرابلس فى مقابلة مع شبكة التليفزيون « بى . بى . سى »، حيث دعا الشعب المصرى الى الخروج للشوارع والتظاهر من اجل الحرية ومن اجل اطلاق سراح المعتقلين السياسيين من السجون . وعندما سئل الفريق المصرى عما إذا كان هو وأنصاره قد اغتالوا انور السادات قال : « انه ليس فى استطاعتى الآن ان أرد على هذا السؤال » .. وعندما ضغط عليه صاحب المقابلة قال : « إننى لم أذكر أننى أنفى ذلك » .

الفصل الثانى

العنف الاسلامى

فى منتصف ليلة الـ ١٨ من أبريل سنة ١٩٧٤ تم إطفاء النور فى مبنى الكلية الفنية العسكرية بالقاهرة . وقد ابلغ حراس البوابة الخلفية الضابط المناوب العقيد احمد شفيق بسيونى بأن مجموعة أشخاص هاجمتهم واستولت على اسلحتهم . وقد أمر الضابط باستخدام الإنذار العام . ثم سارع بالاتصال بباقى الضباط الذين كانوا فى المبنى . وفى تلك الاثناء قتل وجرح بعض الحراس . ودارت معركة بإطلاق الرصاص بينهم وبين المهاجمين الذين انقسموا الى مجموعات بهدف السيطرة على أجنحة مختلفة فى المبنى . ان الشرطة العسكرية التى تم استدعاؤها للمكان فرضت حصاراً على المبنى . واستمر الحصار حتى نجح رجالها فى النهاية من السيطرة والقبض على المهاجمين . وقبل الصباح بلغ عدد القتلى ١١ والجرحى ٧٢ .

كشف التحقيق الأول عن وجود علاقة بين مهاجمى الكلية وبين بعض تلاميذها . وان هؤلاء ينتمون لمنظمة متطرفة غير معروفة لأجهزة الأمن اطلقت على نفسها اسم « فتيان محمد » يرأسها صالح سريه ، وهو فلسطينى يبلغ من العمر ٣٧ عاماً . وذكر سريه للمحققين معه بأنه هرب من فلسطين للعراق فى سنة ١٩٤٨ ، وانضـــم هناك الى صفوف « الأخوان المسلمين » . وبمرور سنة أو سنتين أقام لنفسه منظمة مخربين صغيرة يطلق عليها اسم : « جبهة تحرير فلسطين » حيث كان يتم تمويلها عن طريق سرقة اليهود الأغنياء فى شوارع بغداد .

لقد مرت سنوات حتى بدأت السلطات العراقية فى الاهتمام ودراسة اعمال صالح . فقد شكوا فيه بأنه قد تآمر على اغتيال الرئيس احمد حسن البكر ، وفى آخر لحظة نجح بالفعل فى الهرب منهم وجاء للقاهرة . واستعان فى العاصمة المصرية بالتوصيات الطيبة من جانب اصدقائه من منظمة التحرير الفلسطينية من أجل أن يبدأ عملاً جديداً . إن البحث والدراسة التى أعدها عن التعليم العربى فى إسرائيل قد جعلته يحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة عين شمس ، وفى النهاية حصل على وظيفة مشرفة كمحاضر فى نفس الجامعة .

وحاول صالح سرية طوال ذلك الوقت اثناء تواجده فى القاهرة إيجاد الطرق للاتصال بقيادات قديمة فى منظمة الأخوان المسلمين الذين اعتبروا فى سنة ١٩٥٤ خارجين عن القانون فى عهد جمال عبد الناصر . وقد حثهم على استئناف النشاط الرسمى للمنظمة ، ولكنهم رفضوه تماماً . ليس فقط بسبب رغبتهم للوقوف على معاملة النظام الجديد بزعامة

انور السادات بتجاهم ، بل بسبب أن اسلوب صالح سريه لم يروق لهم . بمعنى بسيط فقد اقترح عليهم التجاوز عن مرحلة تعليم الإنسان والأسرة والمجتمع كله والانتقال إلى فكرة العودة الى الإسلام وبدلا من ذلك – العمل مباشرة على اقامة الدولة الاسلامية عن طريق الاستيلاء على السلطة بالقوة . وزعم سريه أن لديه جميع الوسائل لتحقيق هذا الهدف . إلا أنهم لم يثقوا فيه .

وهو لم يحكى لهم عن علاقاته الوثيقة مع حاكم ليبيا معمر القذافي . ففى صيف ١٩٧٣ سافر إلى طرابلس من أجل التشاور مع العقيد معمر القذافى بشأن أفضل طريقة لعمل الانقلاب . وقد احب القذافى الفكرة ، وهو قد شك فى السادات بأنه لن يحقق ابدا خطة الوحدة الكاملة التى اتفقوا عليها فيما بينهما ، وامد صالح سريه ليس فقط بالنصيحة والتشجيع بل أيضاً بالدعم المالى والمعدات .

وفى نهاية ١٩٧٤ أصبح تحت قيادة سريه حوالى ١٠٠ مقاتل ، معظمهم طلبة والأقلية منهم مهندسون وموظفون وفنيون . وكان منهم أيضاً بعض ضباط فى الكلية الفنية العسكرية ، وبهذه الصورة طرأت عليه فكرة مهاجمة الكلية العسكرية من اجل الاستيلاء هناك على السلاح والمركبات ومواصلة التقدم إلى مقر اللجنة المركزية للحزب الحاكم حيث كان مقرراً ان يلقى الرئيس السادات خطاباً فى ذلك الوقت . حيث إنه افترض بانه لن نيكون السادات فقط ، بل جميع الهيئة القيادية المصرية ستكون متواجدة فى المبنى اثناء القاء الخطاب واعتقد سريه انه سيكون فى استطاعته اصطياد جميع العصافير بحجر واحد . لقد كانت هناك مسافة بضعة مئات من الأمتار تفصل بين مبنى اللجنة المركزية المطلة على النيل وبين المبنى العالى الموجودة فيه الإذاعة والتليفزيون بالقاهرة. وإنه فور اعتقال الهيئة القيادية المصرية فإن سريه خطط للأسيلاء على محطة الأذاعة وابلا غ الشعب المصرى والعالم كله بعملية الانقلاب . ولكن سريه ورجاله قد تم اعتقالهـــم فى المرحلة الأولى فى مبنى الكلية العسكرية .

وبمرور سنة على يوم الهجوم على الكلية العسكرية حكم على سريه واحد معاونيه المقربين بالإعدام . وتم إعدامهما فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٦ . ولكن ستين متهما من بين اعضاء المنظمة حصلوا على البراءة وأطلق سراحهم . وقليلون فقط مهم حكم عليهم بفترات سجن قصيرة . وخلال فترة قصيرة سيكتشف انور السادات بأنه ارتكب خطأ جسيماً عندما قرر ان يصفح بدرجة كبيرة عن افراد منظمة « فتيان محمد » .

ويبدو أن الهيئة القيادية المصرية لم تقبض على تنظيم المجموعة ، الذى يشكل تهديداً خطيراً على حكم انور السادات . ان سريه كان فلسطينياً ، وبناءً على ذلك فهو اجنبى وشخص ليس له جذور فى ارض مصر ، استعان بعنصر خارجى ، وكانت جهـوده للتآمر على الشخصية الحاكمة ، معروفـة للسـادات ، وكانت هناك وسائل وراءه للمتابعة والـرقابة

إن عدد أعضاء المنظمة كان صغيراً ، وما بدى للسادات أهم من كل شئ ، فقد كانت أفكاره بشان الاستيلاء على السلطة بالقوة هو الأمر الذى لم يكن مقبولاً لدى زعماء « الأخوان المسلمين » الذين يشكلون القوة الإسلامية المعارضة والاساسية فى الدولة .

وقد نشأت حركة « الأخوان المسلمين » فى مصر سنة ١٩٢٨ وحدد اعضاؤها هدفاً وهو العيش مع المجموعة الإسلامية وتحويل بلدهم الى طائفة سياسية حديثة تقوم على قوانين الإسلام .

إن ايدولوجيتهم التى اقترحت رداً على أزمة التطور الحديث وخاصة لدى سكان المدن قد ساعدتهم فى ان يصبحوا بسرعة احدى الحركتين السياسيتين التى لها تأثير كبير جداً فى مصر بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد كانوا منتظمين جداً ، كما انهم اقاموا جناحاً شبه عسكرى .

ان السادات يعرف جيداً زعيم الأخوان المسلمين الشيخ حسن البنا ، وكتب فى مذكراته انه يكن له التقدير ، وتأثر بلا حدود بتعاليمه التى استخدم فيها اسلوبا كان يعد نادراً لدى الوعاظ المدنيين . لقد تحدث البنا ليس فقط عن شئون العالم المستقبلية بل أيضاً عن شئون هذا العالم .

وبسرعة ادرك السادات الخطر الذى يكمن فى حركة الأخوان المسلمين : انهم لا يحصرون أنفسهم فى النشاط الدينى بصورة محضة ، بل يضعون انفسهم كحركات سرية تسعى للأستيلاء على السلطة فى مصر ، وكتب السادات فى مذكراته أن اللقاءات القليلة التى اشتركت فيها ايام الثلاثاء اكدت الشك الذى كان يساورنى ، حيث انه أثناء لقاء الشيخ البنا فى يوم المولد النبوى ذكر : « إن لنشـــاطه أهدافا سياسية يعمل من اجلها بصورة حازمة جداً .

ولا شك إن ثورة يوليو ١٩٥٢ فى مصر والتى كان السادات أحد اعضائها قد خاضت صراعاً على السلطة بين جماعة الضباط الأحرار وبين الأخوان المسلمين حيث كتب السادات قائلا : إن الاخوان المسلمين قد أعلنوا علينا انذاك حرباً ساخرة من خلال نية واضحة وهى اسقاطنا والاستيلاء على السلطة فى مصر . ولقد بلغ الصراع ذروته فى اكتوبر ١٩٥٤ بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر الذى اعتبر الأخوان المسلمين حركة خارجة عن القانون ، وتم إعدام كثير من أعضائها ، وتم اعتقال زعمائها ، ولكنها استمرت فى ممارسة نشاطها بصورة سرية رغم قمعها بيد حديدية فى كل مرة يظهر فيها هذا النشاط . مثلما حدث فى سنة ١٩٦٥ عندما تم اعدام سيد قطب احد زعمائها البارزين .

وإنه بعد تولى السادات زمام الحكم بفترة قصيرة اعترف لمسامع دبلوماسى عربى الذى

خدم فى القاهرة قائلا : « إننى اعرف جيدا مدى قوة الأخوان المسلمين والقوى المتفجرة لديهم وقدرتهم على التغلغل بين صفوف الجيش وتأثيرهم على الطلبة إننى اعلم إن لديهم اكثر مما لدى عناصر اليسار وأنه من السهل التغلغل فى صفوف الجيش ، واننى اسمع الشعارات التى يرددونها ضد الحكم ، ورغم ذلك فانه يجب على فى الوقت الحالى ان أبدى تجاههم معاملة ونظرة متعاطفة رغم اننى مقتنع بأن معركتى الاخيرة ستكون معهم » .

وفى ظل حكم السادات عاد الأخوان المسلمين للعمل بصورة واضحة من خلال الدعاية وتجنيد مؤيدين . وفتح أمامهم أبواب السجن ، وتجاهل الخطب المتطرفة لرجالهم فى المساجد ضد طابع الحياة الحديث ، وضد شرب الخمر والدعارة فى المجتمع المصرى ومظاهر الفساد فى الهيئة القيادية المصرية .

لقد سلم السادات بقوة التفاهم والتزام الصمت الذى سار بينه وبينهم ، فهم يهتمون بما يخصهم فى تهيئة القلوب لإقامة المجتمع الإسلامى السليم من خلال تعليم الشعب وخاصة تعليم الفتيان أسس الاسلام – ولكن يبتعدوا عن مظاهر العنف بل ويحصروا انفسهم فى شن النقد عليه وعلى نظام حكمه ، بينما السادات من جانبه لن يسمح بتنظيمهم فى حزب سياسى وان يسمح لهم بشن دعاية هادئة من اجل الدعوة الاسلامية .

وقد وجد السادات – من خلال معارضة الاخوان المسلمين لأفكار صالح سريه بشأن الاستيلاء بالقوة على السلطة – دعماً للموقف المعتدل الذى اتخذه . وسمح لهم فى يونيه ١٩٧٦ باستئناف صدور مجلتهم المعروفة باسم « الدعوة » . كما تغاضى عن النشاط الرحب للأخوان المسلمين داخل حرم الجامعات .

وفى النهاية سمح لهم أن يؤسسوا فيها اتحادات اسلامية . إن اعضاء تلك الأتحادات قد بدأوا طريقهم بعقد ندوات ومعسكرات صيفية واصدار مجلات وكتيبات . وقد أثروا وفرضوا طابع حياة إسلامى فى الحرم الجامعى وطالبوا بالفصل بين الاجناس فى مدرجات الدراسة والمحاضرات .

إن السادات لم يرى فى ذلك عيب أو اعتراض . بل العكس فقد كان يعتقد فى البداية بان نشاط الاتحادات بين جدران الجامعات سيقف فى طريق الدوائر اليسارية الماركسية والتى رغب فى القضاء عليها ، وربما يساعد على كبح جماح الجماعات الإسلامية المتطرفة التى تؤمن بالعنف مثل جماعة « فتيان محمد » لصالح سريه وأية جماعة آخرى تحاول المضى فى أعقابها . إن هذا الافتراض قد تم دحضه وتفنيده فى ٦ يوليه ١٩٧٧ . ففى صباح هذا اليوم عثر فى فيلاً مهجورة بالقرب من الاهرامات على جثة وزيـر الأوقاف السابق فى حكومة مصر . وقبل ذلك اتصل مجهول مساءاً بمكاتب وكالات الانباء بالقاهرة

وابلغهم بصوت هادئ : أنه تم قتل الشيخ محمد الذهبى » ، وقد عثر رجال المباحث على الشيخ البالغ من العمر ٦٢ عاماً عندما كان هناك حبل ملفوف حول عنقه وجسمه مرتدياً الجلباب الابيض الذى ارتداه اثناء اختطافه قبل الحادث بثلاثة ايام ، فقد جاء الى منزله اربعة مختطفين يختفون فى ملابس رجال الشرطة بعد منتصف الليل ، وطلبوا منه ان يرافقهم الى مقر الشرطة لأجراء تحقيق فى امور معينة . وقد بدأ افراد الأسرة فى الصراخ والبكاء عندما كانوا يأخذون الشيخ تحت تهديد الرشاشات من المنزل . وبدأ الجيران الذين تجمعوا فى المكان مطاردة احد السيارتين التى هرب بها الخمستطفون – وقد استطاعت السيارة التى جلس فيها الشيخ من الهرب بينما السيارة الأخرى قد تعطلت وتم القبض على سائقها .

وفى اليوم التالى عرض المختطفون مطالبهم وهى : إطلاق سراح زملائهم المحتجزين فى السجن ، ودفع فدية تقدر بنحو ٢٠٠ الف جنيـــه مصرى مقابل اطلاق سراح الشيخ الذهبى . فرفضت اجهزة الامن الاستجابة لتلك المطالب وكلفهم ذلك الكثير . فقد تم قتل الشيخ الذهبى كما بدأوا يفجرون عبوات متفجرة فى نقاط رئيسية بالقاهرة . فقد تم وضع شحنة متفجرات فى ميدان العتبة أدت الى تحطيم الزجاج فى قاعة المسرح القريب ، وكانت معجزة أن هذه العبوة لم تلحق خسائر فى الأرواح . كما انفجرت عبوة اخرى فى معهد الموسيقى العربية بالقاهرة . كما ان بعض رجال الأمن المصريين الذين اشتركوا فى محاولة القبض على المختطفين قد لقوا حتفهم فى شقة سرية فى صورة فخ .

إن عملية القتل الوحشية للشيخ الذهبى والصراع العنيف الذى دار فى أعقاب هذا الحادث بين أجهزة الأمن وبين المختطفين وشركائهم قد ادهشت الشعب المصرى الذى ادرك على الفور بان المقصود ليس مجموعة من اللصوص والخارجين عن القانون التى تمارس نشاطها لدوافع إجرامية للحصول على اموال . إنه من خلال المعلومات البسيطة التى تسربت للصحف المصرية فى الأيام الأولى بعد عملية الاختطاف قد ارتسمت صورة مخيفة لجماعة اسلامية متطرفة وعنيفة هدفها ان تسرى فى مصر قوانين وسلطة الاسلام السابقة ، وتغيير القوانين الحالية بقوانين القرآن . واتهام السلطة والمجتمع المصرى الحديث بالكفر والدعوة الى الابتعاد عنها .

ان حالة الخوف والهلع الشديد التى اجتاحت مصر اثناء ظهور الجماعة الاسلامية المتطرفة وأعمال العنف كان أيضا من نصيب أجهزة الامن المصرية . إن التحقيق مع قتلة الشيخ اظهر لهم أن المنظمة السرية قد بدأت نشاطها فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وقبل نشوب حرب اكتوبر بحوالى شهر اطرقت مجموعة من الاشخاص ذوى اللحية ومرتدى الملابس سوداء باب مسجد فى قرية مصرية منعزلة « عيبة » بمحافظة المنيا فى الصعيد . وطلبوا من أهالى القرية مواد غذائية ومياه .

لقد كان اهالى القرية مقتنعين بأنهم « جواسيس يهود » فاحضروا لهم المواد الغذائية والمشروبات ومع ذلك استدعوا الشرطة . وقد رغب رجال المجموعة اللجوء إلى الصحراء ولكن الاهالى تعقبوهم فى أماكن اختفائهم فى المغارات ، ورغم اطلاق نيران جهنم عليهم الا انهم نجحوا فى القبض على تسعة منهم وتسليمهم للشرطة .

واتضح من خلال البحث الذى قام به رجال الأمن المصريين وجود كمية كبيرة من السكاكين والأحبال والمواد التخريبية ، وكان هذا بمثابة اللقاء الأول للسلطات المصرية مع رجال « التكفير والهجرة » الذين عقدوا العزم على تحويل الحكم فى مصر وتغييره واقامة « مجتمع اسلامى فيه » الذى يتبع فقط مبادئ الاسلام ، وهو امر يدل على ان الهدف هو : محاربة الكفر المتفشى والعودة الى مصادر الاسلام ، وحكى أفراد المجموعة للمحققين بأنهم تواجدوا فى الصحراء من أجل الابتعاد عن مظاهر الكفر فى مدن مصر وانه فى نيتهم الهجرة لليمن وللسعودية ، وبمرور الوقت سيعودوا لمصر من اجل تطهيرها من الكفر والخطيئة .

الا انه فى نفس الوقت فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ لم تدرك أجهزة الأمن بان معتقلى المنظمة المتعصبين هم فقط بمثابة نهاية جبل الثلج الذى يختفى معظمه تحت سطح المياه . وهى خلية صغيرة من الحركة السرية الكبيرة التى نشرت خلاياً فى محافظات مختلفة فى مصر. وجمعت أسلحة ومواد تخريبية ، ويتوقع ظهورها من جديد بعد مرور اربع سنوات فى صورة عنيفة ومتطرفة اكثر ، الامر الذى تمثل فى مقتل الشيخ محمد الذهبى .

وفى اعقاب مقتل الشيخ فقد تم اعتقال ١٥٠ عضوا فى « التكفير والهجرة » . وادت عملية الاعتقال الى الكشف عن الاستعدادات الدقيقة التى اجرتها المجموعة للقيام بأعمال ارهابية على نطاق واسع . لقد تم استئجار عشرات الشقق سراً فى انحاء القاهرة وخارجها من خلال استخدام بطاقات مزورة ، كما تم اكتشاف مخازن للأسلحة الخفيفة وسيارة وبدلة وكتب توجيه وإرشاد عسكرية . وقد اجتاز الكثير من اعضاء المنظمة تدريبات وتوجيهات وارشادات حول استخدام الاسلحة الخفيفة وأعدوا خطط قتالية للتخريب فى أماكن عامة واختطاف اشخاص .

لقد كان رغيم المجموعة والمحرك لها يدعى شكرى احمد مصطفى ويبلغ من العمر ٣٥ عاماً ، ولد فى قرية صغيرة بمحافظة أسيوط بالصعيد . وعندما كان عمره سنتين تم طلاق والديه وعاش تارة لدى والده وتارة اخرى لدى والدته . وخلال فترة شبابه الأولى فقد سرق أوراق شراء أرض وممتلكات من والده وباعها لعمه ، وعندما علم الأب بهذا الامر أنزل به الضربات وطرده من البيت . وقد تعلم شكرى فى مدرسة ثانوية باسيوط ثم التحق بعد ذلك بكلية الزراعة بالجامعة المحلية .

وفى سنة ١٩٦٥ تم اعتقاله لأول مرة بتهمة الانتماء لجماعة « الأخوان المسلمين » وظل سجيناً في سجن طره حتى سنة ١٩٧١ ، عندما تم اطلاق سراحه بتعليمات انور السادات لدى اطلاق سراح باقى اعضاء الاخوان المسمين . واستغل شكرى فترة تواجده فى السجن من اجل بث نظريته وتعاليم حول الدولة الاسلامية ولتنظيم خلايا سرية بين زملائه فى السجن .

وبعد خروجه من السجن مكث فترات زمنية مختلفة فى بيت اخته عزيزة . وبعد القبض عليه فى سنة ١٩٧٧ حكت عزيزة أن السنوات التى قضتها معه كانت بالنسبة لها جهنم . فقالت إنه اجرم وابشع من زملائه ، فهو اللص الذى لا يعرف ما هو مسموح به وما هو ممنوع . فقد منعنى عن رفع اكمام الفتسان اثناء الغسيل حيث قال : ان اذرعك تعد عورة حتى بالنسبة لأخوك . وفى مقابل ذلك فقد كان يملأ الشقة باعضاء التنظيم ويرغمنى على الالتقاء بهم بل وتناول الطعام معهم ، وكان يأمرنى بالنوم فى الصالون حيث ان باقى الحجرات كانت مملوءة ومشغولة باعضاء التنظيم . وقالت عزيزة : إن كل امنيتى هى ان اراه مشنوقاً فى ميدان رئيسى .

واتضح من خلال التحقيق أنه فى ابريل سنة ١٩٧٥ اتخذ التنظميم اسلوباً جديداً من اجل المضى قدماً بأهدافه . فقد بدأ رجاله فى خطف الفتيات وارغامهن على الرواج من افراد الجماعة ثم بعد ذلك تم استعلالهن كإغراء لتجنيد اعضاء جدد . كما تم خطف نساء متروجات وارغموا على انضمام ازواجهن للجماعة أو طلب الطلاق منهم ، واذا رفض الروج فقد كانوا يهددونه بالقتل او بخطف اولاده .

ان احدى النساء العضوات فى الجماعة – والتى تم اعتقالها فى عملية لأجهزة الأمن المصرية – رفضت تلقى مساعدة طبية من طبيب بل من طبيبة فقط . وقد حكت انه وفقا لتعليمات زعيم الجماعة فانه محظور على الاعضاء سماع الراديو ومشاهدة التليفزيون . ان حالات الزواج بين اعضاء الجماعة كانت شيئاً مألوفاً ، وان قسائم الزواج كانت عبارة عن اوراق يتم اعطاؤها للزوج وللزوجة التى تتضمن التزاما بتنفيذ جميع تعليمات الزعيم . إن أية محاولة للخروج عن الجماعة كانت ترتبط بخطر القضاء على النفس حيث إن التعليمات تنص على الحاق الضرر بكل من يحاول الخروج من الجماعة . لقد كان هذا هو مصير عبد السلام عيسى مهندس الذرة الذى انضم للجماعة بعد اقتناعه بان المجتمع المصرى يعد مجتمعا كافراً . فقد اصبح الرجل الثانى فى التنظيم وذلك عندما كان يطلق عليه اسم حركى « ابو سعد » وعندما وقف عيسى على النوايا الحقيقية للجماعة تركها ، ولكن ليس قبل ارغامه على تطليق زرجته عضوة التنظيم التى اصبحت بعد ذلك حبيبة وعاشقة الزعيم شكرى مصطفى . ولقد حاول اعضاء الجماعة عشر مرات على الأقل ان يغتالوا عيسى حتى

هرب الى بلجيكا .

وتم ايضا اعتقال فوقية البالغة من العمر ٢٨ عاماً زوجة زعيم جماعة التكفير والهجرة وذلك بعد اعتقال زوجها . إن فوقية كانت خريجة كلية التجارة جامعة الاسكندرية . وعندما سألها المحققون سبب موافقتها على الزواج من مصطفى رغم علمها بأن له زوجة آخرى قالت : « لقد خظيت بشرف لم تحظى به الكثيرات من الفتيات فى العالم . ان امير المؤمنين (التسمية التى اطلقها مصطفى على نفسه) بجلالته وقدرته طلب منى ان اتزوجه فكيف ارفض رسول الله ؟

لقد كرست فوقية ابنها من الزيجة الأولى لأعمال العبادة ، أما ابناها الاثنان الصغيران من شكرى مصطفى فقد اخذتهما معها فى السجن . وحكت بأن مصطفى اعتاد على اتباع المساواة والعدل بين نسائه ، ويعطى لكل واحدة منهن ما تستحق وما يخصها .

وإنه فقط بعد اعتقال السلطات المصرية للكثيرين من أعضاء جماعة التكفير والهجرة فقد اتضح لهم كم كانت الجماعة منظمة جيداً وكم كانت موزعة فى محافظات مصر فى خلايا صغيرة لا تعرف خلية مكان الآخرى .

وكانت اسس نظرية شكرى هى : معارضة الحكم المصرى والواقع المصرى وإقامة حكم جديد يقوم على تعاليم الإسلام ويقوم على نظام التناوب .

وعندما تم اعتقاله فقد انزل على المحققين بوابل من التهديدات . فقال لكبير ضباط التحقيقات : « لا تعتقد بأنك ستفلت من عقوبتك » انك ستقتل بطلقة فى عينك اليسرى وفق ما قتلنا وزير الاوقاف الشيخ الذهبى . إن عددنا يبلغ اربعة آلاف شخص ، وانا شكرى لن اموت حيث إننى اكتسبت خبرة فى مرحلة النبوءة وقررت ان ارث هذه البلاد » . واتضح من خلال التحقيق مع ١٥٠ من اعضاء جماعة التكفير والهجرة « انه منذ ظهورهم الأول فى الصعيد قبل الحرب بشهر فى سبتمبر ١٩٧٣ فقد واصلوا العمل فى الخفاء دون عرقلة من قبل السلطات .

اما عملية الظهور الثانية « ظاهرة العنف » للتنظيم فى يوليه ١٩٧٧ فقد اثبتت للسادات ولأجهزة الامن بانهم فشلوا فى محاولتهم للسماح بالاتحادات المتطرفة العنيفة بالقيام بمهمة الإعلام والدعاية والتى قام بها خطباء فى المساجد ورجال الأزهر والهيئة الدينية . لقد تلاشى ايضا الامل فى ان « الاخوان المسلمين » عن طريق اتحاداتهم فى الحرم الجامعى – سيكبحون تلك الجماعات . والأخطر من ذلك ان كثير من الاتحادات الاسلامية فى الجامعات التى كانت حتى الآن تحت سيطرة الاخوان المسلمين قد انجرفت فى التيار الإسلامى المسلح ، واعتبرت مستودعاً لتجنيد القوى العاملة لجماعات العنف ..

ان الإخوان المسلمين انفسهم فى سنة ١٩٧٤ والذين ابتعدوا عن حركة « فتيان محمد » التى يتزعمها صالح سريه قد هبوا الآن للدفاع عن رجال شكرى مصطفى فقد اتهموا السلطات بالتضخيم المقصود والمتعمد لمعدلات الجماعة وحجم نشاطها وأهميتها ، من اجل الحد عامة من نشاط الجماعات الدينية فى الحرم الجامعى . فقد كتبت مجلة الدعوة الناطقة باسم الاخوان المسلمين قائلة : إنه بدلا من العمل على اعادة بناء اعضاء جماعة التكفير والهجرة الذين ليسوا سوى ضحايا المجتمع – فقد عملتم ضدهم بشدة غير عادلة ولا مبرر لها . ومن خلال عدم التفاهم التام وبهذه الصورة دفعتوهم الى اعمال العنف والارهاب

ومنذ ١٩٧٨ أصبحت مجلة الدعوة مجلة عدوانية مهاجمة وأقل تحملاً تجاه نظام الحكم . فقد استنكرت السادات ازاء زيارته للقدس وشهرت به ازاء اتفاقية السلام التى وقعها مع اسرائيل . ان اسلوب التفاهم والمتمثل فى التزام الصمت (الذى كان متبعاً بين الجماعة والسادات) لم يعد له وجود .

ان أسلوب الدفاع الذى اتبعه الاخوان المسلمون تجاه جماعة التكفير والهجرة قد وضع حكم انور السادات فى موقف الحيرة والارتباك . فبعد ان فشل فى مهمته مرتين فقد رغب فى ان يقمع الجماعات المتطرفة واعمال العنف باى ثمن ، ولكن رغم ذلك من خلال معرفته بتأثير الاخوان المسلمين المتزايد فقد رغب فى الامتناع عن خوض مواجهة مع الدوائر الدينية .

وقرر الرئيس محاكمة الجماعة امام محكمة عسكرية من اجل ان يؤكد مدى خطورة أعمالها ولضمان صدور احكام قاسية ، وقد حكم على خمسة من المتهمين من ضمنهم شكرى واثنان من نوابه بالاعدام ، وحكم على ٣٦ شخصا بفترات سجن مختلفة مع الاشغال الشاقة ، ولكن فى نفس الوقت حرص السادات على إجراء محاكمة مفتوحة وملائمة وفر فيها للمتهمين ليس فقط الدفاع الملائم بل ايضاً حرية التعبير والكلمة . واستغل المتهمون هذا الامر لمرات عديدة حيث استخدموا منصة المتهمين فى نشر افكارهم وانتقاد الحكم وهيئة القضاء . وقد منح السادات نفسه قدرا من الشريعة للظواهر المتطرفة عندما وضفها واعتبرها « كرد فعل طبيعى » للحكم المادى والكفر الذى ساد مصر فى الماض وهذا يعني ابان فترة عبد الناصر ./ هل فى الحقيقة اعتقد رئيس مصر فيما كان قد تفوه به ؟ هل فى الحقيقة خدع نفسه ؟ ان رجال الاتحادات الاسلامية المتطرفة واعمال العنف ستلقى بعقوباتها على سابقه ولن يلقى عليه وعلى حكمه الذنب ازاء ارتكاب تلك الأخطاء .

حيث انه فى النصف الثانى للسنوات السبعين بعد حرب اكتوبر قد تفاقمت مشكلة

طبقات عريضة فى الشعب المصرى . إن الآمال التى بثها الحكم فى حدود تغيير اقتصادى وحياة رخاء ورفاهية قد تبددت وتولدت مشاعر المرارة والإحباط والإحساس بعدم الأمل فى ظل تفاقم مشكلة الإسكان والارتفاع المذهل لأسعار السلع الخاصة بالمواد الغذائية الأساسية ومشكلة التشغيل والمرافق والخدمات المتداعية .

لقد كان الشباب المثقف هو الضحية التعسة جداً للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والآمال التى تبددت . إن الشباب المثقف الذى تصور أنه بفضل التعليم ضمنوا لأنفسهم مفتاح الرخاء للحياة الحديثة التى تتحقق لهم بسبب « تعليمهم » قد واجهوا واقعاً كئيباً لم يتيح لهم ثغرة أمل لتحسين وضعهم .

وبناء على ذلك فقد أصبحت الجامعات محمية طبيعية لبث ونمو الإسلام المسلح . ان الطلبة الذين يشعرون بالمرارة ازاء عدم مقدرتهم استئجار شقة حتى يكون فى استطاعتهم الزواج وإقامة اسرة والذين لم يتوافر لهم مكان عمل ملائم يعيشون منه قد اصبحوا مرشحين طبيعيين للتجنيد لجماعات العنف . ان معظم المنضمين الى الاتحادات هم شباب من الطبقة المتوسطة من ابناء القري او المحافظات الريفية الذين انتقلوا للإقامة فى المدينة الكبيرة فى القاهرة أو الاسكندرية لزوم الدراسة أو البحث عن مصدر رزق .

ان اللقاء المذهل مع المدينة الكبيرة والآثمة ومشاعر العزلة والغربة الاجتماعية والمشكلة الاقتصادية ومشاعر المرارة إزاء اتباع سياسة الانفتاح الاقتصادى للحكم التى سمحت لآخرين ولم تسمح لهم قد دفعت الطلبة الى الانضمام فى صفوف الاتحادات . ان هؤلاء قد عرضوا عليهم ليس فقط العودة الى طابع حياة محافظ ويتسم بالمساواة واخذ الاموال من الاغنياء وتوزيعها على الفقراء ، بل ايضا ايجاد حل لحالة الملل وعدم العمل . وفى بعض الاحيان وفروا لهم عملاً وغالبا حرصوا على ارتداء الجلباب الابيض بدلا من الملبس الافرنجى والذى لم يعد فى قدرتهم شرائه فى اعقاب ارتفاع اسعاره . وقامت الأتحادات بتوزيع كتب دراسية مجاناً على اعضائها ومحاضرات منسوخة ومقالات مترجمة تساعدهم فى دراساتهم .

ولكن الشباب الذين هم على هامش المجتمع ايضا قد وجدوا طريقهم الى اتحادات العنف ليس لأسباب ايدلوجية بل بسبب المشكلة الاجتماعية والاقتصادية . كما كان هناك ايضا اصحاب المهن الحرة والفنية وضباط جيش يشعرون بالإحباط . ان العامل المشترك لجميع الحركات الاسلامية المتطرفة واعمال العنف لم يكن فقط متمثلاً فى المطالبة بالعيش وفق قوانين القرآن بل يرجع اساساً للمفهوم القائل بان العالم قد بلغ هذه الدرجة من الكفر التى لا يمكن اصلاحها إلا بالنار . إن العالم اليوم ومصر من ضمنه يشبه ويماثل العالم قبل مجئ الاسلام . وان حرب الابادة فقط – الجهاد – وفق ما حارب محمد فى ذلك الوقت يمكن ان تغيره . إن هناك خيارا حاليا أمام الكفرة فى العصر الحديث وانور السادات

من ضمنهم وهو : الاسلام او السيف وأنه عن طريق السيطرة بعنف على مراكز السلطة فإن مصر يمكن اخضاعها للشريعة الاسلاميه وتطهيرها من نجاسة الغرب .

وقد وزعت الأتحادات خلاياها تدريجياً فى المدن الكبرى – فى القاهرة والاسكندرية والمنصورة والزقازيق وفى مدن الصعيد : اسيوط والمنيا وقنا وسوهاج ونجع حمادى ولكنهم يتخطوا ايضا مدن وقرى مثل بنى سويف وحلوان وطما والمعادى ودشلوب ومنوف ومنفلوط . لقد اضاء الهجوم الذى شنه « فتيان محمد » على الكلية الفنية العسكرية فى ١٩٧٤ النور الاحمر . كما ان عملية اغتيال الشيخ الذهبى والذى نفذته جماعة التكفير والهجرة فى سنة ١٩٧٧ قد ضغط على آلاف الأجراس الخاصة بالانذار التى تحذر من الكارثة المؤثرة وما سيعقبها . إن ظهور الجهاد فى اكتوبر ١٩٨٠ قد أدى الى وقوع الكارثة النهائية .

الفصل الثالث : ظهور الجهاد

وفى ربيع ١٩٨٠ أثيرت مرة أخرى نيران التعصب الدينى بين جدران الحرم الجامعى فى جامعات المنيا واسيوط . ووقف اعضاء الاتحادات الاسلامية فى الحجرات يسنون السكاكين . وجماعات من مرتدى الجلبات الابيض والاسود ومربى الذقون قد خرجوا للشوارع للبحث عن فريسة ، والويل للقسيس المسيحى الذى يقع فى ايديهم . ففى بعض الأحيان كان يثيرونه ويبصقون عليه ويجرون ، واحيانا ينزلون به الضربات حتى تلفظ أنفاسه .

ان توقيت ومكان استئناف وتجدد حالة الغليان لم تكن طارئة . ففى هاتين المدينتين الآمنتين فى العصيد يوجد للمسيحيين اغلبية فى السكان . الامر الذى اكسبهم احساساً بالقوة والثقة نسبيا مما جعلهم يسمحوا لانفسهم فى عيد الفصح ان يعبروا عن ايمانهم بصورة اكثر من اى وقت آخر ، وكان اظهار ديانتهم المسيحية يثير غضب المسلمين المتشددين بدرجة كبيرة وتشجعهم على القيام باعمال مضادة ، مثل التآمر على القساوسة وسرقة محلات الذهب المسيحية وحرق الكنائس وتحطيم تماثيل مريم العذراء .

لقد أنزل رجال الجماعات الإسلامية كثيراً من السخط على مسيحيي اسيوط والمنيا حيث ان هذا الامر اعتبر بالفعل ضد حكم انور السادات . إن جهود الرئيس المصرى فى ان يتبع – على الأقل تجاه الخارج – الأسلوب الحسن تجاه الاقلية المسيحية فى بلاده وتهدئة النفوس عن طريق توجيه تحذيرات للمتطرفين والمحركين فى كلا المعسكرين قد فسرها المسلمون المتعصبون على انها بمثابة اعطاء حماية من جانب الحكم للكفرة حاملى الصليب وان جهود الوفاق قد زودت من قائمة جرائم واخطاء انور السادات .

ليس هذا فقط بل إنه وفقا لمفهوم الجماعات الإسلامية فقد تدعم مركز الكنيسة

المسيحية فى مصر إبان فترة الرئيس انور السادات . كان الزعيم الروحى للمسيحيين البابا سشنودة الثالث - الخليفة رقم ١١٧ لمؤسسى الكنيسة المسيحية منذ حوالى ١٩٠٠ سنة - ضيف شرف فى المراسم والاعياد الرسمية وحصل على قفاز من الحريـر ، كما أن هناك وزيرين مسيحيين يتولان بصورة دائمة فى الحكومة المصرية ، ويتم اقامة كنيسة جديدة هنا وهناك بعلم السلطات وموافقتها والتزام الصمت من جانبها .

وقد تجمع حوالى ٥٠٠٠ طالب فى ٣ ابريل ١٩٨٠ فى حرم جامعة اسيوط وذلك للاستماع الى كلمة حلمى جـزار طالب فى كلية الطب يبلغ من العمر ٢٥ عاماً ، ذو قدرة كبيرة على الخطابة وذو شخصية قيادية ، وقد تبنى لنفسه لقب « امير المؤمنين » للجماعات فى منطقة القاهرة ، وجاء بصفة خاصة للصعيد من أجل الالتقاء هناك مع الشباب فى الجامعات .

وصرخ حلمى الجـزار ووجهه يتسم بالاحمرار كالدم ونظراته ينطلق منها ناراً قائلا : إلى متى ؟ - إلى متى تسمحوا لهؤلاء الكفرة على دفع اخواننا الشباب على تغيير دياناتهم وإغرائهم بالأموال والذهب كى يتخلوا عن قيم الإسلام ويتركوها ، ويتجهوا الى هذا العالم الفارغ ؟ فرد الطلبة قائلين : أنت على حق - أنت على حق .

وواصل الجـزار تحمسه للطلبة وللجمهور قائلا : ومن المسئول عن كل هذا ؟ انه الذى سمح لمسيحيى مصر ان يبطشوا كما يحلو لهم وان يستفزوا بيناتنا المنقبات ، انه هو الذى أعرب عن تأييده لشاه ايران وساعده على ان يوطىء بقدمه ارضنا المقدسة . وقد رد الطلبة فى صورة انشودة : « الشاه قاتل - الشاه قاتل » . لقد تكهرب الجو ولكن لحسن الحظ انفضت المظاهرة فى هدوء ، وأفراد قوات الأمن الكثيرين الذين تواجدوا خارج الحرم الجامعى لم يضطروا للتدخل . فقبل ذلك بأربعة ايام وقعت مصادمات عنيفة بينهم وبين الطلبة بعد تأدية الصلاة فى أحد المساجد التى تم فيها ترديد مطالب وخطب تستنكر نظام الحكم . ان الرئيس المصرى الذى يدافع عن المسيحيين بحجة الحفاظ على الوحدة الوطنية قد تعرض شخصياً للهجوم . وصاح الخطيب قائلا : وحدة وطنية مع من ؟ - مع اعداء الاسلام .

« قد انتظر رجال الشرطة المصلين لدى خروجهم من المسجد . ونتيجة للمصادمات التى وقعت بينهما قتل شاب وجرح ستة أشخاص وتم اعتقال ٥٤ شخصاً . وفى اليوم التالى وأثناء تشييع جنازة الشاب استؤنفت المصادمات بشدة . ان المتدينين المتعصبين قد تجولوا بسياراتهم فى شوارع اسيوط واطلقوا النار على رجال شرطة غير مسلحين .

وفى أعقاب ذلك تلقى رجال الشرطة تعليمات وفقا لتعليمات عليا باتبـاع ضبط

النفس بدرجة كبيرة اثناء مظاهرة فى الحرم الجامعى بأسيوط . واكتفوا بمتابعة ومراقبة المشتركين فيها وقد انفضت هذه المظاهرة بهدوء إلا أنه لم يمض وقت كبير حتى صدر فى القاهرة بيان من قبل وزير الاعلام والرئاسة منصور حسن جاء فيه : « أن الرئيس المصرى متمسك برأيه بالرد بحزم على أية محاولة لإثارة التوتر بين المسلمين والمسيحيين » .

إن كارم زهدى طالب بكلية الزراعة بجامعة أسيوط كان من بين المستمعين بصورة متحمسة لحلمى الجزار وقد كان زهدى عضواً فى إحدى الجماعات الإسلامية التى سيطرت على ساحات الحرم الجامعى لمعظم الجامعات فى مصر وكان له دور فعال فى المصادمات مع المسيحيين . وقد دعا هو وزملاؤه الى ضرورة قمع المسيحيين لدرجة ان يصبحوا لا شئ ازاء جرأتهم على التحرش بالإسلام بصورة سافرة وفظة بهذه الدرجة . والحقيقة أن اجراس الكنائس تدق فقط ساعة قيام المؤذن بالدعوة الى صلاة الظهر من مآذن المساجد ، وما الذى يضر بصورة اكثر من توزيع كتيباتهم الدينية وكتب العهد الجديد فى الاتوبيسات العامة وتوزيع كتيبات تحث الشباب المسلم التائه والذى يبحث عن طريقه للانضمام الى الكنيسة ؟

وقد اضطر زهدى وزملاؤه الى صد الهجوم . وبالتالى توالت أعمال الإضرار بالمسيحيين . وقد اختارت الزعامة الرئيسية للمسيحيين رد الفعل المعقول والملائم ، فقد أعلنت عن إلغاء جميع الاحتفالات بعيد الفصح واعتزل البابا شنودة بنفسه وذهب الى الصحراء الغربية تعبيراً عن الأحتجاج . قائلا : « إنهم يعتبروننا خونة ويوجهون لنا الاهانات ويرتكبون أعمالا استفزازية ضد كنائسنا . فقد تم خطف فتيات مسيحيات وأرغمن على تغيير ديانتهن » . إن الجيل الشاب للزعامة المسيحية لم يكن مستعداً للأكتفاء بالاحتجاج الهادئ ولم يعد يثق أيضاً فى وعود السلطة الحاكمة فى الحفاظ على النظام . لقد شعر الشباب المسيحى بالقلق الشديد ازاء تفاقم قوة الجماعات الاسلامية فى ساحات الحرم الجامعى وخشوا من أن الحكم من شأنه ان يزعن فى نهاية الأمر لمطالب المتطرفين فى فرض القانون الإسلامى كمصدر للتشريع الوحيد فى الدولة . فهم قرروا تنظيم صفوفهم والدفاع عن أنفسهم . إن تنظيمهم قد أدى إلى تفاقم الوضع ، والحوادث التى دافع فيها الطلبة المسيحيون عن انفسهم بأسلحة فولاذية من اعضاء الجماعات الاسلامية قد تطورت الى عمليات انتقامية يقوم بها المسلمون فى احياء مسيحية استخدم فيها الجانبان الأسلحة النارية ، وقد زادت الشرطة من عمليات الاعتقال . وأدرج اسم كارم زهدى فى قائمة المطلوب القبض عليهم من قبل رجال المباحث المصريين .

وفى يونيه سنة ١٩٨٠ هرب إلى الحرم لجامعة القاهرة ، ووجد ملجأ فى دور الطلبة الخاصة بالجامعة . وقد كان زهدى مقتنعاً بأنهم مضطرون للعمل فوراً من أجل كبح جماح

المسيحيين ولكنه لم يعرف إلى من يمكن اللجوء ؟ .

ظهر له النور ذات صباح فى مسجد النور الموجود فى العباسية ، فقد قدم له زميله شعبان عبد اللطيف، وهوشاب قصير القامة ذو لحية وذو عينين ملتهبتين يدعى عبد السلام فرج ويعمل مهندساً كهربائيا فى إدارة الجامعة ، وقد اهتم فرج بما يحدث فى اسيوط والمنيا وبالحرب التى تتسم بالإبادة التى يشنها أعضاء الجماعات الاسلامية ضد الكفار المسيحيين وقد تصادق الاثنان ، وحكى فرج لزهدى عن طفولته فى قرية الدلنجات فى محافظة البحيرة وعن والده الذى كان يعمل موظفاً فى قسم مكافحة البلهارسيا بوزارة الصحة ، والذى اعتقل عدة مرات بسبب عضويته وانضمامه لمنظمة الاخوان المسلمين ، وحكى ايضا عن أخواته البنات الأربع المتزوجات . وخلال احاديثهما بعد الصلاة التى استمرت ساعات طويلة من الليل فقد حكى فرج لصديقه عن كتابات المثقف ابيان تيميه الذى ولد فى البحرين فى سنة ١٢٦٣ قبل الميلاد . وعندما كان طفلاً جاء به والده إلى دمشق هرباً من المغول . وهناك تلقى تعليماً ممتازاً وقالوا عنه إنه لم ينس ما تعلمه . وحكوا أن معرفته بعلم اللاهوت والقانون الإسلامى كانت كبيرة وشاملة لدرجة أن الحكماء اعتبروه تراثا لم يعترف به ابيان تيميه . ان ابيان تيميه كان من انصار المذهـــب الحنبلى ، وهو اشد المذاهب الاسلامية الأربعة ، فقد رأى ان القرآن يجب تفسيره بصورة مبسطة والكلمات المقدسة فقط لا غير . . وقد كرس حياته لتطهير الإسلام من الكفر والتشويه اللذين هدداه بالهدم والدمار . وانه من خلال الاطلاع على كتابات ابيان تيميه فقد فعل فرج مثلما فعل كارم زهدى فى مصر العليا (الصعيد) فى تناوله لفصول الجهاد الذى يعتبر بمثابة حرب مقدسة ضد الكفار . ان العالم الاسلامى الكبير قد استباح دم زعماء المغول الذين استتروا وراء شعار الاسلام ولكنهم فرضوا على مواطنيهم القوانين الاجنبية التى جلبوها معهم . وقال فرج ان حكم المغول الكفرة يعتبر على غرار الحكم فى مصر . اليس من واجب المؤمنين فى مصر ان يقوموا بحرب الجهاد ضد الحكم الكافر ؟ هل هناك اسلوب اخر لتفسير ما اشار اليه ابيان تيميه ؟

لقد ازدادت ثقته بزهدى حيث اعترف فرج امام زميل له من الصعيد بان الجهاد كان اسم المنظمة التى كان أحد اعضائها حتى تم تصفيتها من قبل السلطات فى عملية خاطفة فى يناير سنة ١٩٨٠ . إن كثيرين من أعضاء المنظمة التى مارست نشاطها فى الاسكندرية والقاهرة كانوا اعضاء فى منظمة « فتيان محمد » الذين هاجموا الكلية الفنية العسكرية فى القاهرة سنة ١٩٧٤ والذين اطلق سراحهم من السجن فى تلك الأثناء وقد وضعت منظمة الجهاد هدفاً للقضاء على الحكم فى مصر وتغيير الدستور عن طريق احداث انقلاب عنيف . وحتى يحقق أعضاء الجهاد هدفهم تآمروا على المسيحيين وخاصة فى منطقة الاسكندرية . ولكن بعد ان وضعوا قنبلتين فى كنائس مسيحية فى المدينة نجحت السلطات فى القبض

عليهم واعتقال معظمهم كان من بينهم زعيمهم على مغربى الذى جرح فى عملية تبادل اطلاق النار ومات بعد ذلك متأثراً بجروحه . أما فرج فقد نجح فى الهروب . وفى الوقت الذى قابل فيه كارم زهدى لأول مرة كان فرج يبلغ من العمر ٢٦ عاماً ويعمل على إحياء منظمـــة الجهـــاد كأداة للأستيلاء على الحكم وإقامة الدولة الإسلامية .

إن الهدف المشترك قد وحد بين الإثنين . فلقد اتفق فرج مع زهدى على أن الانتفاضة المسيحية تعتبر خطراً جسيماً يجب معالجته بسرعة ، ولكنه اقنع زميله بأن هذه الظاهرة تعد عرضية للمرض الرئيسى الذى أصاب مصر كلها ألا وهو غياب حكم الله وتغيير قوانين الاسلام بقوانين اوربية مستوردة . وقال فرج انه لولا ان حاكم مصر كافرا لما كان لدى الميسحيين الجرأة على رفع رؤوسهم وان يحلموا باليوم الذى تقوم فيه فى مصر دولة ذات سيطرة مسيحية كما هو فى لبنان . وقال فرج متحمساً من شدة الاقناع أنه يجب خوض حرب سافرة . إن الحاكم الذى يجرؤ على إرسال رجال الدين المسلمين إلى السجن فإن مصيره الموت » . وفى إحدى لقاءاتهم اطلع فرج زهدى على سرية ما قام بتأليفه ، والذى بذل فيه جهداً كبيراً وقرر ان يكون بمثابة برنامج فكرى لمنظمة الجهاد فى صورتها الجديدة . وقد اطلق على الكتاب اسم « الشريعة المستترة » وكان بمثابة مزيج من المواد المقتبسة والمستوردة من مصادر مختلفة – كتابات قرآنية ومؤلفات لمفكرين مسلمين كتابات خاصة للخومينى وآخرين . وتتحدث مادة الكتاب بصورة كئيبة جداً عن مدى الانحطاط الذى يتعرض له المجتمع المصرى والتاكيد بضرورة العمل من اجل اصلاح الوضع بقوة الذراع بما فى ذلك وسائل الإرهاب . ان هذا الكتيب لم يتعرض على الإطلاق لمسألة طابع الدولة التي سيتم اقامتها فيما عدا كونها دولة تقوم على الشريعة الإسلامية ولم يتناول تفصيليا الأسلوب الذى سيتم اتباعه لتحسين مشكلة الجماهير .

وقد قرأ زهدى الكتيب بحماس ، وبمرور الوقت عينه فرج أميراً لخلايا التنظيم فى الصعيد وكلفه بتجنيد أعضاء جدد . وطلب من زهدى أن يحرص على ألا يتسلل الى الخلايا الجديدة أعضاء جماعات اسلامية أخرى يكون من شأنها أن تكشف اسراره . ولدى عودة زهدى للصعيد للقيام بمهمته الجديدة فقد بقى فرج فى القاهرة من أجل اقامة خلايا تنظيمية فى هذه المنطقة . إن عملية التجنيد تمت ببطء وبحذر شديد . عن طريق انضمام ابناء الاسرة وزملاء الأقارب أولا ثم بعد ذلك عن طريق تجنيد اختيارى فى المساجد . الشباب الذين يتوجهون كل صباح لتأدية صلاة الفجر امر يعكس مدى إمانهم الدينى العميق ويتم دعوتهم لفرج لإجراء مباحثات فى موضوعات دينية يدرس من خلالها مدى استعدادهم وملاءمتهم لتنظيمه ، واعتاد فى البداية أن يعرض التنظيم كإطار هدفه القيام بنشاط دينى ثقافى ونشر كلمة الإسلام الصحيحة وفق ما فعلت الجماعات الإسلامية التى لا تتسم بطابع

العنف ، ومؤخرا عُرض امام هؤلاء الاشخاص الجدد - الذين تم تجنيدهم - الأفكار الثورية وايدلوجية العنف ، وفي هذه المرحلة تم اقناعهم بأن التضحية ذاتية من أجل أهداف التنظيم التى هى التضحية من أجل الله . وكان فرج حريصاً جداً فى اختيار رجاله ، فهو يبحث عن اشخاص مثقفين يشكلون بمرور الوقت النواة المثقفة للدولة الإسلامية ، حيث إنه افترض بأن الجمهور الرحب سينضم عند حدوث الانقلاب .

لقد كان الكثيرون من رجال الخلايا من رجال الجيش ومعظمهم ضباط برتب صغيرة ولكن كان بينهم اشخاص برتب عالية مثل رائد وعقيد ، واكتفى فرج بذلك حيث إنه لم يكن مهتماً بتجنيد مجموعات من الضباط او حتى وحدات كاملة ، فقد اثبتت تجربة الثورة الايرانية أنه يكفى تجنيد الجماهير فى صفوف الثورة من أجل انهيار الجيش وانضمام وحدات كاملة باسلحتها ايضاً بدون تنسيق مسبق . بناءً على ذلك فإنه من الأفضل التركيز على تجنيد نواة صغيرة ومخلصة من الأعضاء التى يكون فى استطاعتها ان تجر وراءها الجمهور وأن تزيل من قلبه الخوف من قوات الأمن . إن مثل هذه النواة يجب ان تكون رمزاً ونموذجاً لملايين المؤمنين واقناعهم بأنه من الجدير التضحية بحياتهم فى هذا العالم مقابل الأجر والثواب فى العالم الآخر . إن ضباط الجيش الذين ساروا فى أعقاب فرج كانوا جميعاً متدينين جداً ويعارضون سياسة انور السادات . حامد مرسى مثلا ضابط برتبة ملازم فى سلاح الجو انضم الى التنظيم ، حيث إنه تأثر بالضرر الجسيم الذى الحقه انور السادات بالشريعة الإسلامية وذلك عندما سمح باستيراد الفراخ من اسرائيل . لقد وجد منفساً لمشاعره فى أحاديثه مع فرج الذى سارع بتوضيح الطريق السليم له .

وكان من بين المجندين الجدد لمنظمة الجهاد أيضاً قائد كتيبة الحرس لمطار الأقصر العقيد أحمد المفرقانى ، ورقيب فى كتيبة الحرس والدفاع فى القاعدة ٥٥ لهيئة الأركان وطيار فى سلاح الجو ، والرائد عصمت عز الدين التهامى .

وفى نهاية سنة ١٩٨١ بلغ عدد التنظيم للجهاد أكثر من مائة عضو . وتم فى منطقة القاهرة اقامة بعض الخلايا وخاصة فى أحياء بولاق الدكرور وألف مسكن والهرم وكذلك فى مناطق نهيا وصفط اللبن ، هذا بالاضافة إلى خلايا قام بتنظيمها كارم زهدى فى الصعيد - فى أسيوط والمنيا وسوهاج وقنا ونجع حمادى ، كما كانت هناك خلية أخرى فى منطقة الزقازيق .

لقد كان فرج الزعيم الأول بين أشخاص متساويين فى مجلس القيادة الذى أطلق عليه اسم « مجلس الثورة » (الإسم مأخوذ من عهد الإسلام السابق) ويعنى مجلس حكماء ومستشارين ، كما أن المقر الأعلى للبرلمان المصرى يعتبر كمجلس شورى له ويطلق عليه اسم (مجلس الشورى) وقد كلف هذا المجلس بمهمة تخطيط استراتيجية التنظيم ، وكان أعضاء

الشورى مسئولين عن مناطق قيادية مختلفة ، وكارم زهدى هو الأمير المسئول عن منطقة الجنوب اما عبود الزمر – عقيد فى المخابرات العسكرية – فقد كان مسئولاً عن منطقة القاهرة والدلتا .

لقد ولد عبود الزمر فى نهيا وهى قرية صغيرة غرب القاهرة ، ولكنه سكن فى وسط القاهرة ، ويتوجه الى قريته من حين لآخر لرعاية ستة أفدنة من الأرض ورثها عن والده بعد وفاته وهو ولد لأسرة محترمة ، اختار انور السادات أحد أبنائها لشغل منصب فى مجلس الشورى الموازى للبرلمان .

ولقد اتضح من خلال الحديث الذى أجراه فرج مع عبود الزدمر أن السبب الرئيسى لمعارضته بصورة معادية . ان السيدتين اللتين تزوجهما قد انجبتا له ابناء وليس بنات ، فأرجع الزمر هذا الأمر الى عيب فى جسمه وارجه ايضا إلى عيوب آخرى أوعزها لنفسه وتسببت فى حالات فشل فى حياته .

إن عدوانية الزمر البالغ من العمر ٣٥ عاما واتجاهه الكئيب لم تثنيا فرج حيث إن هذه الأمور قد تضاءلت مقابل مزايا الضابط . إن أهم شئ فيها هو مركزه العالى نسبيا الذى تولاه فى المخابرات العسكرية . فليس كل تنظيم سرى يحظى بأن يكون أحد أعضائه يتولى منصباً فى إحدى الأجهزة الحساسة لقوات الامن ، بالإضافة إلى ذلك أن رجلا عسكريا ذا خبرة كبيرة ومعرفة مثل عبود الزمر كان له تأثير بالنسبة لسلوك التنظيم والنظام وهما أمران مهمان لتنظيم الجهاد فى مراحل تكوينه . وبسبب ذلك اندهش فرج ازاء عبود الزمر الذى جاء اليه بعد انضمامه للتنظيم بعدة أسابيع وطلب الإذن فى ترك الخدمة بالجيش ، وقال له : إننى لم أعد أريد الخدمة فى مكان يفرضون فيه على الضباط ان يرصدوا أموالهم لحساب صندوق المكافآت والتعويضات المشترك ذى الفائدة ، حيث ان الفائدة محرمة علينا تحريماً خطيراً فى الاسلام . وقد تأثر فرج بالتمسك الدينى الشديد لعبود الزمر ، ولكن هذا التمسك لم يكن فى محله حيث انه من شأنه أن يبدو من الجهاد اى امل تعلق على عبود الزمن بالنسبة لتوسيع نطاق الثورة فى صفوف الجيش . وقد امره بالبقاء موضحاً انه فى حاجة إليه فى الجيش وليس فى خارجه ، وقد أذعن عبود الزمر لهذا الأمر ، وفى بعض الايام تولى فرج ليس فقط المسئولية عن منطقة القاهرة ، بل أيضا رئاسة الجناح العسكرى لتنظيم الجهاد . إن الهيئة التى تتخذ القرار داخل « الشورى » كانت ممثلــة فى فرج وعبود الزمر وابن عمه طارق ، وانه على ضوء نصيحة عبود الزمر تم تنظيم الجهاد إقامة ثلاث لجان عمل تضم كل واحدة منها ثلاثة او اربعة اشخاص : لجنة الاستعدادات التى تهتم بالحصول على الأسلحة والذخيرة وتأجير الشقق والسيارات ، ولجنة اقتصادية تتولى الحصول على الأموال التى تستخدم ليس فقط فى تمويل النشاط الجارى لتنظيم الجهاد ، بل أضاً من أجل تقديم

المعونة لأعضاء التنظيم فى السكن وشراء الكتب الدراسية ، بل والنفقات الأولية لمتطلبات الزواج وإلى جانب هاتين اللجنتين فإن هناك لجنة مسئولة عن توزيع المنشورات والتحريض وخلق الفوضى فى الشارع المصرى .

وعندما استكملت تقريبا عملية إقامة تنظيم الجهاد التقى فرج وزهدى فى المنيا ثم بعد ذلك فى القاهرة واتفقا على ضرورة تعيين شخصية ذات صلاحية دينية بصورة محضة لتعتبر رمزاً لتكتل التنظيم ومصدر الإيحاء لأعضاء التنظيم ومصدر جذب للأعضاء الجدد ، وقد اقترح زهدى اختيار الشيخ الكفيف عمر عبد الرحمن .

ان الشيخ عمر عمل مدرساً فى كلية الشئون الدينية بالفيوم جنوب غرب القاهرة . وفى نفس الوقت عمل كرئيس لقسم التفسير الدينى بجامعة أسيوط ، وهناك تعرف عليه زهدى لأول مرة . وكان أراء الشيخ الكفيف قريبة جداً من اراء زعماء تنظيم الجهاد ،ووووو وصلاحيته الدينية مقبولة ولا يمكن زعزعتها .

وفى ابريل سنة ١٩٨١ سافر إليه كل من فرج وزهدى للفيوم ، وهما حثاه على الانضمام إليهما . وقد كان فى نية الشيخ الرفض إلا أنه وعدهما قائلا : اننى سأصلى لله وأدعوه ان يتوج طريقكما بالنجاح ، قال تلك الكلمات بتأثر شديد وقال : إن هذا هو الطريق الصحيح ولكن بقدراتى المتوضعة لن يكون فى استطاعتى أن احقق لكما فائدة ، ولكن زعيمى تنظيم الجهاد قد اعتقدا شيئاً آخر ، فلم يتركاه لفترة اسبوعين متتاليين حتى وعدهما بأنه سيتولى منصب الزعيم الروحى لفتـــرة محدودة فقـــط ، فكان لانضمام الشيخ عمر الى « الشورى » اهمية حاسمة لتنظيم الجهاد وذلك فى ضوء الشرعية التى منحها لأعماله . ان فقرات الشريعة المنمقة جيداً والتى نشرها الشيخ بحكم صلاحيته وخبرته الدينية قد دفعت اعضاء تنظيم الجهاد على تصعيد هجماتهم على المسيحيين وسرقة اموالهم من اجل تمويل اعمال التنظيم . إن اموال الكفرة – جاء فى إحدى فقرات الشريعة للشيخ عمر – تتدفق للكنيسة التى يتم عن طريقها تمويل مقاومة الاسلام ، وزعم اعضاء تنظيم الجهاد أن المسيحى الذى سرق لن يذهب الى الكنيسة وقد اعتبروا هذا الامر خير وبركة .

ان هناك فقرة تشريعية أخرى سمحت لفرج ورجاله بمهاجمة وحدات الامن المركزى من اجل سرقة سلاحه . وبالنسبة لموضوع الجيش فقد كان الشيخ عمر حذراً جداً . فرجال الجيش الذين سيقفون فى طريق التنظيم بالنسبة للحصول على اموال واسلحة – او بمرور الوقت سيقفون فى طريق الثورة ، فإنه من الأفضل ضربهم بل وسحقهم ولكن يجب ان نكون حذرين حتى لا نقتلهم . ويرى الشيخ الكفيف أنه يجب تأجيل الصدام مع جنود الجيش حتى قرب نشوب الثورة ، حتى أنه عند انضمام الشيخ عمر لتنظيم الجهاد منح تصديقاً روحياً على كتاب فرج « الشريعة المستترة » . وزعم بان الإسلام فى عهد السادات

يعد مزيفاً ، وذلك مثلما تباهى المغول بكونهم مسلمين كما أن السادات يسيطر ويحكم مصر عن طريق قوانين أجنبية تتعارض مع الشريعة الاسلامية ، وخلال عام ١٩٨١ عمل تنظيم الجهاد على ان تمتلىء خزانة التنظيم ومخازنه بالأسلحة ، وفى اليوم الاخير لشهر رمضان قاد عبود الزمر رجاله لشن هجوم على محل ذهب فى حى شبرا الخيمة بالقاهرة . وانه نظير نصف كيلو ذهب تم سرقتها حصل التنظيم على ٤٠٠٠ جنيه مصرى وبهذه المبالغ قاموا بشراء بندقيتين اوتوماتيكيتين ورشاشين وسبعة مسدسات وذخيرة كثيرة ، كما سرق رجال كارم زهدى فى الصعيد محل ذهب مسـيحى وكانت غنيمتهم مزدوجة : كيلو جرام ذهب ، وقد تدفقت اموال اخرى على خزانة التنظيم من الجبايات والتبرعات التى تم القيام بها فى المساجد من أجل المناضلين فى افغانستان ومن مساهمات أعضاء فى التنظيم استطاعوا ان يدفعوا من اموالهم ومدخراتهم .

ان الاتصالات الخارجية لتنظيم الجهاد بزعامة فرج قد انحصرت بصفة خاصة فى الاتصال المتداعى الذى اجراه مع اتحاد الطلبة المسلمين برئاسة عصام العطار (زعيم الاخوان المسلمين فى سوريا وجولا فى المانيا الغربية) التى مارست نشاطها فى اوربا وساندت اعمال الإخوان المسلمين فى سوريا . وقد اجتاز جميع أعضاء تنظيم الجهاد تدريبات عسكرية على مستوى عالى استغرقت سنوات : لقد تولى عبود الزمر منصبه كرئيس للجناح العسكرى ، ونبيل المغربى الذى كان يعمل ضابطاً سابقا فى الجيش المصرى . وقد تمثلت التدريبات فى استخدام الاسلحة تركيبها وفكها والتدريب على إطلاق النار فى الصحراء الغربية وخاصة فى منطقة الواحات وايضاً التوبوغرافيا والملاحة واساليب التملص والإختفاء من قوات الأمن .

لقد تم القيام بالنشاط الفكرى ، وبصفة خاصة فى شقق مستترة تم استئجارها لهذا الغرض أو فى مساجد ، والفكرة الرئيسية التى تم تأكيدها هى النضال العنيف ودرجة التضحية التى سيقدمها عضو التنظيم والتى توضح مدى استعداده للموت من اجل تحقيق اهداف التنظيم . لقد كان فرج فخوراً باعضاء الجهاد الذين وافقوا جميعاً على التضحية بأنفسهم دون تردد فجميعهم ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى يستطيعون فيه الاستيلاء على السلطة وإقامة الدولة الاسلامية .

ان الفشل لمنظمة « فتيان محمد » فى سنة ١٩٧٤ و« التكفير والهجرة » فى سنة ١٩٧٧ لم تقلقهم ، فهم اعتقدوا أنهم ينظمون صفوفهم جيداً ومجهزين ، كما يجب استعداداً للقيام بالمهمة . بيد أنهم لم يحددوا موعداً محدداً لتنفيذ الانقلاب ولقد كانوا مشغولين فى تلك الاثناء بإثارة الحرب الطائفية التى نشبت مرة أخرى فى صيف ١٩٨١ ، وأصبحت بمثابة موجات الحر المقلقة التى تجتاح مصركل سنة فى هذا الموسم .

الفصل الرابع : عمليات الاعتقال الليلية

تفشت عمليات الشغب الطائفية التى حدثت فى أبريل ١٩٨١ فى الصعيد وانتقلت الى العاصمة وبلغت ذروتها فى ١٧ يونيه فى المصادمات بين المسلمين والمسيحيين فى حى الزاوية الحمراء بالقاهرة ، والتى استمرت يومين وأدت فى النهاية الى قتل ١٧ شخص وجرح اكثر من ٥٠ واعتقال ٢١٢ شخصا . كما وقع صدام اخر بين المسلمين والمسيحيين فى ٢٧ يوليه بالقاهرة . وفى ٢ اغسطس قتل ثلاثة اشخاص وجرح ٥٦ فى انفجار شحنة متفجرات اثناء حفل زواج اقيم فى كنيسة مسيحية فى حى شبرا . وبعد مرور حوالى يومين وقع حادث بين مسلمين ومسيحيين فى حلوان . وفى ١٧ من هذا الشهر وقعت أعمال شغب فى الاسكندرية . وقد شعرت القيادة المصرية بالقلق إزاء تفشى أعمال العنف الطائفية ولم يكف أن المسلمين المتعصبين قد خرجوا عن حدود ســاحات الحرم الجامعى إلى الشوارع ، بل لأول مرة ينشأ تعاون يثير القلق بينهم وبين اعضاء فى المعارضة السياسية من الذين شنوا نقداً على الحكم .

ان هذا النقد قد غذاه بدرجة كبيرة خطورة المشكلة الاقتصادية ، حيث ان زيادة الاجور التى اعلنها السادات فى اول مايو ، لم تكن فى استطاعتها ان تحقق آمال الجماهير فى تحسين وضعهم .

لقد ساعدت الأحداث على إثارة البواعث والمشاعر ، واتهمت المعارضة السياسية الحكم بخلق الخلاف الطائفى لالهاء الرأى العام عن خطورة المشكلة الاقتصادية . ومن أجل الحد من الغضب والسخط فى مصر إزاء قصف المفاعل النووى فى بغداد من قبل طائرات سلاح الجو الاسرائيلى .

لقد ازدادت الضغوط على الحكم والتوتر الداخلى بدرجة كبيرة وذلك فى أعقاب الاتجاه المتردد للسادات فى معالجة حوادث الفتنة الطائفية . ولم يكن هناك شك فى ان السادات كان يسعى لمنع حدوث مواجهة مباشرة وشاملة مع الدولة الاسلامية المتطرفة . الا ان هذه المعلومة قد دعمت الآخرين . وخرجت الأمور من تحت سيطرته واصبح هناك خطر فعلى تجاه مقدرة الحكم على الصمود . ان احداث الزاوية الحمراء قد دفعت السادات إلى العمل لقد كان فى استطاعته ان يفترض أن الشعب فى مصر سيفرح ازاء القيام بعمل حازم يخلصه من مشاعر الخوف الفظيعة من احتمال ان تقع فى مصر أحداث دموية ، مثلما حدث فى ايران فى اعقاب ثورة الخومينى . كما ان الغرب ايضا سيتعاطف معه ازاء القيام بعمل فعال ضد المتعصبين الاسلاميين . ومن منطلق هذه الفرصة التى ستتم فيها معالجة التوتر الطائفى فانه يمكنه ايضاً كبح المعارضة السياسية التى رفعت صوتها وذلك للحد من

نشاطها وربما كبحها تماماً .

ومنذ اللحظة التى اتفق فيها السادات مع مستشاريه على توجيه الضربة ، لم يتبق فقط إلا تحديد توقيتها بالضبط . لقد كانت هناك اعتبارات مختلفة أدت الى نتيجة مفادها أنه يجب توجيهها فى النصف الثانى لشهر اغسطس أو فى النصف الاول لشهر سبتمبر ، وهو اقصى موعد ممكن .

فقدكان يجب الانتظار اولا حتى انتهاء زيارة السادات لبريطانيا والولايات المتحدة التى كان من المقرر القيام بها فيما بين ٢ - ١٠ اغسطس ، من أجل عدم المساس بصورته كزعيم لدولة مستقرة لا تتعرض للاضطرابات ، وربما ايضا من اجل منع تنظيم مظاهرات ضده من اجانب الشتات المسيحى فى الولايات المتحدة . ومن المفهوم انه كانت هناك حاجة للانتظار ايضاً حتى انتهاء صوم شهر رمضان وعيد الفطر فى بداية اغسطس . ففى فترة الاعياد تكون المشاعر الدينية فى مصر مهيأة للإثارة واى عمل ضـــد الاعياد الاسلامية فى هذا الوقت من شأنه ان يساعدهم على استغلال صلوات العيد للتحريض وللمظاهرات العنف .

ومن جهة اخرى فقد كان هناك معنى لاستغلال العطلة الصيفية للجامعات التى تنتهى فى ٢٩ سبتمبر ، كما كانت هناك حاجة للقيام بهذا العمل قبل ٨ اكتوبر وهو يوم يوافق عيد الاضحى الاسلامى .

وبعد مباحثات ومشاورات ، تم تحديد موعد القيام بهذا العمل ليلاً ما بين ٢ - ٣ سبتمبر . وقد انتظر السادات حتى انتهاء زيارة رئيس حكومة اسرائيل مناحم بيجين التى قام بها فى الفترة ما بين ٢٥ - ٢٦ اغسطس ، حتى يتفرغ لفترة عشرة أيام ينفرد فيها بنفسه فقد كرس الوقت لدراسة تقارير التحقيق لأجهزة الامن عن تورط الجماعات الاسلامية ومختلف الاتحادات فى الحوادث الطائفية خلال السنوات الاخيرة عامة ، واحداث الزاوية الحمراء بصفة خاصة . وقد أعد النائب العام التقارير وتم تسليمها لنائب الرئيس حسنى مبارك لدراستها قبل تسليمها للسادات وبالرغم من ان هذه العملية تم إعدادها فى جو من السرية الشديدة ، فقد استطاع ايضا بعض الزائرين من الخارج ان يحسوا فى ٣٠ اغسطس بان هناك شيئا يتوقع حدوثه . وقد ابرزت الصحافة المصـــرية الخطـــاب المتوقع للسادات فى ٥ سبتمبر وذلك قبل انعقاد الجلسة المشتركة لمجلسى الشعب والشورى . وقد ركز الاعلام المصرى على تأكيد الوحدة الوطنية وضرورة استخلاص الدرس من اعمال الفتنة الطائفية .

أما عن الاستعدادات الدقيقة لتوجيه الضربة الكبيرة فقد خطط لها نائب الرئيس حسنى مبارك . ففى النصف الثانى لشهر اغسطس أقام حسنى مبارك هيئة عمل وتنفيذ

للمعتقلين ، أطلق عليها فى الوثائق السرية : « لجنة مكافحة الارهاب » . وقد اجتمعت الهيئة القيادية المصرية فى ١٩ اغسطس مرتين ، وعقدت الجلسة الاولى فى ساعات الصباح وحضرها السادات ومبارك ووزير الدفاع ابو غزالة الذين صدقوا على العملية فى خطوطها العامة . وعقدت الجلسة الثانية بعد الظهر وعلى المستوى القتالى وحضرها وزير الداخلية والمسئول عن الأمن الداخلى محمد النبوى اسماعيل . وقد تمت دراسة مراحل العملية واحدة تلو الاخرى . وخلال عشر جلسات أخرى تم تقسيم مناطق العمل وتم دراسة معلومات المخابرات وقوائم الاعضاء فى الاتحادات السرية وأعضاء « الاخوان المسلمين » وتم تخصيص القوات . وفى نهاية شهر اغسطس لاحظ زائرو القاهرة تزايد وحدات الجيش المصرى فى عمليات الحراسة وتأمين المنشآت والمراكز . ومع بداية شهر سبتمبر ١٩٨١ تم اعلان حالة الاستعداد القصوى فى وحدات الشرطة والأمن الداخلى ، وبدأت طلائع الشرطة السرية لوحدات الأمن المركزى فى التمركز فى النقاط الرئيسية بالقاهرة فى ظهر يوم العملية وهو يوم الاربعاء ٢ سبتمبر .

وفى الليلة ما بين يوم الاربعاء والخميس ٢ - ٣ سبتمبر ١٩٨١ تحركت عشرات من سيارات الجنود الكبيرة المليئة بالجنود ورجال الأمن من معسكرات العباسية وهليوبوليس فى اتجاه نقاط التمركز المتفق عليها فى أنحاء القاهرة . وتوقفت سيارات النصف نقل ذات اللون الأزرق من طراز بيجو التابعة للأمن المركزى - بعد اطفاء أنوارهـــا فى مفترق الطرق الرئيسية ، حيث كان أفرادها مسلحين بالرشاشات وجاهزين للعمل . وبسبب الوقت المتأخر فقد خفت جداً حركة مرور السيارات على كبارى النيل - كوبرى ٦ اكتوبر وكوبرى التحرير - وأفسحت مكانها لسيارات أجهزة الأمن المموهة ، والتى كان من السهل التعرف عليها بسهولة وفقا للشكل الجاد والكئيب للجالسين فيها والاريال المثبت على ظهرها . ومن اجل تحقيق عنصر المفاجأة بصورة تامة فقد تحددت ساعة العملية فى الساعة ٢ بعد منتصف الليل ، ووفق ما هو معتاد فى الايام العادية فقد اعتاد أعضاء الاتحادات الاسلامية - والجهاد من ضمنهم - على تغيير اماكن اختفائهم من حى لآخر ، حتى لا يثيروا شك صاحب البيت أو يكون ضحية للوشاية والتبليغ عنه . ولكن الأمر أصبح مختلفا تماما ، بعد أن ساد منذ فترة احساس باحتمال وقوع خطر جسيم وشيك .

وبمجرد اعطاء الاشارة فى اجهزة الاتصال اقتحم الاف من رجال الشرطة والجنود الشقق والمخازن والمحلات وذلك بحثا عن اعداء الحكم . ان العناوين التى أمكن جمعها عن طريق المخابرات قد تم تقسيمها تقريبا بين مناطق سكنية راقية جداً فى القاهرة - مثل المعادى وهليوبولس والجيزة والزمالك - وبين الاحياء الفقيرة بالقاهـــرة القديمة من شارع صلاح سالم فى الجنوب حتى حى شبرا الخيمة فى الشمال .

ان قوة وصرامة هذه العملية قد عكست مدى تشابهها بعملية « ثورة التصحيح » التى قام بها الرئيس انور السادات فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، والتى صارع فيها المتعاونون مع المؤامرة السوفيتية لإسقاط حكمه بزعامة على صبرى نائب الرئيس . ففى ذلك الوقت احتاج السادات للقيام بعملية اعتقالات ليلية شملت زعماء المؤامرات وأنصارهم من أجل الدفاع عن حياته . ويبدو فى هذه المرة ايضاً ان بعض مستشارى الرئيس قد أحسوا بأن مدى الخطر المتوقع على الحكم لا يقل كثيراً عما كان فى سنة ١٩٧١ ، وانه فقط عن طريق توجيه ضربة سريعة إلى المتآمرين ضده يمكن ان يمنعوا وقوع هذا التدهور الخطير .

وفى نفس الليلة تم القيام بعمليات اعتقال ايضاً فى الاسكندرية ومناطق أخرى فى مصر . وقبل بزوغ الصباح كان تحت ايدى اجهزة الامن ١٥٣٦ شخصا معظمهم من منطقة القاهرة والأقلية منهم من مناطق أخرى . ومن ناحية حجم هذه العملية فقد كانت بمثابة اكبر عملية اعتقالات قام بها الرئيس السادات . وعند مطلع الفجر كانت السجون ممتلئة فى القطامية والمرج وطره ، وهو السجن الذى سجن فيه السادات نفسه ابان فترة الحكم البريطانى .

ومن خلال الاطلاع على قائمة المعتقلين التى نشرت فى الصحافة المصرية فى ٧ سبتمبر كان من الممكن اخذ انطباع بأن القصد هو « تصفية حسابات » عامة ، قام بها الور السادات مع معارضيه من اليسار واليمين . فمثلاً كان من بين المعتقلين ٢٦ عضوا فى احـزاب المعارضة و ١٢ اتهموا بأنهم لهم اتصالات مع الاتحاد السوفيتى و ٣١ من رجال الاعمال والصحفيين ، والذين كان من ابرزهم محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام سابقاً والذى أصبح أحد المعارضين بشدة للرئيس المصرى .

ولكن هؤلاء كانوا بمثابة أقلية بسيطة من جملة المعتقلين . ولم يكن هناك أدنى شك بالنسبة للهدف الرئيسى للعملية ، وهو خنق الانتفاضة الاسلامية فى مصر قبل فوات الأوان .

ان عمليات الاعتقال ليلاً قد شملت تقريبا جميع عناصر المعارضة الاسلامية . وقد اضطر السادات إلى أن يضرب ليس فقط جماعات العنف ، بل الاخوان المسلمين الذين اعتبروا بالنسبة لهم مصدر ايحاء . ويبدو أنه منذ اتباع السياسة المتشددة التى اتخذها عبد الناصر تجاه الاخوان المسلمين لم تعرف مصر حملة فظة ومركزة على الدوائر الاسلامية المتطرفة ، بدءا من الوعاظ فى المساجد ومحررى المجلات الدينية وانتهاء باعضاء الاتحادات السرية .

وقد ضمت القائمة التى نشرتها الصحافة المصرية ١٠٠ عضو فى الاتحادات التى لها علاقة بالاخوان المسلمين ، ومن بينهم رئيس تحرير المجلة الناطقة باسم الإخوان « عمر التلمسانى » ووعاظ معروفون حظوا بتقدير الجماهير ، وكانت أحاديثهم مطبوعة على شرائط كاسيت رائجة فى الاسواق المصرية ، وكان ابرزهم الشيخ كشك . كما تم أيضا اعتقال وعاظ متمتعين بشعبية مثل الشيخ المحلاوى إمام مسجد الاسكندرية والشيخ سلامة . كما تم القبض على ٢٣٥ عضوا فى الجماعات الاسلامية العنيفة و ٤٦٩ عضوا فى تنظيم التكفير والهجرة الذى استمر يمارس نشاطه سراً رغم حملة الاعتقالات الجماهيرية التى أجريت فى صفوفه منذ يوليه سنة ١٩٧٧ ، و ٢٥٩ متعصباً مسلماً تم اعتقالهم نتيجة القيام بعمليات تحريض فى المساجد .

ان العملية لم تنته الى هذا الحد . إن الصحف التى كانت بمثابة بوقاً للدوائر الاسلامية تم إغلاقها بأمر السلطات . كما أن الاتحادات الاسلامية التى عملت وفقاً للقانون قد تم حلها وتمت مصادرة ممتلكاتها . ان ٦٧ مسجدا كانت تابعة لهذه الاتحادات قد تم ضمها فوراً لوزارة الاوقاف ، كما ان التغيير الذى أدخل على قانون تنظيم الأحزاب لسنة ١٩٧٧ قد منع ممارسة النشاط السياسى عن طريق مؤسسات واتحادات قانونية تحت ستار الدين .

إن عملية التطهير قد وصلت ايضا إلى الاتحادات وساحات الحرم الجامعى . إن التغيير فى قانون الجامعات قد نص على أن يشكل من جديد مجلس انضباط للطلبة تكون مهمته الاشراف على النظام والحرص على السماح لحاملى بطاقات الطلبة بدخول الحرم الجامعى . ثم بعد ذلك تم إنشاءة حرس الجامعة من جديد . ان هذه هيئة خاصة بمثابة شرطة داخلية مهمتها ملاحقة متعصبى الدين وكانت موجودة فى عهد الرئيس عبد الناصر وألغيت فى عهد السادات فى اطار اتباع سياسة الليبرالية . لقد كانت جامعة القاهرة أول جامعة سارعت باصدار قرار يمنع أى طالب من الدخول يكون مرتدياً ملابس إسلامية ترمز إلى انتمائه من دخول ألاتحادات .

ان اعضاء السلك الأكاديمى بالجامعات قد تكبدوا خسائر فادحة .، واتهم ٦٤ منهم بتحريض الشباب على الاضرار بالوحدة الوطنية او بمساعدة الجامعات الدينية المتطرفة ، وتم استبعادهم من مناصبهم .

وفى ليلة الاعتقالات فى ٢ - ٣ سبتمبر ظهرت مدى كفاءة وفعالية أجهزة الامن . ليس فقط فى حجم قوائم المعتقلين ودقتها بل فى الكشف عن مخازن الأسلحة والذخيرة فى شتى انحاء القاهرة : رشاشات وبنادق ومسدسات والحراب والخناجر . وقد حاول السادات ان يخفف قليلاً من شدة الضربة وذلك عن طريق اظهار التصلب أيضاً تجاه الاقلية المسيحية .

فقد ظهرت فى قوائم المعتقلين اسماء اكثر من ١٠٠ من القيادات والاشخاص المسيحيين المتطرفين ، الذين تم نقلهم الى سجن المرج منفصلين عن المعتقلين المسلمين . ان هناك مجلتين ناطقتين باسم الطائفة المسيحية تم اغلاقهما ، وتم حل اربعة اتحادات مسيحية . بيد أن التضحية الرئيسية للطائفة المسيحية قد تمثلت فى التضحية بزعيمها الروحى . فقد ألغى انور السادات تعيين البابا شنودة الثالث وعين لجنة مكونة من خمسة اساقفة تقوم بأداء مهمته بدلا منه . وتم ابعاد البابا الى دير بروى فى وادى النطرون فى الصحراء الغربية ومنع من الاتصال بمؤيديه وأنصاره .

وبعد عملية الاعتقالات بيومين ، وفى ٥ سبتمبر حدث السادات امام الجلسة الخاصة لمجلسى الشعب والشورى ، حيث كان خطابه متأثراً ومنهكا ، واستمر ثلاث ساعات تناول فيه الرئيس المصرى عملية تسلسل أعمال الفتنة الطائفية فى مصر . ووصف باللهجة المصرية الشعبية كيف تحول الحادث من حادث بين اسرتين مسلمة ومسيحية فى حى الزاوية الحمراء إلى أعمال فتنة طائفية . ثم اتهم البابا شنودة بأنه يبحث لنفسه بهذه الصورة عن عمل سياسى بدلا من محاولة تهدئة الغليان الطائفى . لقد وجه السادات أساسا اتهاماته وانتقاداته تجاه المنظمات الاسلامية المتطرفة . ويعـــزى هذا الأمر لدى توليه الحكم أمر باطلاق سراح « الاخوان المسلمين » من السجون . مؤكداً انه من الآن فصاعداً لن تكون هناك رحمة تجاه المحرضين على اعمال الشغب . واعترف بعد ذلك إلى أنه اتبع القانون فى الداخل عندما سمح بصدور المجلة الناطقة باسم الاخوان المسلمين « الدعوة » والتى رأس تحريرها عمر التلمسانى ، وأن عدد اغسطس للمجلة قد شن نقداً على دول عربية لم تقم بأى عمل حقيقى لأحباط اتفاقية السلام التى تم توقيعها بين مصر واسرائيل . وفى مكان آخر نشرت المجلة صور للسادات وبيجين وكارتر وهم يتصافحون فى كامب ديفيد تحت عنوان : « مصر خرجت من ميدان المعركة » .

وعندما قام بإزالة العرق من على جبهته ، تناول السادات لمدة ساعة هجمات الشيخ المحلاوى امام مسجد ابراهيم بالاسكندرية ، الذى قال ان هناك بنودا سرية فى اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية تلتزم مصر بحل أى تنظيم مصرى معاد لاسرائيل .

وقرب إنتهاء الخطاب ، اعترف السادات بأن حكمه قد تعرض لخطر الانقلاب ، وهو الامر الذى يقف وراءه « الاخوان المسلمين » . وعلى حد قوله فقد كانت الاتحادات الاسلامية بمثابة الجناح القتالى او المنفذ للاخوان المسلمين ، والتى عن طريقها رغب الاخوان المسلمون فى اسقاط الحكم . وبالمناسبة فقد أوضح أن لديه قائمة تضم ٧٠٠٠ متعصب مسلم يعارضون الحكم ولا يزالون يتصرفون بحرية . ان خطاب السادات كان يتسم بالاضطراب والتردد وعدم التألق ، ولم يكن كما جرت العادة .. فقد لوحظ فيه انه يصعب

عليه أن يركز أفكاره .

ان السادات لم يرغب فى ان يضرب بايدى حديدية ، ولكنه اقتنع بأن المقامرة تعد مجرد مصيدة . كما خشى ايضاً من الانطباع السلبى الذى ستثيره أنباء الاعتقالات فى الغرب وعرف أنهم سيقولون إنه تراجع عن مسيرة الديموقراطية التى تفاخر بها . ولكن مستشاريه دفعوا به وضغطوا عليه . إن البعض منهم – مثل رئيس الوزراء السابق الدكتور مصطفى خليل – خشوا ألا يتدارك الأمر قبل فوات الآوان .

ان ناقديه ومن ضمنهم الصحفى ذو المكانة مصطفى امين – والذى تم اطلاق سراحه من السجن الذى دخله بامر عبد الناصر – يقولون اليوم إنهم عندما علموا بأن انور السادات اعتقل ١٥٠٠ شخص فى ليلة واحدة فقط عرفوا حينئذ ان هذه نهايته .. حيث قال مصطفى أمين : « انه وقع بيديه على شهادة وفاته » .

وفى ٧ سبتمبر صدقت لجنة الدستور التابعة لمجلس الشعب على بعض القوانين الجديدة . وقد أوصت لجان خاصة من قبل مجلسى الشعب والشورى بدعم الاعلام الدينى عن طريق اساتذة من جامعات الازهر ومؤسسات البحث الاسلامية ووزارة الاوقاف .

ان التوصيات العشر الخاصة التى تقضى بسريان القانون بالنسبة لحملة الحكم ضد الدوائر الاسلامية ، قد تم طرحها للاستفتاء الشعبى فى ١٠ سبتمبر ١٩٨٨ ، وذلك بعد نشرها بأسبوع . وقد وافق عليها الشعب المصرى بأغلبية كبيرة بلغت نسبتها ٩٩,٤٥٪ الامر الذى يشير الى تأييد الجماهير لأنور السادات ولسياسته . إلا ان الجانبين : السلطات ومتعصبى الدين – اللذين لا يزالونا يسيرون بحرية بعد عملية الاعتقالات الجماعية فى ٣ سبتمبر – قد ادركا جيداً انه لن يكون هناك مفر من خوض جولة أخرى .

« الفصل الخامس : فشل فى المنصورة »

وانه ابتداً من ٦ سبتمبر بعد خطاب انور السادات بيوم واحد فقد تم وضع وحدات الجيش المصرى فى حالة استعداد . فقد اعتقدت اجهزة الامن ان عنصر المفاجأة من شانه ان يدفع اعضاء مسلمين متطرفين والذين لم يتم اعتقالهم الى القيام باعمال يائسة . ولكن الحملة المضادة التى خشيت منها قوات الامن قد تاخر حدوثها . ان الاقلية المسيحية والمذهولة كان رد فعلها معتدلا بصفة خاصة على اعتقال زعيمها البابا شنودة وابعاده الى الصحراء الغربية . لقد وافقت الكنيسة المسيحية رغم انفها على استقالة البابا واعربت عن تأييدها لجهود الرئيس للعمل من اجل « الوحدة الوطنية » وتحقيق السلام فى الجبهة الداخلية . واوضحت الكنيسة بالفعل أنها لا تزال تعتبر البابا شنودة الثالث بمثابة زعيمها الروحى ولكن الطاقم المقدس للكنيسة والذى انعقد فى القاهرة فى ٢٢ سبتمبر قد اعلن بأنه

يؤيد اجراءات الحكم واللجنة الخماسية للاساقفة التى عينها انور السادات لتحل محل البابا .

هل كان رد الفعل المعتدل للجنة المسيحية على موجة الاعتقالات فى ٢٣ سبتمبر نتيجة للتأكيد الملوح والذى اشار فيه الرئيس السادات فى خطابه فى ٥ سبتمبر الى انه ستؤخذ فى الاعتبار مشاعر المسيحيين الذين يعيشون فى مصر وخارجها . وانه من الممكن ان يكونمصدر ضبط النفس للطائفة المسيحية نابعاً من ادراكها بأنها لم تكن هى اساساً محور حملة الحكم ليلة الاعتقالات بل فقط الدوائر الاسلامية المتطرفة التى كانت تخشاهم . كما ان المعارضة السياسية قد ردت بضبط نفس نسبى . فقد اكتفى كل من حزب العمل الاشتراكى بقيادة ابراهيم شكرى وحزب التكتل التقدمى اليسارى برئاسة خالد محى الدين بتوجيه النقد لاجراءات الحكم واعتقال زعيمهم ولكنهم لم يفعلا شيئاً غير ذلك . وردت الدوائر الاسلامية فقط على ذلك بالخروج الى الشوارع . ابتداءً من ٤ سبتمبر وطوال فترة ثلاثة اسابيع متتالية ، وفى ايام الجمع بعد الصلاة تدفقت مئات من المصلين من المساجد الشعبية فى القاهرة فى مسيرات احتجاج على عمليات الاعتقال وكانت تنتظرهم فى اركان الشارع افراد الوحدة الخاصة لتفريق المظاهرات ، وقوات الشرطة والامن مجهزة بالغاز المسيل للدموع والوقايات الشفافة والعصى . وقد قاموا بتفريق المتجمهرين بسرعة وسهولة . ولقد قال مساعد الوزير حسن ابو باشا فى حجرة العمليات لوزارة الداخلية « اننى آمل ان نكون قد نجحنا فى الخروج من هذه الهوة » . وقد رد عليه الوزير النبوى بقوله : انك مخطىء ، انه يبدو لى انه لا يزال ينتظرنا اسوأ من كل شىء » . ان الاحساس الكئيب لوزير الداخلية والمسئول عن الامن الداخلى كان هناك ما يعضده . لقد اعترف السادات بنفسه فى خطابه بان هناك « سبعة آلاف متعصب مسلم يعارضون الحكم لا يزالون ينطلقون بحرية » . وقد اعتبرت المعارضة السياسية ثورة ٥ سبتمبر - « ثورة تطهير » ولكن الى جانب المعارضة الاسلامية فقد كانت هناك عمليات اعتقال والتى يمكن اعتبارها ثورة تصفية خاصة انها اضرت بكل عنصر من عناصرها - ابتداء بالاخوان المسلمين ، وانتهاءاً بالجماعات التى تدعو للارهاب والعنف . وقالوا فى صلوات يوم الجمعة فى المساجد : « ان الحاكم قد كشف عن وجهه الحقيقى . ان انور السادات قد ازال عن وجهه ستار الدين ومنعنا من خوض حرب الحياة أو الموت .

انه - اكثر من جميع الاتحادات الاخرى - فقد كانت الضربة مؤلمة للجهاد . ان اعتقال الكثيرين من افراد التنظيم فى ٣ سبتمبر قد اثبت لزعماء التنظيم انهم كانوا تحت المراقبة الدقيقة لفترة طويلة . ويبدو ان التدريبات العسكرية التى اجتازها اعضاء الجهاد فى الواحات بالصحراء هى التى كشفت سرهم . ان الانباء التى وصلت للسلطات وخاصة من البدو والاهالى عن صوت طلقات نيران ونشاط غير تقليدى فى منطقة الصحراء قد دفعت

اجهزة الامن الى وضع نقاط مراقبة ومتابعة للتدريبات . ولكن فى المرحلة الاولى قررت قوات الامن الاكتفاء بالمتابعة والامتناع عن القيام بعمليات اعتقال . وقد تشكفت تدريجياً امام المحققين خلايا تنظيم الجهاد وهيكلها وعدد اعضائها واماكن اختفائها وشخصية زعمائها .

ان هذه المعلومـــات التى تم جمعها بجهـــد كبير قد ساعدتهم على القيام ليلاً فى ٢ ، ٣ سبتمبر باعتقال الكثيرين من اعضاء التنظيم وقد حكى المعتقلون عن كل ما هو معروف لهم ولكن – بسبب السرية التى اتبعها فرج فى تنظيمه – فقد حكوا القليل فقط عن خلايا اخرى فى التنظيم . واتضح من التحقيقات بدون شك ان المقصود هو تنظيم يتسم بطابع العنف والتطرف . وقد حكى احـــد المعتقلين وهو يكشف اللثام عن التنظيم قائلا : « ان هذا يعنى فكرة الثورة والنية فى الاستيلاء على الاذاعة والمنشآت المدنية الحيوية وان الطلقات الاولى قد استهدف اطلاقها الرئيس انور السادات » . وكان من بين المعتقلين ايضا نبيل مغربى ضابط الجيش الذى انضم إلى قائد الجناح العسكرى فى الجهاد عبود الزمر الذى كان مسئولا عن ادارة التدريبات العكسرية لافراد التنظيم ، وقد احاطت مئات من افراد الامن المصرية فى ليلة عملية الاعتقالات منزل عبد السلام فرج ايضاً فى حى بولاق الدكرور ومنزل عبود الزمر فى حى الهرم . وكانت الوحدات حذرة حيث ان عبود الزمر مسلح وخطير للغاية . ولكن عندما تم اعطاء اشارة الاقتحام لداخل المنزل فقد اكتشف رجال المباحث ورجال الشرطة وجود طوارئ خفية والتى تبـــدو انها قد تركت بصورة متسرعة فى آخر لحظة . والنتيجة مفادها انه قرب تنفيذ العملية فقد تلقى زعماء الجهاد انذار عن القيام بهذه العملية وبالتالى نجحوا فى الهرب وانه نتيجة الاحساس بخيبة الامل ازاء هذا الفشل فقد امر النبوى اسماعيل بمضاعفة الجهود من اجل القبض على الهاربين . وامر طاقم رجاله المسئولين عن هذه العملية بالبحث عنهم فى كل مكان . ان رؤساء قوات الامن المصريين لم يخطئوا كثيرا فى تقدير مشكلة زعماء الجهاد . ان اعتقال مغرب ومحاصرة منزل كل من فرج وعبود الزمر وابن عمه طارق الزمر قد جسدت لهم بان السلطات قد تعقبت اثارهم ، وأنهم يعرفون جيداً الاشخاص الذين يبحثون عنهم . ولقد ضاقت الحلقة حول رقبتهم . وعرفوا ان السقوط فى ايدى الشرطة هو فقط مسألة وقت . « اننى اشعر بان الموضوع كله قد انكشف » هكذا قال عبود الزمر لزملائه فى مكان اختفائهم عندما وصلت اليهم انباء عن اقتحام شقته فى الهرم وكشف مخازن الاسلحة التى تم اخفاؤها تحت الارضية . ان عشرات الجنود ورجال الشرطة كانوا موزعين فى نقاط ليلاً ونهاراً على الأسطح وفي الشقق المجاورة لشقتى كل من فرج والزمر . وانه خلال هذا الصراع الذى يعنى الحياة أو الموت والذى دار بين اجهزة الامن وبين زعماد الجهاد فان طرفاً واحداً فقط يمكن ان يخرج منتصراً .

ان فكرة اغتيال انور السادات - كوسيلة لحدوث الثورة الاسلامية - قد طرحت منذ سنة ١٩٨٠ بضع مرات فى مشاورات سرية لزعماء الجهاد . ان احد العاملين فى سلاح الجو المصرى - ومن اعضاء تنظيم الجهاد - قد طرح امام فرج والزمر فكرة تدعو الى انه اثناء العرض العسكرى لأكتوبر سنة ١٩٨٠ يتم تجنيد طيار انتحارى يطير بطائرته مباشرة الى داخل المقصورة التى يجلس فيها الرئيس المصرى . وقد قاموا بدراسة الفكرة الا انه تم رفضها حيث انهما لم يجدا مرشحاً ملائماً يمكن ان يثقوا فيه .

وفى فرصة اخرى فقد طرح الزمر فكرة اغتيال الرئيس السادات فى منطقة استجمامه فى القناطر الخيرية شمال القاهرة على ضفاف النيل . وقد توجه الزمر بنفسه لدراسة ترتيبات الحراسة والتأمين فى المكان ، الا انه تراجع على الفور . فقد كانت المنطقة كلها محاطة بحلقة من رجال الشرطة والجنود بملابسهم ورجال الشرطة السريين . ان رجال الكوماندوز البحرى كانوا يؤمنون بصفة دائمة القناطر على النيل وذلك فى كل مرة يتواجد فيها انور السادات فى مقر اقامته . ولكن ليلة الاعتقالات الجماعية فى ٢ ، ٣ سبتمبر واعتقال الكثيرين من اعضاء الجهاد فقد اضطر رؤساء التنظيم ان يدرسوا من جديد خطة القضاء على الرئيس انور السادات . فقد كان عليهم ان يأخذوا فى الاعتبار انه اذا استطاع نظام الحكم ان يقبض على فلول الجهاد الباقية فانه سيتم القضاء على جميع الخطط . ومن يعرف كم سنة ستتطلب الثورة الانتظار حتى يتم تنفيذها . وربما ينتهى الامر تماما كدخان دون تحقيقها على الاطلاق .

وخلال بضعة ايام توصلوا مرة اخرى الى اقتراح يمكن تنفيذه فوراً . ففى ١٤ سبتمبر القى السادات خطاباً للشعب . حذر فيه الاتحادات الاسلامية قائلا انه يعلم بان هناك اولاداً ضالين من الافضل لهم ان يعودوا لديارهم . وهو يعلم ان فى حوذتهم اسلحة ، وقال: « اتحدث هنا بشأن هؤلاء الاولاد الضالين الذين تضللهم منظمة الاخوان المسلمين . واننى احذرهم بالا يحملوا الاسلحة واننى احذر بان كل من يستخدم سلاحه سأقطع رقبته . وان اى عمل يتم بالعنف من جانبهم سأرد عليه بشدة وحـزم » . ولقد استمع زعماء الجهاد لخطاب السادات دفعة واحدة فقد حمل الانذار طابع المنازلة الشخصية بينهم وبين الرئيس المصرى . ان فرج وزملاءه قد فسروا تحذير السادات بصورة تختلف تماماً عن ما قصد بها هذا التحذير : ان هذا لا يعنى سوى ان الرئيس خائف . وان الحكم يعد عاجزاً . وان نداءه لهم بالرجوع الى الطريق المستقيم يدل على أنه انما يرغب السادات فى ان يشفق ليس على رقبتهم بل عل رقبته شخصياً . ليس فقط الخوف من انهم من شأنهم ان يقبض عليهم خلال بضع ساعات بل الاحساس بان السادات قد اصبح غير قادر على ابداء النصيحة ولا يعرف كيف يواجه التهديد الذى يحوم حول رأسه ، لقد دفعناهم حاليا للقيام بعملية سريعة

وهم قد لمسوا ميزة العمل الفوري ايضاً من الناحية النفسية حيث انه فى الوقت الذى لا يزال الحكم فيه مرتبكا ومتحيراً فان عملية القضاء على السادات من شأنها فقط أن تزيد من مسألة ضياع الافكار وتهيئ الدولة كلها لحالة من الفوضى التى تساعد على نشوب الثورة .

وانه لدى عودتهم لدراسة فكرة الاغتيال من جديد فى مكان اختفائهم فقد افترض زعماء الجهاد بان طرد وابعاد السادات عن المجال سيمنحهم فترة زمنية حيوية لتنظيم الصفوف من جديد . . وايضا اذا لم ينجح الانقلاب فان خليفة السادات سيحتاج لفترة زمنية من اجل مواجهة الوضع الجديد ويجب ان نأمل فى ان الحاكم الجديد سيكون متسامح اكثر تجاه الجماعات الاسلامية .

وفى ٢٥ سبتمبر كان من المقرر ان يقوم الرئيس السادات بجولة بالقطار الى منطقة الدلتا والتوقف فى عدة محطات من بينها المنصورة . وقرر فرج وعبود الزمر تجنيد بعض رجالهما الذين يندسون فى الجماهير المنتظرة للقطار فى المنصورة وفى اللحظة الملائمة يخرجوا سلاحهم ويطلقون النار عليه . لقد بدت الخطة بسيطة وسهلة التنفيذ وبعد جهود تم تجنيد الاشخاص الملائمين للقيام بهذه المهمة . الا انه قبل تحرك القطار بعدة ايام للمنصورة تم تشويش الخطة . لقد اثبت وزير الداخلية محمد النبوى اسماعيل مرة اخرى ان هناك اموراً تدعو للدهشة فقد اقتحمت قوات الامن احدى الشقق المختفية لتنظيم الجهاد فى ضاحية بالقاهرة . حيث عثروا هناك على كمية كبيرة من الاسلحة والذخيرة ، وكذلك على خرائط كروكى لمؤسسات ومبانى رئيسية فى العاصمة من بينها مركز قيادة الامن المركزي ومبنى المباحث وهيئة الاذاعة . وفى نطاق البحث مرة اخرى فقد عثر فى شقة على ملف صغير تضمن جدول تحركات انور السادات لفترة ثلاثة اشهر قادمة . كما تم العثور على قوائم باسماء اعضاء الجهاد التى بعضها كان معروفاً للسلطات : وكان من بينهم بعض الضباط واصحاب الرتب الاخرى فى الجيش وتسمية عبود الزمر باسم المنصور وهذا يعنى المنتصر .

ان هذه المعلومات الاستخبارية التى تم العثور عليها فى الشقة قد ساعدت اجهزة الامن على ان تهيئ نفسها لموجة اخرى من الاعتقالات بين اعضاد الجهاد . وقد كان من بين الذين تم اعتقالهم حوالى خمسين ضابطاً وجندياً . اعترف معظمهم بالانتماء للتنظيم الذى تبنى فكرة الجهاد ضد الحكم وقرر اغتيال السادات وبعض الشخصيات الاخرى من الهيئة القيادية المحيطة به .

وكان من بين المعتقلين ايضا المرشحون الذين اختارهم فرج والزمر للقيام بعملية الاغتيال بالمنصورة . وهم قد ادلوا للمحققين بجميع التفاصيل . لقد كان هذا بمثابة انجاز كبير لشعبة مكافحة الارهاب الاسلامى التى تمت اقامتها بورازرة الداخلية المصرية فى منتصف ١٩٨١ ، والتى تعاونت مع اجهزة اخرى للمخابرات المصرية لتحديد اماكن المشتبه

فيهم بالانتماء بالجماعات الاسلامية ومتابعة آثارهم . وقد تم تنفيذ عملية المطاردة فى اطار الاستعانة بمعدات تكنولوجية حديثة وتصوير اربعة لقاءات لاعضاء أحد خلايا الجهاد وتم تسجيلها باجهزة فيديو ومعدات تسجيل حساسة امدت بها المخابرات العامة .

ان الكشف عن مؤامرة اغتيال السادات فى المنصورة تم ابلاغها للرئيس المصرى عشية سفره وقيامه بالجولة المخططة . وشاهد افلام فيديو عن اللقاءات السرية للتنظيم واهتم بالتعرف على شخصية فرج والزمر الفارين . وفى ٢٤ سبتمبر تحدث فى هذا الصدد مع جمال ابن السادات المقاول الفنى – ووزير البناء – عثمان احمد عثمان . حيث حكى له ان الشرطة نجحت فى التغلغل لمجموعة من المتعصبين المتطرفين الذين خططوا لقتله وظهر من بين اعضائها ضابط فى المخابرات المصرية واسمه عبود الزمر الذى ينجح فى كل مرة فى الافلات من ايدى اجهزة الامن . ووصف الرئيس المصرى امام عثمان احمد عثمان كيف اكتشفت قوات الامن مخبأ الأسلحة للجهاد بشقة فى القاهرة ووثائق مكتوبة عن خطة الاغتيال بالمنصورة . وقد اندهش عثمان من هذا الامر ، وحث السادات على الغاء زيارته للمنصورة فى ٢٥ من الشهر والحد من حالات ظهوره العلنية والاقلال من الخروج من المنزل ورفض السادات قائلا : حياتى ليست بيدى انها بيد الله ، ان القتلى لن يكون فى استطاعتهم الوصول لى » . وبعد ذلك اضاف السادات قائلا : ان مصير المحيطين بى يقلقنى اكثر من مصيرى » . ان اصرار الرئيس السادات على القيام بالجولة فى المنصورة وفق ما هو مخطط قد اثار قلق قيادات الأمن . فقد امر نائب الرئيس حسنى مبارك بابعاد السادات عن نوافذ القطار المقرر سفره للمنصورة ومضاعفة عدد رجال الشرطة السرية الذين بندسون فى الجمهور . ولذى عودة السادات من الجولة فى ساعات المساء سليماً .. التقى به وزير الداخلية محمد النبوى قائلا اننى قلق حيث ان عبود الزمر يائس ويرغب فى الانتقام وقال ان معتقلى الجهاد قالوا بان الزمر هدد ببذل كل ما فى استطاعته من اجل القضاء على الرئيس المصرى » . فقال السادات : «يا محمد لا تقلق هناك رب فى السماء » . فقد كان واثقاً بقوته وكان فخوراً بالاعمال الناجحة لأجهزة الامن التابع له . وفى خطابه الاخير فى ٣٠ سبتمبر وجه تهديداً اخر للزمر دون ان يحدد اسمه قائلا : لقد بلغنى موضوع الولد المتعلق بقصة الاسبوع الماضى . وهو بالتأكيد يسمعنى الآن . من الافضل ان يعلم اننى لا انوى ان ارحمه » .

ان الفشل فى المنصورة قد جعل زعماد الجهاد المختفين يشعرون بالكآبة . ان عبود الزمر الذى ايد خطة الاغتيال بالمنصورة قد اصبح الآن متمسكاً بقراره بالتخلى عن اى تفكير بشان المحاولات العابثة الأخرى والتركيز فى انقاذ انفسهم من اجهزة الامن المصرية . واذا نجحوا ايضا فى الافلات من المصيدة الوحشية التى تتعقبهم فان الخلايا التى يتم انقاذها ستحسن صنعاً اذا استثمرت نفسها على الاقل لفترة سنتين او ثلاث سنوات فى وضع خطط

صارمة لتنفيذ الثورة . حيث انهم بهذه الصورة يستطيعون ضمان نجاح الانتفاضة وأن يجندوا مؤيدين كافين فى صفوف الجيش وان يقيموا لجاناً ثورية فى كل محافظة بالقاهرة . ان مهمة تلك اللجان ستكون الحرص على اخراج الجماهير للشارع وتحميسهم بدرجة لا تستطيع اجهزة الامن السيطرة عليهم .

ان زعماء الجهاد – عبد السلام فرج وباقى الامراء اعضاء الشورى ، الذين لا يزالون ينطلقون بحرية – قد قبلوا فكرة رئيس الجناح العسكرى دون اعتراض ودون اى تحفظ ، حيث ان كلاب الشرطة المتعطشة للدم والتابعة لأنور السادات تبحث عنهم فى كل مكان وتتعقب اثارهم ، وبالتالى فقد وافق الجميع .

وعندما اقترب شهر سبتمبر ١٩٨١ من نهايته ، تخلى زعماء الجهاد مؤقتا عن فكرة اغتيال انور السادات . حيث انه لم يكن هناك سبب يجعلهم يعودون لبحثها بعد مرور ثلاثة ايام فقط ، لولا أنه وقع فى طريقهم الملازم خالد الاسلامبولى .

الفصل السادس : بكاء خالد الأسلامبولي

فى ظهر يوم الخميس ٣ سبتمبر خرج ضابط المدفعية الملازم خالد الاسلامبولى من قاعدة وحدته بأتوبيس معسكرات الهايكستيب (التى تطلق على اسم الجنرال الامريكى الذى أقامها فى الحرب العالمية الثانية) من شمال شرق القاهرة ، من أجل زيارة والديه فى نجع حمادى .. فمنذ تواجده بالخدمة فى منطقة القاهرة ، تضاءلت زياراته لبلدته التى ولد فيها حتى توقفت تماما تقريبا . ولقد كان لهذا الأمر عدة أسباب : بعد نجع حمادى عن العاصمة ، والاجازات القصيرة والمسافات التى كان يقطعها من وحدته ، وفوق كل هذا الطريق المضنى الذى اضطر الشاب البالغ من العمر ٢٤ عاماً ان يقطعه فى كل مرة بالقطار البطىء ، مثقلا بالتعب أو واقفاً فى اتوبيسات قديمة كانت اجزاؤها متداعية ومحركها يصدر دخاناً خانقاً فى احوال كثيرة . ان الملازم خالد الاسلامبولى يحاول ان يخفف من مشاعر الحنين لوالديه ولأخيه محمد الذى يعد أكبر منه بعامين ، وذلك عن طريق القيام بزيارات من حى لآخر ، أو الزيارات التى كان يقوم بها لاخته سمية بالقاهرة . وسمية هذه تبلغ من العمر ٢٥ عاماً قد درست علوم الرياضيات بجامعة اسيوط ثم تزوجت ممدوح مدير حسابات فى شركة المقاولين العرب عثمان احمد عثمان ، ثم استقرت مع زوجها فى المدينة الكبرى . وكانت سمية تستقبله بحرارة وتغسل له ملابسه وتكوى له سترته الرسمية ، ولذا شعر بالجو العائلى الذى عاش فيه فى نجع حمادى وربما بسبب ذلك فضل ضابط المدفعية ان يزور حى الالف مسكن عن شقة أنيسة اخته الكبرى ، والتى تقيم ايضا فى القاهرة .

ان انيسة لم تكن فقط البنت الكبرى فى العائلة ، بل ايضا الأولى التى تركت البيت بعد زواجها من سعد رشوان الاخصائى الاجتماعى فى إحدى المدارس بالقاهرة . وقد كانت تعلم جيدا أن خالد يكن الحب اكثر لأختــها الاصغر منها ، ورغم أنها تسخط على ذلك ســـراً ، الا انها لم تكن له كراهية .

لقد كان خالد هو اصغر الاولاد الأربعــة لأحمد شــوقى الاسلامبولى ، الذى اعتــاد احيانا ان يلحق باسم اسرته لقب «أجا» ، تذكرة بالأصل التركى للأسرة . وكان الأب احمد شوقى يعمل محاميا ، وعمل طوال فترة سنوات كمستشار قانونى لشركة السكر الحكومية بنجع حمادى . ولم يحاول ابداً ان يخفى سخطه واستياءه من تآمر مصر ورئيسها السادات على القيم الاسلامية . وكان أحمد شــوقى فى شبابه عضواً فى « الاخوان المسلمين » . وحتى بعد أن أعتبر التنظيم خارجاً عن القانون بأمر عبد الناصر ، لم يكف عن نشاطه فى دوائر الاخوان المسلمين التى كانت تتردد بالقرب من المساجد . واستمر فى ذلك رغم اعتقاله عدة مرات على أيدى الشرطة وتحذيـره ولكن يبدو ان رؤساءه فى شركة السكر رأوا انه من الجديـر الاستغناء عنه بسبب هذا النشاط .

ان ابناء احمد شوقى الاثنين « اجا » قد تأثروا بتعصب والدهما . ففى سن الطفولة بدأوا دراسة شريعة الدين ، وفى سن ٧ سنوات شرعا فى صوم شهر رمضان . وكان الثلاثة يصلون جماعة فى المسجد الكبير فى نجع حمادى ويستمعون معاً لخطب يوم الجمعة . ومن حين لأخر كان ممثلو الحكم المركزى يسافرون الى نجع حمادى للاستماع الى الخطب ، وحيث ان هؤلاء الممثلين تم التعرف عليهم دائما لدى وصولهم ، فقد حرص الأئمة اثناء زيارتهم على ألا يشذوا ويخرجوا فى خطبهم عن مناقشة آيات القرآن وتوجيه المؤمنين باتباع شريعة الدين . ولكن فى الأيام العادية – وبعد أن يتأكدوا بأنه ليس هناك اجنبى بين الناس – كان الوعاظ يتحررون من عقد لسانهم ويهاجمون السادات وأعوانه فى الحكم الذين يجعلون المسلمين المتدينين الذين يتبعون ديانة الله وشريعته مثارا للسخرية والازدراء . ان الوعاظ الذين ينتمى معظمهم سراً للجماعات الاسلامية كانوا يخرجون عن طورهم ، خاصة عندما يتعرضون لخطب السادات التى يدعو فيها إلى فصل الدين عن الدولة ، أو الثناء على اتفاقية السلام التى عقدها مع اليهود أعداء الاسلام بل كانوا يتناولون بانتقاد شـــديد حرم الرئيس « جيهان السادات » حيث قالوا إنها باسلوبها تجلب العار لمصر كلها . ان محمد الاسلامبولى قد تشرب تلك الخطب وتعاطف مع كل كلمة فيها .. وأثناء دراسته فى كلية التجارة بجامعة أسيوط انضم الى نشاط الجماعات الاسلامية التى تمت اقامتها سراً بين جدران ساحات الحرم الجامعى . وبين المحاضرات كان الاسلامبولى وزملاؤه يلتقون فى دور واستراحات الطلبة كى ينعزلوا بأفكارهم الثورية او تمنياتهم بتغيير الحكم وتحقيق مستقبل أفضل للشعب المصرى . ومن حين لآخر كانوا يخرجون فجراً لتخريب ممتلكات كنيسة مسيحية فى منطقة سكنهم او توزيع ضربات شديدة للقساوسة المسيحيين الذين يسيرون فى الشارع . إن هذه الاعمال كانت تعمل على تهدئة أعصابهم المتوترة لفترة ما ، وتخلصهم من شحنة السخط المتراكمة لديهم .

لقد كان من الممكن ان يمضى خالد الاسلامبولى – وهو شاب طويل القامة ذو جسم قوى ووجه مدور فى طريق اخيه الكبير وينضم الى الجماعات الاسلامية ، لولا اهتمام الشباب بالحياة العسكرية وبريـق الزى العسكرى . ووفقا لمستواه فى المدرسة الثانوية بأسيوط – والتى أنهاها فى ١٩٧٦ محققا ٦٥ نقطة أى ٦٥ ٪ – فقد كان من الممكن قبول الاسلامبولى الشاب دون صعوبة كطالب فى احدى الجامعات ، ولكنه أصر على اختيار طريق الخدمة العسكرية ، وربما يرجع ذلك الى تأثير عمه الذى كان ذا رتبة كبيرة فى الجيش المصرى . ولدى تجنيده أعرب خالد عن أمنيته فى الخدمة فى سلاح الجو ، الا أن طلبه رفض ووجد نفسه يلتحق بمدرسة ضباط سلاح المدفعية وبدلا من ان ينتابه الاحساس بالمرارة فقد تفانى خالد بحماس شديد فى عمل المدفعية ، وفى سنة ١٩٧٨ أنهى الدورة

بامتياز .

وقد قال له قائده وهو يضع على قميصه شارة الطالب الممتاز « يا خالد إن هناك أمامك مهام كثيرة فى خدمة الوطن ، وإنى لواثق أنك لن تخيب الرجاء » . وقد وقف خالد مؤدياً التحية العسكرية ثم انصرف . وفى صباح اليوم التالى تلقى تعليمات بحزم الاشياء الخاصة به والانتقال الى المعسكر الدائم لوحدته ، وهى وحدة المدفعية النظامية رقم ٣٣٣ ، وكان مركز قيادتها يعتبر ضمن تمركز المعسكرات الكبيرة للجيش المصرى فى منطقة الهايكستيب . ولكن الاطار العسكرى المتصلب والبعد عن البيت لم ينجحا فى ان يجعلاه ينسى ذكريات طفولته . ففى خلال زياراته الاسبوعية لأخته سميه التى يقع منزلها فى منطقة حى الالف مسكن - كان خالد يبدى لها آراءه فى أمور الدين والعقيدة ويتحدث بحنين عن المرات المعدودة التى كان يرافق فيها اخوه محمد فى لقاءاته السرية والتى كان يخطط فيها مع زملائه فى كيفية قلب نظام الحكم .

لقد اعتاد الضابط الشاب ان ينفق جزءا كبيرا من راتبه العسكرى على شراء كتب الدين ، وبصفة خاصة مجلدات ابن تيميه ذو الآراء اللاذعة فى العصور الوسطى ، والذى تغرم به « الجماعات الاسلامية » . وكلما تضاءلت زياراته لمنزل والديه ، كلما كان من الصعب عليه فى كل مرة ترك والده وأمه الكتومه قدريه ، ومحمد اخوه الذى كان يحثه على الانضمام إلى زملائه فى الجماعات الاسلامية وذلك بعد ان كان يخلع الزى العسكرى ويرتدى الجلباب الابيض مثلهم .

ان الانجذاب الذى شعر به خالد الاسلامبولى الى الجماعات الاسلامية لم يختفى عن نظرات قادته . ان خدمته فى الوحدة كانت بدون أية مآخذ .. وبمرور الوقت تمت ترقيته من رتبة ملازم ثانى إلى ملازم اول ، إلا ان ضابط امن الوحدة لم يرتح للاشاعات التى تتردد عن نشاطه الدينى ومجالات اهتمامه الخطيرة .

وفى إحدى أيام شهر اكتوبر ١٩٨٠ تم استدعاء خالد للمثول امام مكتب المخابرات العسكرية . وفى حجرة بسيطة بها منضدة وكرسيين فقط قابله عقيد قصير القامة له شارب وأصلع الشعر يطلق عليه اسم مجدى ، وحاول - دون نجاح - أن يبدو مخيفا ومهدداً . وقال :

- هل انت الملازم خالد احمد شكرى الاسلامبولى ؟

- نعم يا سيدى .

- سنك ؟ ٢٥ عاماً . وظيفتك ؟ ضابط مدفعية بالوحدة رقم ٣٣٣ يا سيدى .

أساس وحدتك ؟ معسكرات الهايكستيب يا سيدى .

هل أهملت ذات مرة فى تأدية المهام التى كلفت بها ؟ لا يا سيدى .

هل لديك فكرة عن سبب استدعائك هنا ؟ لا يا سيدى . وبدون انذار مسبق غير المحقق فجأة نغمة حديثه الذى احتد وأصبح موضوعياً جداً : هل لديك زملاء يا خالد ؟ نعم يا سيدى . من الوحدة ؟ نعم يا سيدى . وخارجها ؟ هناك البعض . اذكر لى لو سمحت اسماءهم . وقد ابتلع خالد ريقه وفجأة أدرك ما يقصده هذا الرجل . الزملاء الوحيدين الذين كان يـراهم على فترات بعيدة ولكنه شعر بالاقتراب اليهم اكثر ، وهم زملاء اخيه محمد فى الجماعة الاسلامية وادرك خالد ان ذكر اسمائهم فى الحجرة المظلمة امام محقق المخابرات العسكرية من شأنه أن يشكل خطراً عليهم وأن يعرض اخاه ايضاً للخطر . وقد تعمد خالد ان يذكر بعض اسماء الاشخاص الذين ليسوا اعضاء فى الجماعة ونجح فى هذا الأمر بصعوبة . وقام العقيد مجدى بتسجيل الأسماء التى أدلى بها ، وبدا غير راض . هل اسم عبد الله السهاوى يعنى شئا ما بالنسبة لك ؟ لا يا سيدى .

لقد كذب خالد . ان عبد الله السماوى كان أحد الزعماء المعروفين فى التنظيم السرى « التكفير والهجرة » ، الذى تم اعتقال المئات من أعضائه بعد مقتل وزيـر الاوقاف الاسلامية محمد الذهبى فى يوليه ١٩٧٧ . وقد سمع أخوه اكثر من مرة هو وزملاؤه يتحدثون باحترام عن السماوى الذى نجح فى الفرار من أجهزة الامن وانتقل للعمل السرى . وفجأة تضاءل اهتمام المحقق بمسألة السماوى ووجه له نظرة ثاقبة وسأله : هل زرت ذات مرة مسجد أنصار السنة ؟ وفكر خالد بسرعة .. مسجد انصار السنة فى هليوبولس كان معروفاً للسلطات كمكان التقاء دائم لأعضاء الجماعات الاسلامية والاخوان المسلمين ، وبناء على ذلك فقد كان مراقبا من أجهزة الأمن .

فأجاب : نعم يا سيدى . لماذا ذهبت لهناك ؟ للصلاة والتقرب إلى الله . هل قابلت هناك من بين المصليين أعضاء الجماعات ؟ اننى لا أعرف ويحتمل أن أكون قد قابلتهم صدفة ولكنهم لم يعترفوا امامى بأأهم أعضاء الجماعات الاسلامية .

عن ماذا تحدثتم ؟ عن الأمور التى بين العبد وربه ، وعن أهمية اتباع الشرائع الاسلامية . هل هذا هو كل شئ ؟ هذا كل شئ يا سيدى ، ولم يكن هناك شئ خاص . شعر خالد من التحقيق أن المحققين معه يجسون النبض ، وأنه ليس لديهم بالفعل أدلة ملموسة ضده سوى الزيارة التى قام بها لمسجد أنصار السنة ، وربما بعض الملاحظات فى أمور الدين التى أدلى بها لزملائه فى الوحدة وبلغت مسامع قيادة الوحدة . ويحتمل ان المحققين لم يعرفوا شيئا عن اللقاءات السرية بمنطقة أسيوط ونجع حمادى .

ملازم الاسلامبولى ؟ نعم يا سيدى . هل انت تحب الحياة العسكرية ؟ نعم يا سيدى هل ترغب فى الاستمرار فى خدمة وطنك ؟ نعم يا سيدى . إذن انصت لى ملازم خالد الاسلامبولى – قالها العقيد مجدى وهو يعدل نظارته ويجمع الأوراق التى تساقطت من حافظة خالد التى كانت موضوعة أمامه – إن الخدمة فى الجيش تعنى الحفاظ على الأرض والدفاع عن الوطن . ان هذا حق كبير وواجب ايضا حيث يقع على عاتق ضابط الجيش مسئولية جسيمة . ولذلك عليك أن تكرس لهذه الأمور جهدك واهتمامك ولا تشغل نفسك بأمور أخرى من شأنها أن تشغلك عن المهمـــــة المقدسة . وتوقف عن الحديث قليلا ثم أضاف : لا تسمح للأخرين يا خالد بأن يسوقوك إلى أعمال متهورة وطائشة من شأنها أن تورطك فى مشكلة . وبدلا من ذلك من الأفضل لك ان تركز على تنفيذ المهام المكلف بها لترضى قادتك . بهذه الصورة يمكن ان تترقى بسرعة . فهمت يا خالد ؟ نعم يا سيدى . انت حر . وتوجه خالد خارجاً ، فإذا به يسمع صوت مجدى يناديه : ملازم الاسلامبولى ؟ نعم يا سيدى . نصيحتى لك ألا تذهب مرة اخرى لمسجد أنصار السنة وألا تصادق من هو ليس جديرا بصداقتك . نعم يا سيدى .

إن التحقيق فى مكاتب المخابرات العسكرية قد عكر مزاج خالد جداً لدرجة انه افترض بأنه لو توافرت ادلة ملموسة ضده لما كانوا تركوه يمضى لحال سبيله .. وادرك إنه بدءا من هذه اللحظة قد عرف نية واتجاه أجهزة الأمن وأنه من الآن سيكون تحت مراقبة ضابط أمن الوحدة . والعزاء الوحيد الذى لمسه هو أن قادته استمروا يثقون فيه ويكلفونه بمهام كالعادة . ولكن تدريجيا تحرر خالد من انطباع هذا التحقيق فى مكاتب المخابرات العسكرية . واستمر يـراسل اخاه فى أسيوط ويزور أخته سميه . وأحيانا كان يقابل أمه فى منزلها حيث إنها كانت تحضر للقاهرة لزيارة بناتها . وفى احدى هذه اللقاءات حكت له الأم أن والده أحمد شكرى « أجا » قد اختار له عروسا وقد رفض الاسلامبولى فكرة الزواج حتى يجد لنفسه شقة يقيم فيها . وقد تشاور مع اخيه الذى كتب له بانه فى استطاعته الاستعانة بعبد السلام فرج « رجل طيب ويحب المساعدة » . هكذا كتب محمد لأخيه خالد وأوضح له كيفية العثور على فرج : بعد صلاة الجمعة فى المسجد .

ولقد كان اللقاء الأول بين خالد وزعيم الجهــاد فى نهاية أبريل ١٩٨١ فى مسجد « الاخوان المسلمين » بالقاهرة . لقد كان هذا لقـــاء مصيريا فى حياة ضابط المدفعية الشاب . إن فرج كان أكبر من خالد بثلاث سنوات ولكن صفاته جعلت الاسلامبولى يكن له الاحترام : الخبرة والثقة الذاتية والمعرفة والدراية الزائدة بالاسلام وتعاليمه والشريعة والخلافة الاسلامية فى عصورها ومذاهبها . وأحيانا اعتاد فرج أن يتحدث عن وجهات نظره فى خطبة يوم الجمعة بمسجد الاخوان المسلمين فى بولاق الدكرور ، وكان خالد يستمع له ولأقواله

وهو مسحور تماماً ويسير متأثراً بكلام فرج . وقد وعد فرج خالد بيذل قصارى جهده وقدرته لايجاد شقة له يتزوج فيها . إن ضابط المدفعية الشاب بدأ يحد فى الأشهر التالية من زياراته لمنزل أخته سميه حتى يستطيع الألتقاء بفرج الذى يكن له التقدير والاحترام .

إن جميع أحاديثهم قد دارت حول مشكلة واحدة وهى : كيف يمكن تطبيق قوانين الاسلام فى مصر . ان حكام هذه البلاد - كما كان فرج يـؤكد له - مثل المغول فى ذلك الوقت الذين اظهروا حملهم لواء الاسلام ، ولكن حكمهم بنى من خلال الاستهانة المخجلة بالقرآن وتعاليمه . وفى مناسبات كثيرة كان فرج يقتبس من كتابات ابن تيميه التى تتضمن فقرات تشريعية تسمح بمحاربة المغول ومن على غرارهم . وقد كان رائعا بصفة خاصة فى اقتباسه فقرات من فصل الجهاد ، ومجموعة من فقرات الشريعة للعالم بن المذهب الحنبلى . وتحمس فرج فى قوله بأن الفترة السوداء التى تمر بها مصر الآن هي مثل ابان عصر المغول .، ولن تنتهى إلا بسقوط حكم الكفرة .

وخلال الفترة ما بين ابريل حتى سبتمبر ١٩٨١ تمت دعوة خالد مرات كثيرة الى مسجد الاخوان المسلمين لسماع كلمات الشريعة لعبد السلام فرج ، ولكنه لم يحظ باعتباره ضمن الدائرة المغلقة لفرج وجماعته . وحيث أنهم عرفوا النشاط السرى لأخوه فى اسيوط وعرفوا من خالد نفسه أمر دعوته للتحقيق فى مكاتب المخابرات العسكرية ، لذا فقد خشى جماعة المتعصبين من أن خالد من شأنه أن يكون تحت مراقبة أجهزة الأمن ، وأن يتسبب في أن يجلب لهم رجال الشرطة السرية . وفى الليلة التى اقتحم فيها رجال الامن منازل الآف المسلحين بالقاهرة وخارجها وقبضوا على أكثر من ١٥٠٠٠ متعصب وأعضاء الجماعات الاسلامية ، كان خالد موجودا فى قاعدة وحدته فى الهايكستب ، ولم يعرف شيئا عما يجرى فى الخارج كما أن صحف القاهرة الصادرة فى ٣ سبتمبر لم تنشر شيئا عن عملية الشرطة ليلة امس وبناء عليه لم يرى خالد ضرورة تغيير خطته للسفر فى نفس اليوم بعد الظهر بعد زياراته البسيطة لمنزل والديه فى نجع حمادى .

ان هذه السفرية قد تم الاعداد لها منذ فترة طويلة وكان الغرض منها تحقيق رغبة والده الذى رغب فى التشاور معه بشأن إقامة منزل جديد رغب الأب فى إقامته على جزء من أرض الأسرة .

ولدى وصوله لنجع حمادى فى ساعات المساء المتأخرة فوجئ خالد بوجود جمهور كبير من الاهالى متجمهر حول المنزل . وتعالت من المنزل اصوات البكاء . وقد اندفع خالد الى داخل المنزل فوجد والده ذليل وشاحب تماما وامه تبكى بمرارة وتشد شعرها وقد عرف من الجيران انه فى نفس اليوم - قبل الصباح - جاء رجال المباحث واخذوا اخوه محمد للاعتقال كما تم اعتقال بعض زملاء محمد فى الجماعات الاسلامية أيضا . وعندما رأت

قدريه ان ابنها الضابط فقد ازداد بكائها قائلة : يا ربى ما ذا فعل لهم ؟ لماذا اخذوه ؟ إنه لم يؤذى احد فى حياته ... إن خالد الذى كان من الصعب عليه عزاء والديه لم يستطع أن يتحكم فى دموعه ، وبسرعة انضم الى والدته فى بكاء يدمى القلب . لقد ظل الضابط الشاب لفترة ساعة طويلة يتصرف كالطفل ، وفى النهاية مسح دموعه وعانق والدته وقال : « اصبرى يا امى واعلمى ان الله يجعل لكل ظلم نهاية » واقسم من قلبه بانه لن يهدأ ولن يسكت حتى ينتقم من حكام الظلم والغطرسة الكفرة ، الذين يسيئون معاملة طائفة المؤمنين الطاهرة . وفى اليوم التالى الموافق الجمعة ٤ سبتمبر ١٩٨١ سافر خالد راجعاً للقاهرة ترافقه امه الى منزل اخته حتى تكون قريبة من سجن ليمان طره بالقاهرة الذى تم اخذ محمد له حتى يمكن محاولة إقناع السلطات بان يسمحوا لها بزيارة ابنها المعتقل . وفى يوم الجمعة انتشرت الانباء عن عمليات الاعتقال فى أنحاء القاهرة . وقد خلت مساجد الاخوان المسلمين كما خلت الشوارع من الشباب الملتحى ومرتدى الطواقى والجلباب الابيض . وفى يوم ٥ سبتمبر قبل العرض العسكرى لذكرى حرب اكتوبر بشهر كان ضابط المدفعية خالد الاسلامبولى ممدودا على سريره الضيق فى قاعدة وحدته ماسكا رأسه ، ويحاول فى نوبات بكاء مرة ان يسد آذانه حتى لا يسمع صوت انور السادات هذا الصباح من أجهزة الراديو الموجودة فى الحجرات المجاورة .

الفصل السابع : شغل مكان فى العرض

×ومنذ أن عرف خالد الاسلامبولى باعتقال أخيه محمد بذل جهوداً يائسة لخلق اتصال مع فرج ورجاله ولم يستطع . ان زعماء الجهاد الذين لم يتم اعتقالهم قد انتقلوا إلى العمل السرى كما لو كانت الارض قد ابتلعتهم . وفى مسجد الاخوان المسلمين فى بولاق الدكرور لم يعرف المصلون مكان اختفاء فرج او على الاقل تظاهروا بأنهم لا يعرفون . ومن خلال ما نجح خالد فى انقاذه من هنا وهناك فقد توصل الى نتيجة مفادها ان فرج هرب من الحصار الليلى ، ومن الحلقة التى تضيق عليه لتعقب آثاره ، ولكن تنظيم الجهاد أصبح فى أدنى درجات التدهور واعضاؤه يائسين . والنظام الحاكم يستعد ويعمل فى ذلك الوقت على تعبئة افضل رجاله من اجل القبض على آخر الهاربين . . . ومن الطرق المستخدمة للضغط على المسجونين للكشـــف عن أماكن اختفاء الأعضاء – الذين ما زالوا خارج أسوار السجن – عمليات تعذيب بضعة جسدية ونفسية .

وفى حى الالف مسكن كانت سمية مشغولة جداً برعاية أمها التى تخرج كل صباح متوجهة إلى سجن ليمان طره على امل ان يسمحوا لها بلقاء ابنها وفى كل صباح كانت تشعر بخيبة الامل من جديد . ان الأم قدرية كانت خائفة وقلقة إزاء الاشاعات التى بلغتها عن اعمال التعذيب فى السجن . إن خالد الذى شعر بانه عاجز عن المساعدة كان يقضى ساعات كثيرة مع صديق طفولته عبد الحميد ، الذى يسكن فوق اخته بسميه فى حى الالف مسكن .. لقد ولد عبد الحميد ايضا فى نجع حمادى . واسرته واسرة الاسلامبولى كانوا اصدقاء ، وكانت هناك صلات بين الاولاد قوية رغم ان عبد الحميد كان اكبر من خالد بأربع سنوات .. وفى طفولته كان اقل ترددا على المسجد الكبير للبلدة واقل اتباعا لشرائع الدين . وفى الوقت الذى كان لا يزال فيه خالد فى المدرسة الثانوية باسيوط يكان عبد الحميد لا يزال يخدم فى الجيش . وقد درس فى كلية الدفاع الجوى فى الاكاديمية العسكرية ولدى انتهاء دراسته تم توزيعه للعمل والخدمة فى سرية مضادة للطائرات بمنطقة سكنه بنجع حمادى ، إن معظم ساعات النهار كانت تمر على عبد الحميد جالساً فى موقعه المضاد للطائرات بدون عمل ، حيث كان يصب الخرسانة الاخيرة على حدود الصحراء الغربية او نائما على سريره فى الخيمة المجاورة .

وبعد فترة شعر بملل شديمد ، وحتى يخفف قليلا من هذه الحالة فقد عمل على حفظ القرآن والاطلاع على الكتب الاسلامية التى تركها شخص ما فى الموقع . وبدون قصد بدأت كتب الدين وتفسير القرآن تثير اهتمامه . ثم بعد ذلك اعتاد على ان يرجع فى كل مرة من اجازته الصغيرة فى نجع حمادى او فى اسيوط حاملاً كتب اسلامية او كتيبات توزعها الجماعات الاسلامية سراً . ان هناك شيئاً ما قد اثار فى نفس ضابط السرية المضادة

للطائرات ، والذى هو شخصياً من الصعب ان يحدده . حيث أنه فكر ذات مرة فى العادة السيئة لقائده الذى يتغيب بضعة ايام للتسليه فى المدينة الكبيرة برفقة فتيات مشكوك فيهن او شرب الخمر بدافع السكر . كل هذه المور كانت تثير غضبه وسخطه حيث انه بهذه الصورة كان يلقى عليه عبء اخر لتولى رئاسة ومسئولية الموقع بأكمله اثناء غياب القائد ، والآن تفتحت عيناه وادرك ان فسق القائد ليس الا خلاصة الانحطاط والانحلال الذى تفش فى الجيش المصرى وهى من الامور التى تؤدى الى تدهور الدولة ووصولها الى كارثة مروعة ، واقتنع بان الفسق والشهوات الجنسية . انما هى بداية الصراع الذى يدور حاليا فى مصر حول خلع النقاب من على وجوه النساء وكشف الفتيات العفيفات أمام نظرات الاجنبى ، وذلك مثلما حدث فى بداية انحطاط تقاليد الاسلام – وذلك من خلال تآمر السلطات ضد رجال الدين ومحاولة تغيير قوانين الله بقوانين الانسان .

إن مصر يسيطر عليها الكفرة وقائدها فاسق ان الحكام الكفرة يستعينون بجيش من أجل قمع وإخماد حماس الحقيقة التى يتفوه بها الأئمة فى المساجد .. بينما ضباطه الموالين له يعيثون فسادا فى دور السكر ومرافقة فتيات الشارع . فكلما تعمق عبد الحميد فى التفكير فى هذا الامر فإنه يندهش متسائلا : ما الذى يجعل شابا مثله فى موقع مضاد للطائرات منعزلا بالقرب من نجع حمادى ما الفائدة التى سيقدمها لربه ولنفسه من جراء استمرار الجلوس بدون عمل ؟ وهل لن يحسب له الامتناع عن ارتكاب خطأ لا يغتفر والذى يعتبر مثل التسليم بالكفر ؟

ان اول عمل قام به ضابط سرية مضادة للطائرات فى إطار التجاهل الواضح للوائح الجيش هو إطالة لحيته وفق ما يفعل اعضاء « الجماعات الاسلامية » . ان اللحية السوداء التى تزين الفك السفلى ووجنتيه وتتصل باطراف شاربه قد اكدت نوعية حياته البارزة . كل هذه الامور قد جعلته يبدو – شكلا – اكبر من سنه . وبدأ فى الحرص على اتباع الفرائض والصيام مرتين فى الاسبوع يومى الاثنين والخميس ويؤدى الفرائض الخمس اليومية .

وقد مضت عدة اسابيع حتى لاحظ قائدة التغيير فى سلوك عبد الحميد وبعد عدة اسابيع اتجه إلى معالجة هذا الامر . الا انه لم يكلف نفسه التدخل فى جذور الموضوع ، حيث انه من الواضح والمؤكد ان فى استطاعته إنهاء المسألة بسرعة وبفعالية وبدون ان يضطر الى التخلى عن خدمات عبد الحميد التى كانت مفيدة – على حد رأيه – لعمل الموقع .

وذات صباح امر الضابط الشاب قائلا : تقدم لحلق نلحيتك . وهذا الأمر يعتبر خطأ جسيما ، حيث انه بهذه الصورة تدخل فقط من اجل التغيير الخارجى ولم يتعرف على درجة التعصب التى ميزت الشخصية الجديدة لعبد الحميد . وبدت العصبية على عبد الحميد

متمثلة فى تكشيرة على وجهه وسكت .

وسأله القائد : سمعت يا عبد الحميد ؟ الا ان عبد الحميد انحنى قليلا ثم التفت للقائد وبصق عليه بصقة كبيرة بملو الفم . جزء منها استقر على جبين القائد لقد ضرب الضابط القائد ممسكا بكم الجاكت ساحباً مسدسه من حدامه إلا انه فى آخر لحظة سيطر على نفسه . إن نظرات عبد الحميد تشتعل ناراً وكل جسمه يرتعد . وصاح القائد قائلا : لقد كنت سأطلق عليك النار كالكلب قال ذلك بعد اعادة النظر ، وعندما كان يرفع كرسيه ويحاول الحفاظ على توازنه وقال له ايضاً « انت ابن شرموطه وملعون » .

لقد اتضح امر ضابط السرية المضادة للطائرات عبد الحميد عبد السلام أمام قائد الوحدة . ان القائد الذى كان فى حالة سيئة لم يلتفت لسماع إيضاحات المتهم وحكم عليه بستة اشهر حبس . ومع ذلك فقد وعد بدراسة طلب عبد الحميد الوحيد وهو اعفائه من الجيش اى تسريحه بعد تأدية فترة العقوبة ، وكانت مفاجأة عبد الحميد انه قد تم التصديق على الطلب بسرعة .

وفى اليوم الذى بلغ فيه عبد الحميد ٢٥ عاما تم الافراج عنه من السجن العسكرى ومن قيود الجيش ايضا .

وقد صمم عبد الحميد بعد التفكير فى هذا الامر على الانتقال للقاهرة ، ولكن من اجل ذلك اضطر للعمل لفترة حوالى سنة ونصف فى نقل ركاب بالاجر بسيارته الصغيرة التى لم تكن مرخصة لهذا الغرض ، وذلك من اجل جمع مبالغ لتأجير شقة فى إحدى الاحياء القديمة فى العاصمة . ولحسن حظه سارعت بمساعدته سميه من عائلة الاسلامبولى وزوجها ممدوح اللذين نجحا فى ان يستأجرا له شقة عبارة عن حجرة فى الطابق الذى يعلوهم فى حى الالف مسكن . بل وساعدوه فى فتح محل صغير للكتب الدينية اطلق عليه « مكتبة ابن كثير » بالقرب من مسجد الحق . ان عبد الحميد كان اسير الشكر لممدوح وسميه ازاء مساعدتهما ، خاصة ازاء عمل المحل الذى فصله – هكذا يعترف لهما – ازاء الحاجة المهينة فى الاتصال بنساء شبه عاريات يملأن مصر مع موجات السياحة التى تدفع المسلمين لارتكاب الخطيئة والكفر ، كما جعلتــــه يلتقى باناس ليس لهم اهتمام بالدين . إن ممدوح زوج سميه الذى لم يكن تقيا فى منزله قد تأثر جدا من الحماس الشديد لعبد الحميد لدرجة انه طلب وحصل على موافقة والده على الساكن الجديد مع اخته . ان انتقال عبد الحميد للقاهرة وانضمامه للاسرة الكبيرة التى تكن ارتياحا كبيرا لضابط المدفعية خالد الاسلامبولى . هذا اللقاء المتجدد مع صديق شبابه وصباه قد اثر بصورة طيبة على مزاج خالد الذى تطوع لمساعدة عبد الحميد كلما كان لديه وقت فراغ حيث يساعده فى مكتبته : فى نقل اثاث قديم مستعمل الى المحل الثانى الذى افتتحه عبد الحميد

مع بعض زملائه ، واطلق عليه اسم « معرض اثاث البشرى » . ومنذ موجة اعتقالات ٣ سبتمبر اصبح عبد الحميد – الذى لم يكن مشتركا فى اعمال الجماعات الاسلامية – الملجأ الوحيد لخالد من المشاكل التى يمر بها : اعتقال اخوه محمد ووالدته التى تبكى وانقطاع الصلة مع فرج وجماعة « الجهاد » وتردد نبأ بان خطر الموت يحوم عليهم جميعا .. هذا الاحساس الكئيب شارك فيه عبد الحميد حيث إن الرسول محمد كان سيتقلب فى قبره لو رأى كيف تفيض مصر بموجة من القذارة والكفر .

لقد مرت عشرين يوما منذ اعتقال محمد ولم يبدو ولو بصيص من النور فى هذا النفق المظلم . لقد فشلت جميع الجهود من اجل التقاء الام قدرية مع ابنها الموجود فى السجن ، كما لم تصل من عبد السلام فرج أية اشارة تفيد كونه حياً ، وان كل يوم جديد يحمل معه انباء عن اعتقالات اخرى يدفع باصحابها الى السجن . وان الحلقة آخذة فى التضييق .

وفى هذه الليالى السوداء كان خالد يقضى وقته برفقة عبد الحميد ، وكان الاثنان – وعلامات الكآبة على وجههما – يتحدثان عن حالات الاعتقال والاحساس بالضيق الذى يسود هذا الجو . واتفق كلاهما على ان انور السادات يتحمل بصورة مباشرة مسئولية الحملة التى تقوم بها اجهزة الامن لمطاردة رجال الدين ومرتدى الطواقى ومربى الذقون والذين يطلقون كلاب الصيد للانقضاض على الضحية لتمزيقها وهى على قيد الحياة . وهما اقتنعا بانه عن طريق القيام بعملية للتخلص من انور السادات يمكن إبعاد المقصلة المعلقة التى تتأرجح فوق رؤوسهم ولكن فى كل مرة كانوا يستبعدون من على بساط البحث اى احتمال للقيام بهذه العملية ، وذلك بعد ان يحللوا بارتياح الاحتمالات المائعة لنجاحها ، فلو كانوا يعرفون فشل خطة اغتيال السادات اثناء زيارته للمنصورة لكانوا قد كفوا تماماً عن احلامهم فى اغتياله .

وإبان أيام شهر سبتمبر الاخيرة كان خالد الاسلامبولى يقسم وقته بين وحدته العسكرية وبين شقة عبد الحميد وشقة اخته سمية . إن عبد الحميد الذى خشى من وقوع خالد تحت طائلة المشلكة النفسية التى يتعرض لها قد نصحه بطلب اجازة من قادته .

وفى صباح يوم الاربعاء ٢٣ سبتمبر تم استدعاء الملازم خالد الاسلامبولى لمكتب قائد الكتيبة الرائد مكرم عبد العال ، وقد لوح له القائد بالجلوس على الكرسى الحديد ، اما القائد ذاته فقد جلس على كرسى « فوتيه منجد » .

– وقد استهل الرائد كلامه قائلا : بخصوص الاجازة .

– نعم يا سيدى ، اننى متأسف جداً يا خالد . اننى ليس فى استطاعتى التصديق

على ذلك الآن . ولكن يا سيدى - احتج خالد - فانك تعرف حالتى . رد عليه القائد : اننى اعرف . ثم بعد ذلك سأل : بالمناسبة ماذا بخصوص اخيك ؟ فقد كان الرائد مكرم من بين الضباط الوحيدين فى الوحدة الذين يشعر خالد تجاههم بنوع من التعاطف وربما لأنه كان يتصرف معه بصبر : ليس لدى فكرة لا يزال ليس هناك شخص قد راه وهذا هو السبب وفى هذه اللحظة قاطعه القائد قائلا : صدقنى كان سيسرنى لو كان فى استطاعتى مساعدتك بشان الحصول على الاجازة ، ولكنى فى حاجة اليك حاليا . ببساطة اننا لسنا فى استطاعتنا التخلى عنك . وسأله خالد قائلا : ما هو المقصود ؟ رد عليه القائد قائلا : العرض العسكرى . لقد تبقى اقل من اسبوعين على العرض العسكرى وقد ابلغنى هذا الصباح النقيب عبد الرحمن سليمان بأن حالة زوجته سيئة جداً ، ولا بد ان يتواجد بجانبها فى المستشفى ولولا ذلك - اوضح القائد له وهو يحرك كرسيه - لكنت حصلت على الاجازة ، وتولى عبد الرحمن قيادة السيارات الاربع النقل الخاصة بالسرية ، ولكن الانسان لا يعرف ما الذى سيحدث غدا والحياة والصحة بيدى الله . انا فى الحقيقة متأسف يا خالد .. وببساطة . ليس هناك خيار .

ولقد حاول خالد فى البداية ان يتصلب حيث إنه سبق ان اشترك سلفاً فى استعراضات ٦ اكتوبر فى السنة الماضية والتى قبلها . ويشعر بالضيق والاشمئزاز إزاء مجرد التفكير فى المناورات والتدريبات التى لا حد لها ، والتى تعد جزءاً لا يتجزء من العرض ذاته . لقد شعر بالخوف عندما تذكر الضوضاء المستمرة عندما كانوا يدفعون بآلاف الجنود الى خيمة مكتظة بقطع القماش والمراتب والآن يطلبون منه المرور بهذا الاستعدادات التى تتمثل فى ثلاث صور العرض والسير ببطء والذى يثير الاعصاب فى سيارات نقل تجر المدافع والمرور امام منصة التشريفة وتقديم التحية العسكرية . تقديم التحية العسكرية لمن ؟ وهذا الرأى لمن ؟ لهذه الجماعة المغيرة التى تجلس فى المنصة بملابسها العسكرية التى تتألق من خلال الشارات والانواط الموضوعة على صدورها . وفى سجن ليمان طره يتواجد. اخوه محمد مع زملائه بينما هذه المجموعة تتهادى فى العرض مع صوت الفرقة الموسيقية . ظلم صارخ يا رب - قال لنفسه - على اى حال لن أشترك فى العرض فى هذه المرة ، وكان على وشك ان يفتح فمه ويعصى الأمر .. الا انه فجأة شعر بالاف المطارق تدق رأسه لدرجة احساسه بأنها ستنفجر فى كل اتجاه . وقطرات العرق البارد ملأت جبينه وكفوف يديه وبدأت الدموع تملأ عينيه : « حارب الاعداء الكفرة » هكذا امر بن تيميه . وسأله القائد : يا خالد انت على مايرام ؟ نعم يا سيدى إن أى شئ لن يحول دون الاشتراك فى العرض . انا تحت امرك يا سيدى ، فقال له الرائد مكرم : إنه ليس هناك مثلك قال ذلك وهو يربط بيده على كتفه. إننى سأذكر لك ذلك يا خالد واننى سأصدق لك على اجازة لمدة اسبوعين بعد العرض لترتاح فيها .

ورد عليه خالد قائلا : الف شكر بينما رأسه لا تزال ينتابها حالة دوران وسأل ما الذى يجب علىّ عمله الآن ؟ التوجه فوراً الى وحدتنا فى مدينة نصر حيث ستشترك من كتيبتنا ١٢ سيارة نقل وانت يجب ان تكون مسئولاً عن اربع سيارات فى سريتك . نعم يا سيدى . لا تنسى ان تتأكد من أن جميع الافراد فى المكان وأطقم السيارات موجودة . يبدو لى ان هناك حاليا بعض الغائبين . اذا نشأت اى مشكلة – لا تتردد فى اللجوء لى ومن الفضل قبل ذلك بساعة واحدة . نعم يا سيدى : اننى لا أتوقع أية مشاكل .

ولدى وصول خالد لمدينة نصر فى نفس اليوم بعد الظهر .. فحص حالة افراد السرية فوجد ان هناك ثلاثة افراد غائبين : اثنين غابوا بإذن وفقا لتخطيط من البداية وواحد رقيب يدعى احمد جمعة الذى طلب فى نفس الصباح اجازة خاصة . وقد سجل خالد لنفسه الأسماء على ورقة ووضعها فى جيبه حيث نوى ارسالها فيما بعد لقائد الكتيبة . لقد كانت رأسه ثقيلة وهو امتد على إحدى المراتب ونام نوماً عميقاً . وفى صباح اليوم التالى وتم استئناف الاستعدادات للعرض واشترك فيها الملازم خالد الاسلامبولى بدور فعال . وفى هذه المرحلة .. فقد تطلبت الاستعدادات اشتراك سيارات النقل بسائقيها دون الاطقم التى من المقرر جلوسها على المقاعد فى الخلف . حيث إن خالد لم يشغل نفسه بشغل اماكن الثلاثة الغائبين . وفى نفس الصباح شعر برغبة قوية فى ان يحدث اى شخص عما مر به خلال اليومين الاخيرين . فلو كان فرج موجوداً بجانبه فى هذا الوقت لحل له سر هذه المشاعر والاحاسيس الغريبة التى أمت به عندما طلب منه الاشتراك فى عرض ٦ اكتوبر حيث وجد نفسه مذعنا للأمر الذى كان يكره من كل قلبه . ان فـرج كان يرشده إلى الطديق السليم .. ولكن اين فرج ؟

وفى اليوم التالى – يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر – توجه خالد كعادته لتأدية الصلاة فى مسجد الاخوان المسلمين . وكان قد فقد الامل فى الالتقاء بفرج ، وبسبب ذلك فقد اندهش عندما كان فى إحدى ركعات الصلاة وجاء احد المصلين يضغط على يده ويهمس فى اذنه قائلا : ان فرج موجود فى مكان ما (وذكر له المكان المضبوط) ويطلب رؤيتك بصورة عاجلة .

لا شك ان خالد شعر بانه حظى بنعمة من السماء .. فقد تحققت رغبته فى رؤية فرج . فالله هو الذى وجهه فى الماضى وسيوجهه فى المستقبل ايضا وفق ما يوجه ويرشد جميع مؤمنيه بصورة مباشرة .

الفصل الثامن
فتوى شرعية

ورغم وجود عنوان فرج معه الا ان خالد ضل الطريق لفترة ساعة طويلة فى الازقة الضيقة والقذرة لبولاق الدكرور حتى نجح فى معرفة مكان البيت . وكان فرج راقداً على سرير ضيق يسند رأسه الشبه محلوقة على مخدة صغيرة ولأول وهلة احس خالد بالتغيير الذى طرأ على زعيم الجهاد خلال الاسابيع القليلة التى لم يريا بعضهما فيها . فقد ضعف جسمه جداً وكبرت ذقنه وعيناه الحمراوان من شدة التعب غائرتان .

ولقد قال خالد له عندما دخل ولا حظ وجود رجله اليسرى فى الجبس : الله واكبر ما حدث ؟ فرد عليه فرج قائلا : لا شئ كل ما فى الامر حادثة طريق ، واشار بيده لخالد بالجلوس . وقام خالد بتقريب الكرسى بجوار سرير فرج الذى بدى عليه مشاعر التعاسة والإحباط واليأس . واستهل فرج كلامه بقوله : لقد طلبت ان اراك حيث اننى فى حاجة لشقة بصورة عاجلة حيث إننى اشعر بنفس « ولاد الكلب ورائى ... »

وبناء على طلب خالد فقد استعرض فرج بصورة مختصرة تاريخ منظمة الجهاد ابتداء من الاعتقالات الجماعية . حيث انه كان فى هذا الوقت فى حاجة لمساعدة ضابط المدفعية الشاب فى الحصول على مكان يختفى فيه خالد وقرر اعلام خالد الاسلامبولى بسر المحاولة الفاشلة لاغتيال انور السادات فى المنصورة ، وحكى له ايضا عن اعتقال نبيل مغربى ومحاصرة منزل عبود الزمر وجهود الهرب . واستمع خالد للقصة فى هدوء من فم جاف ووجه تبدو عليه علامات الحزن والالم . وعندما انهى فرج كلامه كان خالد سرحانا لدرجة ان صوت فرج بدا كما لو كان من على مسافة . ثم سأله يا اخى هل فى امكانك مساعدتى بشئ ؟ بهذا السؤال كان فرج يقصد موضوع الشقة . فقد كان مقتنعاً بأنه فى اى لحظة يمكن أن يقتحم رجال الشرطة والمباحث مكان اختفائه ، ويشهروا مسدساتهم ، ويرفسوه على أرضية سيارة النقل التى تأخذهم إلى السجن .

ولكن خالد لم يسمع او لم يفهم كما يجب ويبدو ان افكاره سرحت بعيداً حيث مضت فترة طويلة حتى فاق من صمته الشديد قائلا : بص يا عبد السلام اردت ان ابلغك بأننى سأشترك فى العرض العسكرى واننى مستعد لعمل اى شئ يخلصنا من الظلمة (الظالمين) .. وهي ثلاث كلمات « عمل اي شئ » تفوه بها خالد ببطئ ويكررها مرة وأخرى . لعمل اى شئ . وقد نهض فرج من على السرير دون ان يبعد نظره عن خالد كما لو كان يحاول اختراق افكاره . وسأله : هل فى الحقيقة تنوى ذلك ؟

لقد اعتاد فرج اكثر من مرة فى الماضى ان يتظهر بأن المعلم من شأنه أن يقلل – بصورة ليس صادقة – بقيمة تلاميذه من خلال انه لم ينجح فى ان يطرح امامهم حالات يكشفون فيها عن اسرارهم وصفاتهم الخفية . وهنا جلب له الله خالد الاسلامبولى امامه . ان تعارفهما استمر بضعة شهور واذا كانا قد تناولا خلال هذه الفترة الزمنية سر نظرية ابن تيميه – فإنه لم يطرأ على باله بأن يتوافر لدى هذا الشاب الاستعداد للعمل والتضحية . لقد كانت هذه الروح تسود خالد طـوال الوقت إلا أن فـرج لم يلاحظها او ان اعتقال اخيه « محمد » هو الذى احدث فيه هذا التغيير ؟

والان كان فرج يحاول اختبار خالد . قال بعد تفكير اننى اعتقد أن احتمالات النجاح فى العرض غير مضمونة . فحالة الأمن شـديدة جدا وليس هناك احتمال فى اختراق الحراسة .

وقد جادله خالد قائلا : لا تقل ذلك « فحقيقة ان الله معنا » وقال وانت يا فرج يجب ان تتذكر باننى اكتسبت خبرة خلال العرضين السابقين ، واننى اعلم بانه من الممكن عمل كل شئ . لقد اتيح لى مرتين الشرف المشكوك فيه فى ان اكون نجماً امام الكفرة فى حملة تأدية التحية العسكرية امام المنصة .

وحرص فرج على الا يقلل من حماس الشاب الذى تزايد عنده ولذلك سأله بحذر : هل فكرت فى العمل وحدك ؟ لم يتراجع خالد وقال : فى استطاعتى العمل بمفردى – اذا دعت الضرورة – واستطيع ايضا ان استعين بآخرين ان لى ثلاثة اشخاص غائبين فى السرية وليس هناك اى مشكلة فى ادخال ثلاثة اخرين فى اماكنهم اذا توافر لى مثل هؤلاء الاشخاص .

هذا الامر اتركه لى هكذا قال فرج وهو ينتابه الاحساس بالمكافأة ازاء السرعة التى وافق فيها على خطة خالد وقال « اننى سأوفر لك المساعدين » . وبدأ من اللحظة التى اعرب فيها خالد عن رغبته للعمل اثناء العرض العسكرى . فقد خشى فرج ان يضعف يديه . وبناء على ذلك لم ير ضرورة لاطلاعه على سر القرار الذى اتخذه زعماء الجهاد بعد فشل محاولة الاغتيال بالمنصورة بشأن الكف فى تلك الاثناء عن محاولات اغتيال حكام مصر . وهو قد رغب فى ان يستوضح مع خالد نقطة واحدة فقط : « هل سألت نفسك يا خالد كيف سيستفيدون من ذلك ؟ ان ملامح وجه ضابط المدفعية كانت هادئة وآمنة : قائلا : لم يطرأ على بالى على الاطلاق التفكير فى ذلك ، ورد قائلا ونظراتـه متأثرة : عدة مرات سمعتك يا عبد السلام تقول وتؤكد بان ثواب جنود الله سيتحقق لهم فى الوقت المناسب وانهم سيكونون فى الجنة » . وقال فرج بتأثر حقيقى عندما يحملق فى خالد ويلقى عليه نظرة كلها اعجاب وتقدير قائلا : « الله يسهل لك طريقك » وقال : من كان الله معه فلا يقف

أمامه أى شئ . وسأل خالد قائلا : ما الذى يجب علىّ عمله الآن ؟ وقد وضع فرج رجله الموضوعة فى الجبس على كرسى صغير وقال : اعطنى مهلة بسيطة للتفكير فى ذلك . وقد بدا لخالد ان صوت فرج الذى كان فى ذلك الوقت دقيقا ومحسوبا قد اعاد له الاحساس بالثقة والصلاحيات التى افتقدها منه فى بداية لقائهم . وقال له : اننى اقترح ان تستمر فى تلك الاثناء فى الاستعدادات للعرض كالعادة . ورد عليه خالد بسرعة وهو يهم بالسير « كل ما ستأمرنى به » الا ان فرج اشار له بان ينتظر وسأل : وماذا بخصوص الشقة يا خالد ؟ هل لديك نصيحة ؟ اننى مضطر للهرب من هنا باسرع ما يمكن .

وقد فكر خالد قليلاً ثم اشرق وجهه . وقال اختى تقطن مع زوجها فى حى الالف مسكن واننى واثق من انها وزوجها سيسرهما استضافتك . وقد بدا على زعيم الجهاد الاحساس بالرضا . ثم اخذ بيد خالد واوصله للباب بحرارة لم يسبق لها مثيل . وافترق الاثنان بعد ان اتفقا فيما بينهما على ان خالد سينتظر فرج فى شقة اخته فى مساء يوم الأحد أو مساء يوم الإثنين على الأكثر – ان طريق ضابط المدفعية وهو عائد الى وحدته فى مدينة نصر كان فى هذه المرة سهلا وسريعا للغاية . ففى داخل التاكسى الذى استقله خالد الاسلامبولى كان يفكر فى عملية الاغتيال ويرى نفسه ينقض ببطولة على منصة الشرف . وكان يشعر فى داخله بالفخر لأنه كان تفكيره يتفق مع تفكير فرج . كما لو كانا ابناء لأب واحد حتى فهم كل منهما الآخر بالنظرة ولم يحتاجا لكلمات من اجل تفسير نواياهما . لقد كان خالد واثقا بانه سيؤدى العمل السليم والوحيد الذى يجب عمله . ومرة واحدة واثناء تواجده فى التاكسى شعر بالضيق ازاء التفكير فى الدموع التى ستذرفها والدته « قدرية » وكيف سينكسر قلب اخته « سمية » وكيف سينحنى رأس والده غماً عند نبأ وفاته .

وجاء عبود الزمر – يوم السبت – شقة فرج فى بولاق الدكرور وسمع على لسانه لاول مرة عن خطة خالد الاسلامبولى . وهو قد عارض الفكرة تماماً وقد اندهش فرج ازاء شدة معارضته .

الم نتفق ان نترك هذا الامر الآن – اننا لسنا فى حاجة لمزيد من حالات الفشل » . ان عبود الزمر كان مسئولا عن رئاسة الجناح العسكرى فى الجهاد ليس فقط بسبب خدمته فى المخابرات العسكرية ، بل ايضاً بفضل خبرته الوفيرة وفطنته وزكائه وقدرته الكبيرة فى تنظيم النشاط السرى . ان آرائه فى الموضوعات القتالية والعملية – تم الاعراب عنها بصورة فظة وتعنى شيئا – كانت تحظى آراءه بالقبول دائما بدون اعتراض من جانب باقى الاعضاء فى التنظيم الذين كانوا يعرفون انه يعلم ما يبديه .

الا ان فرج لم ينو اليأس . فقال « إن لنا ميزة ضخمة » إن جميع أجهزة الأمن

وكلاب الحراسة التابعة للسادات تبحث عنا فى الخارج ، فى الوقت الذى يوجد فيه شخص فى الجيش ليس محل شك وليس مطلوباً . ان خالد الاسلامبولى هو رجل ضابط جيش ، والضباط يعتبروا لممن لم يشك فيهم أحد . ان لدينا رجل لا يتحرى عنه . والحقيقة انه مشترك فى العرض وهذا يعد فرصة وحيدة لا يجب ضياعها » .

فقال عبود الزمر بحزم وبنوع من الغضب « انت مخطىء » . انهم سيفتشون فى كل مكان وفى الجيش ايضاً . ان السادات يعلم ان حياته فى خطر وان رجاله سيتحروا ايضاً فى الوحدات . وهل الضباط ايضا ؟ نعم الضباط ايضا . وفى هذه اللحظة غضب عبود الزمر بالفعل . وحاول فرج مرة اخرى قائلا : « ان هناك اضطراب شديد فى مدينة نصر . وان خالد حكى لى ان الجنود يتعرفون على وحدتهم بصعوبة . وهل تعتقد بالفعل أن الأمن فى استطاعته السيطرة على كل هؤلاء المشتركين ؟ . وقد تمسك عبود الزمر بموقفه بشدة . ولم يرغب فرج فى ان يصل الوضع بينهما الى مواجهة ، ولكنه لم يكن ايضاً مستعداً للتنازل بسهولة » وقال له : يا عبود ما ذا يهمك ؟ فحقيقة ان خالد ليس من مجموعتنا .. « وهذا هو المهم » وثار عبود الزمر قائلا : « انه سيقع فى ايديهم وعندئذ سيقودهم مباشرة الينا وربما من الجدير ان نسلم انفسنا عن طيـــب خاطر الآن » هكذا اقترح بنوع من السخرية ، أما عينه تفيض بالغضب . ثم قال فرج له : « انك تؤمن بالله ، بان له احتمال فى ان يخرج حياً من هذه العملية » . ورد الزمر قائلا : اننى لا اعرف ، وفى لحظة بدا كما لو كان قد هدأ قليلا . « اننى لا اعرفه جيداً . ولكنى اعرف ان الكثيرين من المنتحريين يتراجعون فى آخر لحظة عن تنفيد عمليتهم ويسلمون انفسهم . حينئذ فاننى اؤكد لك بان هذا سيكون بمثابة انتحار بالنسبة لنا وللجميع » . وقد بدا لفرج انه فى هذه اللحظة قد نجح فى فهم الدافع الرئيسى لمعارضة عبود الزمر .

« انت صادق » هكذا قال فى هدوء « انه يجب علينا ان نحرص فى الا يتراجع فى آخر لحظة بل يفدى بنفسه لله » . كيف تفعل ذلك ؟ان لدى فكرة . تعال ساعدنى على نزول السلالم ونمشى من هنا » . وقد نقلت سيارة عبود الزمر كلاهما الى منزل الشيخ الكفيف عمر عبد الرحمن . ويبدو ان الرجل لم يفاجأ بالزيارة على الاطلاق غير المتوقعة . وقال لهم : ما الذى استطيع ان اساعد فيه ؟ هكذا سأل الشيخ الكفيف بعد ان بحثوا باختصار الوضع المتوتر . وقد اشار فرج باختصار الى خطة خالد الاسلامبولى كما حكى ايضاً عن معارضة عبود الزمر لها . وقد توقف الشيخ بعد تفكير وقال « انه صادق » فالشاب من شأنه ان يتراجع فى آخر لحظة لأنها مسألة تضحية . ويبدو ان الطريق اغلق امام هذا الامر . وقام عبود الزمر من مكانه للخروج . وحاول فرج مجرباً حظه للمرة الاخيرة قائلا : « اننا مضطرون ان نزيل من عنده فكرة الانتحار » أليس الاسلام يحظر على جنود الله ان يلقوا

بانفسهم للهلاك ؟ وهنا هز عمر عبد الرحمن رأسه موافقاً .

« اذا كان الامر كذلك » فان ما نحتاجه هو فتوى شرعية لخالد للمحاربة حتى النهاية وانه يجب ان يرد فيها صراحة بان من يلقى حتفه فى الحرب من أجل الله فإن مصيره الجنة ، بينما المنتحرون – سواء اكملو مهمتهم أم لا – فانه لن يكون لهم ثواب فى الآخرة . وانه بهذه الطريقة سنكون واثقين بانه لن يتراجع وانه سيصر على تنفيذ المهمة حتى النهاية . وقد رغب الشيخ الكفيف فى الموافقة على رأى فرج . اما عبود الزمر فقد وقف مندهشاً ازاء حكمة فرج . وانتظر بصبر حتى انتهى فرج من تسجيل السطور على ورقة وجدها فى جيبه من اجل ان يكون فى استطاعته استخدامها بصورة مزدوجة . لعرضها كوثيقة ملزمة أمام خالد الاسلامبولى والتلويح بها ايضا امام الامراء فى الصعيد والذى خطط لاستدعائهم لدفع وحث هذه العملية .

وفى مساء يوم السبت ٢٧ سبتمبر ١٩٨١ شاهد خالد من نافذة شقة اخته سيارة زرقاء توقفت بجانب البيت . خرج منها فرج يتوكأ على عصا . ويستند على زراع شاب طويل القامة كما لو كان يبلغ ١٨ عاماً . وقد ساعده الشاب على صعود السلم . ان كلاهما تقدم بصورة بطيئة حتى وصلوا الى شقة سومية وقد تقدم خالد لفتح الباب . وقام بتوصيل فرج ومساعده الى حجرة الضيوف وجـــرى تعارف بينهم وبين ممدوح صاحب البيت ، ورحب ممدوح بضيوف خالد ، ثم توجه الى المطبخ . وباسم فرج طلب اذن ممدوح فى البقاء فى شقته حتى يهدأ الوضع . وانه من خلال ملامح وجه ممدوح فقد فهم خالد بانه اخطأ عندما وثق فى رده الايجابى حيث قال له : اننى لست خائفا على حياتى بل على حياة اختك ووالدتك التى تقيم عندنا الآن . ان ممدوح كان على حق . وشعر خالد انه قد وقع فى ورطة وحيرة . وكان على وشك الاعتذار لفرج حتى درس الامر فى ذهنه . فقد صعد بسرعة « السلالم » الى شقة عبد الحميد ودعا ان يجده فى المنزل . وقد استمع عبد الحميد الى مسألة فرج وعرض شقته بدون تردد. وخلال دقائق معدودة بعد ان تركوا صاحب البيت بصورة مهذبة . كان فرج ومساعده الشاب يصعدان الى شقة عبد الحميد فى الطابق العلوى كان خالد يساعدهما .

الفصل التاسع

لقاء الآمراء

ان سقوط نبيل مغربى فى موجة الاعتقالات الجماعية فى بداية شهر سبتمبر قد القت بعبء آخر على الاكتاف الضعيفة لحسين عباس ، وهو رقيب فى الدفاع الشعبى فى الجيش المصرى ، الذى تعسكر سريته فى شرق القاهرة والتى تقع على بعد بضعة خطوات من المعهد الدينى الثانوى فى ميدان الحجاز . لقد ادرك عباس هذا الامر فى اللحظة التى سمع فيها بكاء اخته الشابة التى ابلغته بالتليفون عن اعتقال زوجها نبيل . فقد ادرك انه من الآن فصاعداً - ولفترة زمنية غير معروفة - سيضطر الى تقسيم راتبه العسكرى البسيط مع اخته واولادها الثلاثة وذلك حتى لا يتضرروا جوعاً .

قد سلم عباس بهذا الحكم مزعناً . فقد شاء القدر ان تتزوج اختاه رجلين كانا اعضاء فى الجماعات الاسلامية . فقد اعتادا قضاء معظم ساعاتهما فى لقاءاتهمت السرية اما نسائهم فقد تركن يواجهن لوحدهن المشاكل اليومية ، واضطر عباس الى مساعدتهن بصورة طبيعية دون ان يكون هناك مقابل لذلك ، مرة فى صورة مواد غذائية ومرة فى صورة شراء ملابس للأولاد .

والآن فقد كان زوج اخته الأول نبيل مغربى محتجزاً فى السجن بينما زوج اخته الآخر عبود الزمر الذى يعلم عباس بانه من قيادات الجهاد الكبرى مطارد ويغير اماكن اختفائه . وكانت تساور عباس مشاعر وأحاسيس حول احتمال ان تأتى الساعة التى يقف فيها الله سبحانه وتعالى بجانب مؤمنيه المتعصبين ، وان تخف قليلا حلقة الضيق من حول رقبتهم .

لقد تم تجنيد عباس للجيش المصرى فى شتاء ١٩٧٢ . خدم سبع سنوات فى وحدة المشاه رقم ٣٠ ببورسعيد ، وبالمناسبة فقد اكتسب لنفسه قدرات ومواهب كثيرة فى مختلف الحرف العسكرية ابتداء من التدمير والهندسة القتالية ، وانتهاء بالبتوغرافيا ورسم الخائط ، ولكن اساس تفاخره تمثل فى الميدالية الذهبية التى حصل عليها فى بطولة الجيش المصرى فى التصويب على الهدف فى ١٩٧٥ . لقد كان عباس قناصا ممتاز وقال عنه قادته انه وهبه الله نعمة بصر حاد ووقوف ثابت ونفس سليم وايدى قوية ، وفوق كل ذلك التحلى بالصبر وطول البال - وانه فى استطاعته ان يمثل بلاده بشرف فى المسابقات الخاصة بالرماية الدولية . وحتى فترة تجنيد عباس فقد كان بعيداً عن تأدية الشرائع الدينية ولكن مشاعره واحساساته قد تغيرت تدريجياً . فى البداية بفضل ضابط احتياط الذى جاء الى وحدته وتحدث عن رغبته فى الصلاة وبعد ذلك بتأثير ازواج اخواته الذين كان يتعب ويتفانى بسببهما ومع ذلك فقد تفاخر باخلاصهما فى المهمة التى اخذاها على عاتقهما ويؤمن

بعدالة اسلوبهما .

وفى صيف ١٩٧٩ تم نقل عباس وفقا لطلبه من بورسعيد للقاهرة وتم الحاقه للخدمة فى سرية الدفاع الشعبى ، وانه من خلالا المقارنة بالمناخ اللطيف لبورسعيد فقد كانت الحرارة فى القاهرة من الصعب تحملها . ولكن عباس كان راضياً عن التعيين الجديد . والآن بعد انتقاله للعاصمة فقد كان زوجا اخواته يحثانه على الانضمام اليهما ولكنه كان يرفض العرض بابتسامة . فقد اعتاد ان « يتحجج » بانه لا بد ان يكون هناك من يحافظ على البيت . ومع ذلك وعد قائلا : سيأتى الوقت الذى سأكون فيه معكما » .

وفى يوم الثلاثاء ٢٩ سبتمبر ١٩٨١ ادى عباس صلاة العشاء كعادته فى مسجد الانوار ، ويقع هذا المسجد فى حى زهراء عين شمس الشرقية حيث نوافذه الضيقة تطل على فندق السلام الفخم ... وقد اجرى عبود الزمر فى اغسطس ١٩٨٠ اول تعارف بينه وبين زعيم الجهاد عبد السلام فرج ، والآن بعد انتهاء الصلاة تقدم اليه شكرى وهو طالب ثانوى تعرف عليه عباس باعتباره عضوا فى التنظيم ودعاه للالتقاء مع فرج فى مكان غير معروف .

وقد قاد شكرى عباس الى محل « اثاث البشرى » حيث كان ينتظره هناك عبد الحميد الذى قدم نفسه على انه صديق لفرج . وتوجه عبد الحميد معهم بسيارته وفى الطريق لم يتفوه بكلمة تقريباً . وعندما اقتربوا من البيت فى حى الالف مسكن سأل عباس عن سلامة اخواته البنات . فقد افترض عباس ان عبد الحميد يعرف باعتقال زوج اخته نبيل وبناء على ذلك فقد حكى له عن تعاسة اخته . وبدون اى كلمة اخرج عبد الحميد من جيبه مبلغ ٥٠ جنيها وقدمها لعباس . وقال باختصار « بلغها ان تصمد » ثم اضاف قائلا : هيا نصلى لله وندعوه ان يفرجها عليها وعلينا جميعاً قريباً . ولدى وصولهم لشقة عبد الحميد وجدوا فرج وخالد ينتظران بفارغ الصبر . وقد حيا فرج عباس وقدمه لخالد . ثم لوح فرج لخالد ليبدأ كلامه مع عباس الذى وقف فى ركن الحجرة يسعل من حنجرته ويضع كف يديه على خده المتجعد .

وقد اخذ ضابط المدفعية بيد عباس وقال بدون تأخير : ان هناك فرصة يا حسين للموت من اجل الله . فهل ستنضم الينا ؟ وقد تطلع فرج الى عباس بنظرات فاحصة منتظرا ما سيقوله : الا ان عباس لم يبد دلائل الدهشة والتعجب . فقد سكت لحظة وبعد ذلك قال : اننى مستعد وجاهز .

اذا كانت هناك ضرورة لذلك فاذكروا لى فقط ما الذى يجب علىّ عمله . وقد اوضح خالد باختصار نيته للعمل الناد العرض العسكرى الذى تقرر اقامته بعد اسبوع . واعترف بانه فى هذه المرحلة ليس لديه خطط محددة . وقد وعد عباس قائلا : تستطيعون ان

تعتمدوا عليّ ولن اخيب ظنكم ، ولأول مرة لوحظ ان هناك ابتسامة على شفتى عبد السلام فرج لم تحدث منذ عام . وبعد ذهاب عباس فقد اعرب خالد عن رأيه بأنه مع شريكه الجديد يمكن تنفيذ المهمة بسهولة . الا ان فرج كان له تفكير آخر . فقال إنه من الأفضل بذل جهد من اجل تجنيد عضوين اخرين لهذه العملية وذلك حتى يشغلوا مع عباس اماكن الغائبين الثلاثة من سرية خالد الاسلامبولى .

وفى اليوم التالى - صباح يوم الاربعاء ٣٠ سبتمبر ١٩٨١ - دق عطا طايل على باب شقة عبد الحميد . ان عطا البالغ من العمر ٢٦ عاماً كان عضواً قديماً فى تنظيم الجهاد . وبدأ تعارفه مع عبد السلام فرج ابتدءاء من مدينة مولدهما الدلنجات بمحافظة البحيرة . ان خالد الذى كان على وشك التوجه فى طريقه لمدينة نصر حيث كانت الاستعدادات للعرض العسكرى فى ذروتها - قد خشى فى البداية فتح الباب ولكن فرج الذى تعرف فوراً على صوت عطا قد لوح لخالد المتوتر بان كل شئ على ما يرام .

وقد دخل عطا وهو طويل القامة ونحيف وأنفه مقوس وشنبه خفيف ، فمنذ بدأت مطاردة اعضاء الجهاد لم ير فرج وعطا اى منهما للآخر حيث إن كل واحد منهما قد اتبع طريقه فى الخفاء بقدر استطاعته . والآن سقط عطا على رقبة فرج . وقد اندهش فرج قائلا : باسم الله كيف وصلت الى هنا ؟ وقد مسح عطا العرق من على جبينه وحاول ان يستجمع مشاعره واعترف بانه من يوم ان سمع عن اصابة فرج فى حادثة طريق ، فإنه لم يهدأ من شدة القلق . وبسبب ذلك ضحى بنفسه وخرج من مخبئه من اجل البحث عن فرج فى شقته الموجودة فى بولاق الدكرور . وهو قد طرق مرات كثيرة على باب الشقة الفارغة وعندما هم بالرحيل تم فتح الباب للشقة المقابلة لشقته والتى يقطن فيها قريب أسرة فرج . ان هذا الشخص الذى عرف عطا همس له بان فرج يختفى فى مكان ما ونصحه باللجوء الى ناصر مساعد فرج حتى يوصله اليه . وقد عمل عطا بنصيحته . فوجد ناصر وهذا بدوره ارشده الى شقة عبد الحميد .

ان عطا وفرج قد جلسا معاً على مقاعد المدرسة الثانوية بالدلنجات وكلاهما اختارا مواصلة دراسته فى الجامعة فى حرفة الهندسة . فدخل فرج كلية الهندسة جامعة القاهرة بينما انهى عطا دراسته فى قسم الالات بكلية هندسة جامعة الاسكندرية ، ثم خدم لفترة ما كضابط فى سلاح المهندسين فى الجيش المصرى ، ولدى انتهاء خدمته العسكرية انتقل للقاهرة وعمل فى مركز لتوجيه المهندسين فى حلوان فى اطار القيام بنشاط فعلى فى تنظيم الجهاد الى جانب صديق صباه عبد السلام فرج .

ان زيارة عطا طايل قد دعمت من روح المتآمرين . فقد ثبت لهم جميعاً بصورة ملموسة اكثر بان اعمالهم تحظى ببركة السماء ازاء الظهور غير المتوقع لعطا فى شقة عبد

الحميد صباح يوم الاربعاء وبالضبط فى الوقت الذى هم فيه فى حاجة لشركاء اخرين للقيام بعملية تصفية حكم الكفرة .

وفى هذه المرة ايضاً طلب فرج من خالد اطلاع عطا طايل على سر اغتيال السادات ورفاقه وفق ما فعل امس مع حسين عباس . وقد استجاب عطا بتحمس وسرور . هل لم يخرج انور السادات عن احكام دينه من لحظة الاستهزاء علانية بتغطية وجه المرأة بالحجاب ؟ الم يحدد موته فى اللحظة التى امر فيها باعتقال الوعاظ الذين يتمسكون بشريعة الله وترك الكفار يفعلون ما يحلو لهم ؟ وقد فرح عطا بهذه المعركة . تساءل قائلا : هل سيضمنوا له ايضا ان يكون وزير الداخلية « النبوى اسماعيل » موجودا فى منصة الشرف ؟ وقد طالب عطا بالانتقام شخصياً من النبوى اسماعيل الذى يتحمل شخصيا مسئولية تعذيب جسم وروح اعضاء تنظيم الجهاد الموجودين فى السجون .

وبعد ان اعرب عطا عن رغبته فى الاشتراك فى العملية ، فقد طلبوا من خالد ان يترك الشقة بسرعة وذلك حتى لا يتواجدوا معاً اكثر من المطلوب والضرورى . وقد خرج عطا طايل من شقة عبد الحميد الى مركز التوجيه والارشاد لنقابة المهندسين فى حلوان وطلب اجازة لمدة اسبوع . وسافر من هناك الى قريته الدلنجات وفى نيته العودة للقاهرة يوم السبت اى قبل العرض بثلاثة ايام .

وفى مساء يوم الاربعاء جسوا نبض بعض الشخصيات التى ترتدى الجلبات ذوى الأقنعة على الرأس والتى تبدو كالأشباح وتتخذ طريقها فى ازقة حى الالف مسكن حتى وصلت الى شقة عبد الحميد . لقد جاءوا بناء على الدعوة العاجلة لعبد السلام فرج الذى قرر بانه قد حان الوقت لاشراك اعضاء الجهاد ورؤساء الجماعات فى مصر العليا (الصعيد) على سر العملية . ورغم شكوك عبود الزمر فقد اعتقد فرج بان تصفية هيئة القيادة الكافرة فى منصة الشرف اثناء العرض العسكرى ستنجح فى اثارة الثورة الاسلامية . ولو انه لم يتم بعد تشكيل اللجان الثورية ، ولم يتم اجراء الاستعداد الكافى . واعتقد ان قوة الاضطراب ستثير ملايين المصريين على ان يتعرفوا على من يحمل مسئولية غوصهم فى الوحل والطين ومن الذى يخرجهم للنور والى الطريق السليم . انهم سيدركون بانه لن تكون هناك قائمة دون التمسك بتعاليم الله وانه ليست هناك قوانين بشرية تعلو فوق قوانين الله .

ان فرج كان فى حاجة لتأييد ومساندة امراء مصر العليا (الصعيد) ليس فقط من اجل نشر الانتفاضة فى مصر كلها بل - وربما اساسا - من اجل ان يأخذ برأى عبود الزمر بأنه لا يزال هناك شك فى احتمالات النجاح . ويبدوا انه رغم كل شئ ورغم كونهم مزودين بالفتوى التشريعية للشيخ عمر الا ان عبود الزمر يرى انه لا مجال للدراسة من جديد لقرار اتخذوه بعد فشل محاولة الاغتيال فى المنصورة - وهو التخلى « مؤقتا » عن فكرة

الثورة لفترة سنتين او ثلاث سنوات على الاقل . وفى ساعة الالتقاء تجمع الاشخاص فى شقة عبد الحميد ضابط المدفعية السابق الذى بصق على قائده الفاسق . ان كرم زهدى امير الصعيد ومساعده فؤاد الدوليبى واسامة حافظ المسئول من قبل الجماعات فى جامعة اسيوط وعصام عبد الماجد الذى يعد ايضا من الاعضاء النشطين فى جامعة اسيوط جميعهم حضروا وتجمعوا .

لقد كان اللقاء سريعاً . ان معظم الموجودين فى الحجرة كانوا ضمن قائمة المطلوب القبض عليهم من قبل قوات الامن وكان عليهم ان يرجعوا فى نفس الليلة الى الصعيد فى اطار اتخاذ وسائل الحذر الشديد حتى لا يتم اعتقالهم فى احدى المتاريس . وقد استهل فرج حديثه باستعراض قصير للاحداث فى مصر فى اعقاب عمليات الاعتقال ووصف بصورة كثيفة الوضع فى السجون واعرب عن تشاؤمه المتزايد بالنسبة لاحتمال ان يكبح الحكم جماحه عن طيب خاطر . ووصف نضال المحاربين من اجـل راية الاسلام بانها حرب حياة او موت .

ثم بعد ذلك قدم عبد السلام فرج الملازم خالد الاسلامبولى الذى جلس فى ركن الحجرة . وقال فرج بصوت مؤثر « من اعماقنا جميعا فقد اختار الله هذا الرجل من اجل اخراجنا من الظلام وانتشال مصر من عار النجاسة . وفى النهاية اطلع الحاضرين على الفتوى التشريعية للشيخ الكفيف عمر عبد الرحمن ».

ان الأمراء لم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم . فقد استجابوا برضاء طلب فرج لاعداد انفسهم للعمل فى مناطق سيطرتهم وذلك فور وصول البشرى الطيبة له بشان نجاح خالد الاسلامبولى فى العرض العسكرى . كما انهم مثل فرج ايضا يعتقدون ان عملية الاغتيال ستجر مصر الى موجة من الارتباك والتردد التى ستمكن من الاستيلاء على المؤسسات الرئيسية فى الدولة دون صعوبة . وبسبب ذلك وايضا بسبب ضيق وقتهم للعودة — فانهم لم يتحدثوا فيما بينهم حول ما يجب عمله بالضبط ، واكتفوا بان كلفوا اسامة حافظ بأن يكون حلقة الوصل بينهم وبين عبد السلام فرج بالقاهرة . كما قرروا ايضا ان اسامة سيأتى مرة اخرى للقاهرة يوم السبت قبل العرض من اجل ربط الخيوط والتاكد بان الاستعدادات الخاصة بالعملية يتم اجراؤها كما يجب .

الفصل العاشر
خمسمائة طلقة

ان التحمس العام الذى الم بمشتركى اللقاء الليلى فى شقة عبد الحميد قد انتاب على ما يبدو عبود الزمر الذى ربط نفســه بعملية تخطيط عملية الاغتيال فى العرض العسكرى . واقتنع عبود الزمر بان الموت المؤكد للاسلامبولى وزملائه خلال عملية الانقضاض يعد ضمان لذلك من انه فى حالة فشل العملية لن تؤدى اى خطوط اليه والى زملائه . ولكن اذا نجحت عملية الاغتيال فان « الجهاد » سيكون فى استطاعته – بمساعدة الجماعات الموجودة بمنطقة القاهرة والصعيد – تحقيق فكرة الثورة الاسلامية . ففى منطقة القاهرة تعمل ست جماعات فى سرية والتى تتفانى وتؤمن بافكار الثورة . ان عدد اعضائها لا يزيد عن حوالى مئة شخص وعلاقاتها مع تنظيم الجهاد كانت متداعية للغاية . وقرر عبود الزمر بانه فى هذه المرحلة لن يشرك الجماعات على سر العملية وافترض بان هؤلاء سينضموا طوعاً بعد ان تتوج عملية الاغتيال بالنجاح ، وبعد ان ينهى تنظيم الجهاد المرحلة الاولى فى خطة الثورة والسيطرة على مبنى الاذاعة والتليفزيون الموجودة على ضفة النيل .

وقد كلف عبود الزمر طبيب الاسنان محمد طارق وهو من كبار اعضاء التنظيم بتولى قيادة عملية الاذاعة وعضو اخر فى التنظيم وهو رقيب فى الجيش المصرى ويدعى صابر شمو فقد كلف بعملية امداد ٢٧ بندقية لمهاجمى المبنى . ان صابر خدم فى اسلحة كتيبة الحرس والدفاع رقم ٥٥ التابعة لوزارة الدفاع وبسبب ذلك فقد كان له القدرة على الدخول بصورة مريحة لمخزن الاسلحة .

وقد كلف عبود الزمر طارق بأن يتولى بنفسه تفاصيل الهجوم على مقر الاذاعة . وانه وفقا لتقديره فإن العملية لن تواجه صعوبات خاصة – بسبب التشويش – الذى سيسود فى اعقاب عملية الاغتيال وبفضل تأشيرات الدخول المزيفة لمبنى الاذاعة والتليفزيون التى قدمها لتنظيم الجهاد مذيع فى الاذاعة والذى اعتبر ضمن مؤيديهم . وانه عند الاستيلاء على المبنى تتطور الثورة من تلقاء نفسها . ان الجماعات الاسلامية الاخرى ستنضم اليهم وستخرج الجماهير الى الشوارع . ان عبود الزمر لم يكلف نفسه فى تخطيط الاعمال التى سيتم القيام بها بعد ذلك . لقد كرس عبود الزمر فترة كبيرة جدا لمسألة الذخيرة . لقد اعتاد ضباط الامن فى العروض السابقة التى اشترك فيها خالد التأكد من البداية بان الجنود لا يحملون معهم خزائن مشحونة بالطلقات ، ولمزيد من الامن كانوا ينزعون ابرة ضرب النار من مؤخرة البندقية من اجل ضمان أكثر لعدم إطلاق أى طلقة من الماسورة . وانه من خلال تجربة خالد فقد استفاد حينئذ عبود الزمر حيث رأى انه يجب عليه الاهتمام ليس فقط بالطلقات

من اجل ملء الخزائن بل ايضاً بإبر ضرب النار الاحتياطى . وهذه المهمة قد كلف بها ممدوح ابو جبل عقيد فى سلاح التسليح الذى كان مرشحا للعضوية فى التنظيم .

وانه وفقا لتعليمات عبود الزمر فقد تولى مسألة الحصول على الطلقات شاب يبلغ من العمر ٢٧ عاماً واسمه صالح الذى قدمه فرج لأول مرة امام خالد يوم الخيس فى شقة عبد الحميد . وانه من خلال العبارات المعدودة التى تبادلها الزمر وفرج مع الشاب فقد سمع خالد بعض الاقوال عن تاجر اسلحة بمنطقة بلبيس الذى يبيع طلقات البندقية بسعر عشرين قرشاً للواحدة وعن علب الصفيح التى يدفنها رجال التنظيم فى ارض بالقرب من الطريق الرئيسى من القاهرة للفيوم . وذكر فى نفس الحديث ان العلبة كانت تحوى خمسمائة طلقة .

ومن هنا فقد انتقل عبود الزمر وخالد الاسلامبولى لتخطيط عملية الاغتيال ذاتها . وانه عند بحثهم مسألة الاسلوب والذى سيحتل فيه عطا طايل وحسين عباس اماكن اثنين من الثلاثة الغائبين عن وحدة الملازم الاسلامبولى فقد اتفقوا على ان يقوم خالد بتزييف التسجيل فى وثائق الكتيبة بالنسبة لشخصية المنضمنين الجدد ، ثم بعد ذلك بدأ لتخطيط مرحلة الانقضاض على منصة الشرف ، ولكنهم توقفوا فجأة عندما وصلوا الى سائق السيارة النقل الذى سينقلهم الى المنصة حيث انهم توصلوا لنتيجة مفادها ان اى منهما ليس فى استطاعته ان يحتل من البداية مكان السائق الذى لم يعتبر ضمن رجالهم وحيث إنه كان واضحاً لهم بان مثل هذه الخطوة سيكون مشكوكا فيها جداً – وهما قد تخبطا فى كيفية استطاعتهما التأكد بان السائق سينفذ تعليماتهم ولن تفشل بهذه الصورة العملية كلها .

وقال عبد الحميد إنه ليس هناك ما يضمن رد فعل السائق وبناء على ذلك فقد اقترح اسكاته بسم منوم قرب بداية العرض حتى تصبح حواسه فاقدة وغامضة وحينئذ يضطر خالد الى ان يتولى فى آخر لحظة مكان السائق حتى لا يتم عرقلة طابور سيارات النقل التى تسير فى طريقها .

وقد بدت الفكرة رائعة فى نظرهما . وقد امكنهما الحصول على السم بدون صعوبة من صيدلى عضو فى التنظيم . الا انه بمرور الوقت اضطروا للتخلى عن هذه الفكرة . ففى البداية انتابهم الخوف من أن التغيير المفاجئ للسائق سيثير – رغم ذلك – شك ضباط الامن . واتضح بعد ذلك من خلال التجربة التى قام بها حسين عباس على نفسه بان السم ليس فعالاً .

وفى نهاية الامر قرروا – وفقا لنصيحة خالد الإسلامبولى – انه فى اللحظة التى تصل فيها سيارة النقل امام منصة الشرف يشد خالد فرملة اليد ويتسبب ذلك فى وقف سيارة النقل . وحيث إن سيارة النقل من المقرر ان تتحرك ببطء شديد فى طابور العرض ، فانه

يمكن الافتراض بان التوقف سيكون تاماً ، الامر الذى سيمكن حسين عباس « القناص فى هذه المجموعة » من النهوض من مقعده الخلفى بصندوق السيارة وان يطلق الطلقات الاولى صوب المنصة ، وذلك فى الوقت الذى فيه كل من خالد وعطا بالانقضاض على المنصة ويطلق سلاحهما النار بصورة جهنمية .

وحيث انه تم التوصل لحل مشكلة السائق ووقف السيارة النقل واطلاق النار منها صوب المنصة والانقضاض بصورة مشتركة ، فقد اكتفى المتآمرون بذلك وقرروا ان يتركوا لانفسهم مجالا كبيرا للمناورة والارتجال وفقا للظروف . وكان واضحاً للجميع بانه رغم ان الهدف الرئيسى هو السادات نفسه الا انهيجب ايضاً تصفية المحيطين به بقدر ما يتوافر من الذخيرة . ان اى شخص من الموجودين والمشتركين فى تخطيط العملية لم ير اى احتمال فى الهرب من المكان بعد هذه العملية ، ورغم ذلك فقد رأى فرج انه من الجدير ان يؤكد لدى مسامع خالد الاسلامبولى وفى فرصة اخرى يكرر ذلك امام عطا وحسين فتوى الشريعة للشيخ الكفيف عمر عبد الرحمن التى امتدحت المحاربين الذين يضحون بأنفسهم فى حرب من اجل الله .

وفى صباح يوم الخيس اول اكتوبر ١٩٨١ استيقظ خالد الاسلامبولى بعد ان نام ليلته فى شقة عبد الحميد . وقد نزل فى زيارة خاطفة لشقة اخته سمية فى الطابق السفلى قبل أن يتوجه الى معسكر الخيام فى مدينة نصر لمواصلة الاستعدادات للعرض العسكرى . ان والدة خالد التى نامت عند ابنتها والتى ظلت قلقة طوال الليالى من كثرة القلق على ابنها محمد فى السجن ، قد فتحت له الباب بنظرة سائلة : هل هناك جديد يا خالد » . « قريباً جداً يا امى قريباً جداً ستصل الاخبار الطيبة وبعون الله ترين محمد » . وقد اضيء وجهها : بارك الله فيك يا بنى .

« وفى تلك الاثناء » اقترح خالد على والدته قائلا : انه من الافضل ان ترجعى البيت فى نجع حمادى من اجل ان تكونى بجانب والدى وتقومى بالاعداد لعيد الأضحى فى الاسبوع القادم وقد اخرج من جيبه سبعين جنيها مصريا واعطاها لها . هذا يا امى من اجل شراء الخروف لاعداد الوليمة مثلما تعرفين . حيث ان خالد قد وعد بان يكون معهم فى هذه المناسبة . وسألت : متى ستأتى ؟ فوراً بعد العرض – وعد خالد – فوراً بعد العرض .

وفى اليوم التالى يوم الجمعة ٢ اكتوبر سارع القادة المسئولون عن العرض بانهاء الاستعدادات للعرض العسكرى والتى تقرر هذا اليوم باسرع ما يمكن . ولدى عودة خالد من مدينة نصر وجد خالد « صالح » ينتظره فى شقة عبد الحميد . فقد احضر له ٢٠٠ طلقة عيار ٧,٦٢ ميليمتر . وقد فكر خالد ووجد انه يكفى ٨١ طلقة من اجل ملء ثلاثة خزائن لبنادق الكلشنيكوف التى يحملها هو وحسين عباس وعطا طايل . ورغم ذلك فقد أخذ كل

الكمية وسلمها لعبد الحميد الذى ذهب لاخفائها فى السطوح ، وفى نفس الليلة نام خالد فى شقة اخته من اجل ان يسمح لعبد الحميد بأن يبيت فى شقة حسين عباس وعطا طايل

وفى يوم السبت جاء صالح مرة ثانيـــة وحمل معه ١٩ طلقة لرشاش « كارل جوشتف » قطرها ٩ ميلمتر واربعة قنابل دفاعية من نوع R.G.2 . وهو قد ترك اللفة على المائدة وانصرف . وعند نزوله من السطح وجد عبد الحميد خالد وعطا وحسين عباس وهم يتدربون ويتمرنون بتحمس على خطة العمل . حسين عباس يوجه العصا التى يمسكها كما لو كانت بنقديتة مصوبة نحو عطا طايل الذى تطوع – من خلال عدم الرغبة – فى ان يجسد دور الرئيس السادات عندما يطلق عليه النار من قبل حسين وهى الطلقة الأولى ينهار عطا ممسكا صدره ويتأوه من شدة الألام . فى هذه اللحظة يتقدم نحوه خالد الاسلامبولى نحو السادات – من طرف الحجرة وعلى وجهه علامات الكراهية وهو يلقى القنابل عليه وعلى الموجودين فى المنصة .

وقد وقف عبد الحميد يراقبهم فى صمت . وعندما رأوه توقفوا عن تدريباتهم كمجموعة فتيان تشعر بالخجل .

وقال عبد الحميد : الله موجود – لن اترككم تقومون بهذا العمل لوحدكم ويغمط نصيبى ودورى فى العالم الآخر – فليكن ما يكون اننى سآتى معكم » . وقال خالد بنظرات لامعة « انت اخونا وافضل منا جميعاً .

وفى يوم السبت ٣ اكتوبر وفق ما هو متفق عليه جاء ايضا اسامة حافظ من الصعيد لشقة عبد الحميد من اجل ان يتأكد انه لم يطرأ تغيير على خطة العمل . وقال ان رجاله فى اسيوط وحولها جاهزون ومستعدون وينتظرون بفارغ الصبر دورهم . وقد عانق اسامة الاربعة اشخاص بعد ان سمع بانضمام عبد الحميد وسارع بالخروج . وفى يوم الاحد ترك خالد وعباس وعطا شقة عبد الحميد ثم توجه كل واحد منهم فى طريقه بعد ان تحدثوا فيما بينهم بشأن الالتقاء مساء فى مقهى صغير فى ميدان الاسماعيلية . ثم توجه خالد لمدينة نصر وفرح ازاء اكتشافه بان غياب افراد سريته الثلاثة لم يكتشفه احد ولم يتر اى اهتمام . حيث انه اخرج من جيبه الوثيقة المزيفة بالثلاثة الغائبين وذلك فى حالة اذا طلب منه تقديم تقرير عن ذلك واثبات انه حرص على شغل حالة القوى العاملة فى وحدته . وقد مزق الوثيقة الى قطع صغيرة بعدما ثبت انه ليست هناك حاجة لها .

وبعد ذلك وجد ورقة بيضاء وكتب فيها جملة واحدة فقط : « اننى اوصى بجميع اموالى وممتلكاتى بعد وفاتى بتقسيمها بين الفقراء والمرضى والمحتاجين . ووضع الورقة فى

ظرف حرص على غلقه جيداً . وفي طريق عودته من الخيمة بالوجدة في مدينة نصر ، توقف عند اخته ودخل الى حجرة النوم ووضع الظرف على مرأي لأى شخص وخاصة فى الطريق الملائم لزوجها ممدوح (زوج سمية اخته) . ان ممدوح منكب فى الحجرة المجاورة فى اعداد الحسابات ولم يسأل خالد عن اعماله ، وقد رفع رأسه بصعوبة من اجل توديع خالد عند خروجه من الشقة بدون ابداء أى كلمة . اما اخت خالد فلم تكن موجودة فى ذلك الوقت بالبيت ، حيث كأنت قد خرجت الى محطة السكة الحديد لتوصيل امها التى كان من المقرر أن ترجع فى نفس اليوم الى نجع حمادى .

الفصل الحادى عشر

مهمة إلهية

ان النبأ القائل بان المقصلة تتأرجح فوق رأس الرئيس المصرى منذ موجة الاعتقالات فى ٣ سبتمبر كان واضحاً جيداً لانور السادات وزوجته جيهان . ان كليهما قد تحدث فى هذا الصدد بضع مرات ولكن فى تلك المحادثات - كما هو معروف - كانت هناك هوة بينهما .

ان السيدة جيهان قد انتابها القلق الشديد بينما اظهر زوجها مزيجاً غريبا من رباطة الجأش وعدم المبالاة والايمان بالقضاء والقدر ، وتجاهل تحذيرات اجهزة الامن على الاقل فيما يتعلق بمصيره . لقد كان قلقه منصباً فقط على ابناء اسرته وخاصة جيهان وابنه المحبوب جمال . وقبل استعراض ٦ اكتوبر باربعة ايام نصح السادات السيدة حرمه قائلا : من الافضل ان تقللى من الخروج من البيت وان تحدى من نشاطك بقدر ما يمكن . ان هناك خوفاً من ان عبود الزمر نفسه يحاول ان يفعل شيئا . بعد ذلك قال : « انهم لن يحاولوا الاضرار بى » حيث اننى محاط بحراسة وتأمين . ان هناك احتمالاً ان يحاولوا الاضرار بك وبجمال . وبناء على ذلك فانه يجب ان تحذرا » .

ان جيهان تخشى المتطرفين ذوى الذقون ومرتدى العممات البيضاء ولكنها كانت واثقة من انهم يرغبون فى موت زوجها وليس موتها هى .

ففى اليوم التالى لموجة الاعتقالات كانت ترجو المسئول عن تأمين حياة زوجها بان يفتح عينيه خاصة على لابسى الزى العسكرى حيث ان كل واحد منهم - هكذا قالت - يمكن أن يختفى قاتل . هل انعم الله على حرم الرئيس بحاسة التنبؤ ؟ ربما . وربما اثيرت ببساطة احاسيسها غير الواضحة بالنسبة لقاتل عسكرى نتيجة النبأ الذى ابلغته اجهزة الامن لزوجها والقائل : بأن ضابطاً من الجيش من زعمـــاء المسلمين المتطرفين واسمه عبود الزمر لا يزال منطلقا فحقيقة ان زوجها قد ذكره لها ايضا » .

وانه نتيجة خوفها المتزايـــد فقد احست جيهان بانه ليس فى استطاعتها ان تثق فى احد . حيث قالت لقائد حرس الرئاسة « انهم من شأنهم ان يخدعوا ولو حراس المنزل » وتوسلت اليه وحثته على ان يتفحص كل واحد بدقة .

ان اقوال التهدئة للقادة المسئولين عن الامن لم تجد كثيرا . ان سلامة وامن زوجها ازاء الخطر لم يمنحها الراحة . ففى احد الايام تذكرت فجأة مسألة « القميص الواقى » الذى كان موضوعاً بالمنزل كصخرة ليس لها فائدة . ان زوجها لم يرتديه على الاطلاق . وحاولتأن توضح ذلك لزوجها قائلة : يا انور حيث ان هذه القمصان الواقية موجودة فى

دولابها – لماذا لا ترتدى واحداً منها ، على الاقل عندما تسافر بالسيارات المفتوحة ؟

ابتسم السادات قائلا : يا جيهان : يا عزيزتى ان الحياة محدودة وليس فى استطاعة القمصان الواقية ان تطيلها ، وماذا سيكون قولك اذا ارتديت واحداً منها والرصاصة اصابتنى فى رأسى ؟! عندئذ اصفر وجه جيهان . ان كلماته قد جعلتها ترتعش كلما كان زوجها يتحدث عن الموت . ان السادات لم يشعر باى تراجع للانشغال بهذا الموضوع بصورة علنية وباسلوب يسبب احيانا اضطراباً لمستمعيه . لقد تذكرت جيهان اقواله عندما نصحوه مثلا بعدم السفر للقدس خشية اغتياله . فقد كان يقول « هذا مصيرى واى انسان لا يستطيع الهرب من مصيره . ان الله محدد لى ساعة موتى كما ان مكان موتى يمكن ان يكون فى القدس، فى القاهرة ، فوق كوبرى عال او تحته . وهل نحن نسينا قول الله تعالى : اينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ؟ ! .

ومنذ الحديث عن القمصان الواقية لم تكرر جيهان الحديث مع زوجها فى هذا الشأن . فبعد ان تفيض بما فى قلها امام المسئولين عن اجهزة الامن كانت تترك نفسها للقلق الذى ألم بها من الداخل وتواجه وحدها مشاعر القلق التى كانت تنتابها فجأة من حين لأخر .

اذا كان الامر كذلك فكيف حدث ما حدث فى صباح العرض العسكرى حيث كان الوضع هادئا نسبيا ؟ ان الرد يكمن على ما يبدو فى الزيارة التى قام بها زوجها قبل العرض بعشرة ايام لمنطقة الدلتا ، فقد سافر بقطار مفتوح ، الذى توقف تقريبا فى كل محطة.. وفى كل مكان جرت نحوه الجماهير واحاطت به وهتفت له وقدمت التهنئة له وصافحته . وان اى شئ لم يحدث . ولدى عودته للمنزل قال لها السادات كمنتصر : رأيت يا جيهان .. كما لو كان يريد ان يقول لها : ها انا اثبت لك انه ليست هناك ما يدعو للخوف . فلو عرفت جيهان عن نية المتطرفين المسلمين فى اغتياله اثناء الزيارة ، لكانت من المؤكد قد فقدت وعيها من شدة القلق وربما توصلت له ان يكون حذرا اثناء خروجه لحضور العرض العسكرى . ولكنه لم يحك لها عن ذلك . والان عندما مرت الزيارة لمحافظات الدلتا بسلام . فهى لا توضح انها قد بالغت قليلا فى معدلات الخطر ؟

ان قلق جيهان على حياة زوجها – خاصة ابتداء من اللحظة التى كشف فيها نفسه فى مواجهة لا يمكن تسويتها مع متعصبى الدين – كان وفقا لمعدل طبيعى جداً ، وانسانى ومفهوم . ان تصرف السادات لم يكن على هذا النحو . فهل فى الحقيقة لم يخف على حياته ولم يخش الموت ام كان قلقا داخليا وانه كان يتظاهر فقط ؟

ان الرد على هذا السؤال لن يعرف مطلقا . انه من المؤكد سيوجد من يقولون بان

الرئيس المصرى لم يخش اغتياله حيث انه يثق فى قدرة حراسه فى الدفاع عنه مضد من يتربصون به . وعلى اى حال فقد قال لجيهان : « اننى محاط بحراسة وتامين حياتى » . وسيقول آخرون : ان مصدر امان السادات كان يتمثل فى ايمانه بالقضاء والقدر حيث قال فى الحقيقة : انه ليس فى استطاعة الانسان ان يعرف ابن سيموت . وانه اذا ارتدى القميص الواقى ، فانه من شأن الرصاصة القاتلة ان تصيب رأسه » . ولكن من المحتمل انه كان هناك تفسير مختلف قليلا لتجاهل السادات المتعنت لتحذيرات اجهزة الامن التى ادهشت الكثيرين من العاملين معه .

لقد أدرك وفهم السادات انهم يحاولون اغتياله ويرغبون فى القضاء عليه . وفى مقابل ذلك فقد انتابه احساس - بوحى من السماء اقوى عشر مرات من اى منطق - وصوت داخلى يقول له بانه « ليس هناك ما يدعو للخوف ، ان عبدى السادات قد اخترته لجلب الخير الى هذا الشعب والى الانسانية كلها وان اى رصاصة للاغتيال لن يتحقق طلما انك تؤدى بايمان المهمة التى كلفتك بها » .

ان الايمان بان الله قد اختاره ذاته لتأدية مهمة على الارض قد واكب انور السادات لفترة طويلة فى حياته ولكن هذا الحساس قد قوى خاصة منذ تعيينه رئيسا لمصر فى خريف ١٩٧٠ وبصورة اكثر منذ زيارته للقدس فى نوفمبر ١٩٧٧ . ان الاحسان بانه يؤدى مهمة يكلفه بها الله لتحقيق السلام العالمى وفرض مبادئ الحب والعدل والتفاهم بين البشر قد امتزج لديه بمرور الوقت باحساس ظريف لا يقلل من عملية التقرب بينه وبين الله وهو يشبه « حواراً » مستمراً الذى من خلاله كان يستمد التفويض الالهى لسياسته وعدله على وجه الارض .

والحقيقة ان معظم القرارات المصيرية التى اتخذها فى سنوات حكمه مثل طرد السوفييت من مصر فى صيف ١٩٧٢ او خوض حرب اكتوبر فى ١٩٧٣ قد اتضح انها سليمة وفعالة - الامر الذى دعم لدى السادات الاحساس بالرسالة السماوية . ان القرارات التى اتخذها بوحى سماوى ، مضمون لها ان تتوج بالنجاح وتجعله يحظى بتأييد الشعب المصرى والعالم كله .

وعندما طُلب من السادات ان يوضح مسألة قراره باستضافة الشاه المعزول والذى يحتضر - وهو شاه ايران السابق لمصر - قال ان الله قد اعطاه الحق والفرصة لرعاية الشاه فى ايامه الاخيرة . وقال ان هذا يعد انجازا روحياً كبيراً حيث ان الله اختارنى لعمل ذلك واعطى الشاه القدرة على ان يعبر عنى بهذه الطريقة : وبهذه الصورة حظيت ايضا بتأييد شعبى .

ان احساس السادات - وخاصة فى سنواته الاخيرة - بان الله قد اختاره لتادية رسالة

مقدسة قد زود ميله للتعاطف مع ابطال دينيين فى الاسلام واليهودية .

ان القاسم المشترك لهم جميعا والذين حظوا بهذا الاحساس مع ربهم : اشخاص مثل موسى وابراهيم ومحمد الذين اجروا حواراً مباشراً مع الله وبسبب ذلك كانوا يحظون بتقدير وحب شعبهم . فقد كان فى استطاعتهم التكهن بالمستقبل واحداث ثورات وتحولات كبيرة فى تاريخ البشرية والعمل وفقا لتعاليم الله . انه من بين جميع رجال الله المقدسين فقد اعتبر انور السادات نفسه مخولا من الله وينعكس هذا الامر فى شخصية يوسف رجل الاحلام : ان سورة يوسف كانت احب سورة له من بين جميع السور فى القرآن الكريم .

لقد عرف يوسف ان يفسر الاحلام وان يرى المستقبل . ان يوسف قد تم سجنه واهمله اخوته وكان ضحية للمشاكل والحق والغيرة . ورغم ذلك استمر يرى نفسه فى احلامه كمختار وفريد .

ان وضع السادات مثل يوسف الصديق فقد احاط الظلام به فى شبابه . كما انه كان – فى فترات كثيرة من حياته – بعيدا عن اى شخص فقد وقع فى المصيدة التى بدا انه لن يكون من الممكن الخلاص منها ولهذا فقد مكث لفترة ما بين جدران السجن . وبالرغم من ذلك نجح فى النهاية فى التغلب على حالته الضائعة والخروج من الظلام الى النور وان يعلو بدرجة كبيرة . انه ازاء المعاناة الكبيرة التى تحملها فى شبابه فقد كافأه الله بان منحه منصب حاكم مصر ونبى السنوات الطيبة « والثمينة » وقائد مسيرة الاقتصاد المصرى .

اضف الى ذلك : اليس هو السادات بمبادرته السلمية قد مضى فى طريق يوسف من خلال استعداده لمنح الامن والحماية لشعب اسرائيل ؟

هكذا كان ايمان السادات قويا بالمهمة السماوية التى كُلف بها حتى لم يعد يخشى الموت . فالموت سيأتى بالفعل لا محالة – ولا يمكن تأجيله – ولكن مجيئه يعنى نهاية المهمة السماوية . فطالما يريد الله ان تستمر الرسالة المقدسة ، فان الذين يطاردوه لن ينجحوا . وآمن السادات بانه ليس هناك ما يدعوه للخوف وقال : انه طالما يؤدى المهمة المقدسة ، فانه محمى من اى ضرر . هل شعر السادات بان المهمة تقترب من نهايتها ؟ انه وفقا لشهادة حرمه جيهان الذى تحدث معها زوجها فى هذا الموضوع ذات مرة وهى المرة الوحيدة فى الشهر الاخير من حياته واثناء جولته اليومية فى حديقة المنزل حيث قال لها : اننى انهيت رسالتى واننى اشعر باننى سأقابل ربى » .

ان جيهان التى ارتعشت جميعها قد حاولت ان تحول كلامه الى نكتة : اننى لا اعتقد ان الله يبلغ اى شخص بانه سيقابله ويحدد له موعداً للحديث » . الا ان السادات اصر على رأيه قائلا : اننى اعلم ان الله لا يبلغ انسانا بانه سيقابله ورغم ذلك فاننى احس بذلك .

اننى احس بذلك يا جيهان . من هنا فانه من السهل فهم انه – من خلال وجهة نظر السادات – فانه لم يكن هناك اى معنى لاتخاذ وسائل حذر للدفاع عن حياته . حيث ان المقصود هو ام الله الذى لا يمكن الغاؤه . ولكن رغم ذلك استمر يتصرف كما لو كان لا يزال الطريق أمامه طويلاً .. فقبل العرض العسكرى بيوم واحد اجرى حديثا لمدة ساعتين مع حسين عثمان المسئول عن تنفيذ خطته ومشروع استصلاح الاراضى بمنطقة الصالحية حيث قال له السادات : ى« يا حسين انت ستكون مسئولاً عن الاراضى الواقعة شرق الدلتا بنفس درجة نائب رئيس الوزراء ، ان جميع التسهيلات المطلوبة وجميع الامكانيات ستكون تحت امرك . هذا يعنى زراعة مليون فدان من بورسعيد حتى الصالحية والسويس وسيناء . وبهذه الصورة يمكننا وقف استيراد المواد الغذائية لبلدنا والحفاظ على فائض العملة الصعبة الموجود لدينا . ثم بعد ذلك قال بنغمة مرحة « انه فى يناير ١٩٨٣ سأتى بنفسى لزيارة الصالحية من اجل ان اخبر العالم كله بشان الانتهاء من استصلاح خمسين الف فدان .

فى تلك الاثناء فقد كان على وشك ان ينهى مهمة مقدسة لا تقل عن ذلك وهى فى متناول اليد : ففى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ ستعود سيناء كلها للمصريين . ان الله الذى هداه بحكمته ان يتولى مهمة استرجاع ارض مصر من ايدى اليهود لن يقف الان فى طريقه للاحتفال بهذا الحدث الهام . ان مثل هذا الحدث سيرغم ناقديه الكبار فى العالم العربى على الاعتراف بخطأهم وتمنى ان يحدث ذلك لهم . ان انور السادات ببساطة لم يتصور بان المهمة المقدسة ستنتهى قبل ان يبدأ اسبوع الاحتفالات واطلاق الالعاب النارية بمناسبة ذكرى اليوم العظيم الذى انتظره وهو ٢٥ ابريل .

الفصل الثاني عشر : قنابل تحت المقعد

وقفز خالد من شقة اخته وصعد الى شقة عبد الحميد وسحب الذخيرة والقنابل من السقف بسرعه ووضعها فى حقيبة يده الصغيره السامسونيت ذات الارقام السريه . وانتظر عبد الحميد بأناه الى ان فرغ خالد من هذه المهمه ثم نزل الاثنان واستقلا سياره عبد الحميد من طراز « فيات ١٢٤ » المستعملة والتى طمست بقع الصدأ لونها الاصلى .

واستغرقت المسافه من المقهى الصغير بميدان الاسماعيليه عبر حوارى حى الالف مسكن المظلمه وشوارع هليوبوليس الفسيحه والمضاءه ، حوالى ربع ساعه . وكان ينتظرهما بالمقهى عطاطايل وحسين عباس وهما يرتديان الزى العسكرى الكاكى الفاتح وقد بدا عليهما السرور وعلت وجهيهما الابتسامه كما لو كانا قد منحا اجازه من وحدتيهما لبضع ساعات وفضلا قضاءها بالقرب من معسكريهما بدلا من الذهاب الى المدينه الكبيره .

اوقف عبد الحميد سيارته بالقرب من المقهى وانزل خالداً ثم واصل طريقه من هناك الى منزل اصدقائه كى يحلق ذقنه ويرتدى الزى العسكرى . وقد فضل عبد الحميد تغيير مظهره فى هذا المكان خوفا من مراقبه اجهزة الأمن لمنزله بالالف مسكن الذى كان مفعما بالنشاط الأمر الذى قد يدهش المراقبين السريين الذى يتابعونه ويرصدون تحركاته .

ومرت ساعتان الى ان عاد عبد الحميد الى رفاقه فى مقهى ميدان الاسماعيليه وقد بدا على صاحب المقهى الضيق والتبرم لأنه كان يريد اغلاق المقهى . ودخل الاربعه سيارة عبد الحميد . وكان خالد هو الذى يقود السيارة فى هذه المره . وقاد خالد السيارة الى مدينة نصر حيث اوقفها بالقرب من الاستاد والملاعب الرياضية التى نصبت فيها الاف الخيام لبيبت فيها المشتركون فى العرض . كانت المنطقه ، لاسيما مجموعات مبانى « العرايس » الكبيرة - وهى المبانى المخصصة لسكن الضباط حديثى الزواج - يغلفها الظلام ولم يكن هناك مكان مضاء سوى الاستاد حيث كان مضاء بأضواء صفراء اللون كبيرة . وداخل بحر الخيام كان العسكريون يتدافعون ويتوافدون ليناموا ليلتهم داخل هذه الخيام . وكانت هناك كشافات صغيرة تبدو كقطع الفحم المتوهجة تبرز داخل الخيام . وكانت مجموعات الجنود تتجمع هنا وهناك حول المشاعل التى كان يشعلها الجنود لتخفيف حدة برد هذه الليلة .

/ نزل عطا وعباس وعبد الحميد من السيارة على بعد بضعة أمتار من الاستاد من خيمة جناح سلاح المدفعية رقم ٣٣٣ - جناح خالد الاسلامبولى . واخذوا يتقدمون - كما اتفق - فى الاتجاه العام للخيمة التى اشار اليها خالد بيده لهم قبل ان يبتعد عن المكان بسيارته . وتوقفوا مره أو مرتين لكى يسألوا عن مكان الخيمة الدقيق .

وتمكن خالد الاسلامبولى من « ركن سيارته » بينما كانوا يتحسسون طريقهم ببطء كيلا يتعثروا بين الاحبال التى كانت تربط بين كل خيمه وأخرى . وعبر بسرعة المسافة التى تفصل بين ساحة انتظار السيارات وبين الخيمة التى اقيمت لاستعماله ودخل الخيمه واخرج القنابل من الحقيبة واخفاها فى عمق جيوب حزامه ثم اغلق الحقيبة بعد ذلك على الذخيرة الموجودة داخلها ووضعها تحت سريره .

كان افراد كتيبة جناح سلاح المدفعية مشغولين هم الآخرون بالاعداد لمكان النوم حينما برز إليهم فجأة من الظلام ثلاثة جنود مجهولين يسألون عن الملازم خالد الاسلامبولى .

ـ وعلى الفور وجه اليهم سؤال بسيط بلهجة عصبية ـ « من اين انتم ؟ »

– وكان المتحدث عبد الحميد . فذكر رقم لواء مدفعية آخر . وقال : « نحن من هناك » . « لا أعرف ... لقد طلبوا الينا المثول هنا امام الملازم الاسلامبولى ... ويبدو لى أنهم قالوا انه ينقصكم افراد وان علينا ان نحل محلهم ... » . ومن صوت عبد الحميد كان يمكن ان يفهم ان عملية « النقل » هذه لم تكن على هواهم ، وعلى ايه حال فقد آثر هو ورفاقه ان يتدثروا الآن بالبطاطين الدافئة .

وكان الملازم خالد الاسلامبولى يستمع لاصوات رفاقه خارج الخيمة وفى اللحظة المناسبة خرج « بالصدفه » ليستنشق الهواء الطلق . وتساءل : « ماذا يفعل هؤلاء الثلاثة هنا ؟ » ويبدو ان اعضاء السرية فرحوا بأنهم سوف يتخلصون من الازمة الجديدة فأجابوه : « إنهم يبحثون عنك سيدى القائد » .

وضحك الاسلامبولى ساخرا . ثم قال لهم موجها لهم اللوم وبشئ من الغضب « الم يمكنكم ان تأتوا مبكرين بعض الوقت ؟ » . واعتذر الثلاثه عن تأخرهم فى المجئ ثم امرهم : « والآن اذهبوا لتناموا وصباح غدٍ سننظر ماذا نفعل » . ثم اشار لهم الى بعض الخيام المطويه المكدسة بالقرب من الخيمة وامرهم بنصب خيمة لهم ليقضوا ليلتهم فيها . واكتفى الثلاثة بافتراش قماش الخيمة على الارض مؤجلين نصبها الى الغد . ثم راحوا فى نوم عميق خلال بضعة ثوانى .

وفى صباح اليوم التالى ، الخامس من اكتوبر ١٩٨١ ، عندما استيقظت الخلية الضخمة بمدينة مصر استعدادا لإجراء البروفه العامة للعرض العسكرى ووجه للثلاثة « الخلفاء » عمل بالسريه . فأمر خالد عبد الحميد بحراسة الخيمة التى يقيم فيها ـ والتى اخفى فيها الحقيبة « السامسونيت » . اما حسين عباس فعينه جندى « مراسله » شخصى له فى الكتيبه فى حين الحق عطاطايل بأفراد السريه المكلفين بتنظيف المكان وغسل

المركبات وتلميع المدافع المجرورة .

وقام الاسلامبولى فى هذا الصباح بتقسيم جنود سريته الى اربعة اطقم طبقا لسيارات اللورى الأربعة (من مجموع سيارات اللورى الأثنتى عشر المخصصة للسرية) التى تخضع لمسؤوليته . وبالطبع ضم عبد الحميد وعباس وعطا الى الطاقم الأول تحت قيادة الملازم الاسلامبولى المباشره . وقبل أن تتوجه السرية للاشتراك فى البروفه العامة للعرض العام ـ امر خالد بجمع الاسلحة من جميع الجنود ووضعها جميعا فى خيمه خاصه . واشفق جنود السرية الذين اخذوا فى تسلق سيارات اللورى بعد تسليم اسلحتهم بنظراتهم على الثلاثة الجدد الذين لم ينضموا الى الوحدة سوى امس فقط ـ ولم « ينالوا شرف » الاشتراك فى البروفه العامه بل امروا بحراسة خيمة السلاح والقيام بعزل السحابات من البنادق حسب تعليمات الأمن .

لم يذق المتآمرون الأربعة طعم النوم فى ليلة الخامس والسادس من اكتوبر . ففى الثانية صباحا نفض خالد البطاطين من فوقه ورفع الحقيبة من فوق الأرض ووضعها على السرير ، ثم نقل طلقات الرصاص التى كانت موجودة بداخلها الى كيس من القماش أخفاه فى كتف سترته ، ثم ذهب مسرعا بعد ذلك الى خيمة السلاح . وكان كل منهم يطل من الخيمة بين الحين والآخر لكى يتأكدوا من أن أحدا لا يراقبهم . ولم يكن هناك مجال كبير للقلق ، ذلك أن المعسكر كان لا يزال غارقا فى سبات عميق . وكان عطا وحسين عباس اول من فرغا من تعبئة خزنات الكلاشينكوف ، وقد وضعا بكل خزنة ٢٧ طلقة ، بينما وضع عبد الحميد بخزنته ٣٢ طلقة . وفيما هم يعبئون خزانات اسلحتهم ، تمكن خالد من وضع ١٩ طلقة فى الخزنه الاحتياطية للرشاش « كارل جوستاف » المخصص لاستعمال قائد السيارة اللورى . ولم يستغرق هذا العمل سوى دقائق معدودة لبعد اعادة السحابات الى البنادق التى كانت قد سحبت منها بالامس . وادخلت الخزانات المعبأة الى رشاشات الكلاشينكوف، ومرة أخرى لم يعد هناك فارق ظاهر بين البنادق المعبأه بالذخيرة الحية وبين بنادق بقية الجنود فى خيمة السلاح . واخرج خالد من جيبه قصاصات قماشيه وأخذ يدسها فى فوهات البنادق المعبأة بالذخيرة لكى يمكن تحديدها وتمييزها بسهوله عن البنادق الفارغة ، وأخذ معه خزنة الكارل جوستاف المعبأة ، ثم خرج الاربعة من الخيمة . وعاد الحراس الى حراستهم ومزاولة اعمالهم بينما دلف خالد الى خيمته .

وفى الثالثة صباحا نهضت الكتيبة كلها من نومها . واخذ البعض يغتسل والآخر يحلق ذقنه وتناولوا وجبة الافطار « الليلية » ثم أخذ الجنود يطوون خيامهم بعد ذلك وفى السادسة أمر خالد « الحراس » بتوزيع الأسلحة الشخصية على الجنود ، وفى السادسة والنصف ـ وبعد عودته من مقر قيادة الكتيبة ـ علم ان سيارات كتيبة سلاح المدفعية البالغ

عددها اثنتى عشرة سيارة لورى (من طراز كراز) - والتى تجر وراءها مدافع عيار ١٣٠ م صناعة كوريا الشمالية - سوف تسير فى طابور العرض فى ثلاثة صفوف يضم كل صف اربع سيارات . وقد خصص الصف الثانى لسرية الاسلامبولى . وجمع طاقمه فى السيارة التى ستقع اقصى اليمين والتى ستكون قريبة جدا من منصة الشرف . وكان كل طاقم يضم عشرة اشخاص : قائد الطاقم وسائق بكابينة السيارة وثمانية افراد بالخلف - على متنها المكشوف كل اربعة يجلسون فى مقعد مواجه للمقعد الآخر . وعندما قفزوا الى ظهر السيارة اللورى جلس عبد الحميد فى المقعد اليسارى وظهره الى السيارات الثلاث الباقية ، فى حين جلس عطا طايل وحسين عباس فى المقعد الايمن - الذى سيكون قريبا جدا من المنصة - وظهرهم الى المنصة . وجلس طايل وعباس فى طرفى المقعد يفصل بينهما جنديان من طاقم السيارة الأصلى .

وقد صممت هذه الجلسه لكى يتمكن حسين عباس - وهو القناص الوحيد بالمجموعة - من توجيه نيرانه من السيارة اللورى الى المنصة بمجرد أن يلتفت ناحيتها . ولو أنه جلس فى مواجهة المنصة فى المقعد الأبعد لكان سيضطر الى اطلاق النار من فوق رؤوس رفاقه ومن مسافة أكبر .

واحتل خالد مكانه بالقرب من السائق ، وقد أخفى خزينة الكارل جوستاف المعبأة بالرصاص بطريقة جيدة فى جيبه ، بينما وضع الحزام وداخله القنابل تحت المقعد ، ثم أمر السائق : « استعد للتحرك ! »

وفى السابعة صباحا أخذت سيارات الكتيبة تتحرك ببطء الى منطقة مرابطة الجناح لكى تحتل مكانها بين أرتال سيارات سلاح المدفعية . وهناك اضطرت الى الانتظار لمدة أربع ساعات فى الشمس المحرقة . وامر الملازم خالد الاسلامبولى الأطقم باستغلال الوقت فى تلميع وتنظيف مركباتهم والمدافع الجرارة مرة أخرى ، وفى تحسين مظهرهم الشخصى . وعندما توجه الجنود لأعمالهم أرسل الاسلامبولى أيضا سائق السيارة ليشترى له طعاما وشرابا من أحد الاكشاك التى كانت موزعة بالمنطقه . واستغل هذه الفترة القصيرة لكى يستدعى عبد الحميد وعطا طايل الى كابينة القياده . فسلم الأول قنبلتين ، اسرع عبد الحميد باخفائهما فى جيوبه وسلم قنبلة أخرى الى عطا طايل حيث فعل مثلما فعل زميله . بعد ذلك اخذ رشاش السائق « الكارل جوستاف » واستبدل خزنته الفارغه بالخزنة المعبأة بطلقات الرصاص بينما وضع الخزنة الفارغة تحت المقعد .

وقبيل الساعه الحادية عشرة تحركت سيارات كتيبة سلاح المدفعية من منطقة مرابطتها ، واحتلت مكانها فى رتل سيارات العرض التى تهيأت حاليا فى خط الانطلاق . وسرح خالد بخاطره وبدا مطمئنا ، فقد مرت المرحلة الاولى بلا أية مشاكل وبسهولة مذهله . إذ إن احدا

لم يلتفت الى المنضمين الجدد ولم يكلف نفسه بفحص أوراقهم وهوياتهم ، التى سارع خالد – كما تقدم – بإحراقها بعد أن اقتنع بأن أحدا لن يحتاج لها . كذلك لم يقم ضباط أمن الوحدات بتفتيش متعلقات الجنود الذين سيشتركون فى العرض لكى يتأكدوا من أنهم لا يحملون ذخيره ، ولم يفحصوا البنادق لكى يتأكدوا من سحب السحابات منها . كذلك لم يهتم قائد الكتيبه الذى أصدر تعليماته الى قادة السرايا – ومن بينهم خالد الاسلامبولى – بالحرص على تنفيذ تعليمات الأمن – لم يهتم بسؤالهم عما إذا كانوا قد عملوا بهذه التعليمات .

ولم يفاجأ خالد . لقد اطمأن وعلم أنه ليس هناك ما يمكن أن يخشاه من خلال خبرته بالعرضين السابقين . وألقى نظرة أخيره على الجنود بعد أن فرغوا من أعمالهم وأخذوا يقفزون فوق السيارة .

وفجأه مزق سكون المنطقه ضجيج إحدى الدراجات البخارية الذى صم الآذان . وتوجه الجميع بأبصارهم الى ضابط الحرس الجمهورى الذى وصل منقضا واوقف دراجته البخارية امام سيارة خالد . وتوقفت انفاس الملازم خالد ، وتجمد عطا وحسين عباس وعبد الحميد فى أماكنهم .

وأطفأ الضابط محرك دراجته وأشار الى ثلاثة جنود من طاقم السيارة المجاورة لسيارة الاسلامبولى . وصاح فيهم : « تعالوا بأسلحتكم » . ونفذ الثلاثة الأمر . ثم أمرهم : « افرغوا خزنات السلاح ! » . ونظر الضابط من مكانه فوق الدراجة الى خزنات السلاح ثم أدار محرك الدراجة مرة أخرى ومضى . وسأل خالد : « ايه الحكايه ؟ » فأجابه ضابط الدراجة : مبتسما : « تفتيش عادى ..كله تمام . استمروا كالمعتاد » . واستدار بدراجته واختفى من هناك مخلفا وراءه سحابا كثيفا من الدخان .

وعادت الدماء تتحرك فى عروق المتآمرين الأربعة وعاد اللون الى وجوههم . ومن مكان بعيد أخذت تنطلق اصوات المؤذن داعيا لصلاة الظهر . وبعد دقائق معدودة سيصدر الأمر بالتحرك وسيتحرك الى الأمام رتل سلاح المشاه والمدرعات ، الذى تبدأ مقدمته من خط التحرك والانطلاق الذى يبعد مسافة مئات الآمتار فقط عن منصة الشرف ، وتنتهى مؤخرته بالقرب من مساكن الضباط .

قالت جيهان السادات لحفيدتها صباح يوم الثلاثاء : « اذهبى وأيقظى جدك فاليوم العرض العسكرى » . وكان السادات معتادا على النهوض من نومه فى الايام العادية فيما بين التاسعة والنصف الى العاشرة صباحا ، وهو لم يتأخر عن المعاد الذى اعتادت فيه مصر كلها على النهوض من نومها صباح كل يوم جديد . إلا أن السادس من اكتوبر ليس كأى يوم ، حيث ينبغى التبكير بالنهوض من النوم استعدادا للاحتفال الكبير . ولم يكن العرض العسكرى فى هذا العام يقام احتفالا فقط بمرور ثمانى سنوات على عبور الجيش المصرى قناة السويس ، ولكن ايضا بمناسبة قرب الموعد الذى سيكون معلما فى تاريخ أنور السادات السياسى . ففى الخامس والعشرين من ابريل ١٩٨٢ سوف تستعيد مصر « آخر شبر من أرض سيناء » وقد نجح الكتاب والصحفيون المصريون النشطاء فى ان يعزوا الاستعادة المرتقبة لبقية سيناء لانجازات الجيش المصرى فى حرب اكتوبر ، وبخاصة لاتفاقية السلام التى وقعتها مصر مع إسرائيل وذلك للربط بين الحدثين . إن الجيش المصرى ـ الذى يوم عيده اليوم وانور السادات قائده الاعلى ـ هو الذى يقف وراء انتصارات مصر فى الحرب وفى السلام ايضا .

كان السادات ينام نوما عميقا عندما دخلت ياسمين الصغيرة ابنة جمال السادات غرفته على أطراف أصابعها لتوقظه من نومه ، وقد تسلقت السرير وأخذت تداعب طرف شاربه إلى أن استيقظ « جدو » كما قالت الصغيرة وأضافت « قم بسرعة وإلا لم يسر الجيش » .

إن تواجد ياسمين فى بيت الجد فى هذا الوقت المبكر لم يكن مصادفة . وكان هناك أحفاد آخرون بالغرف المجاورة . فقد تجمعوا وجاءوا الى البيت فى مساء الليلة السابقة استجابة لطلب الجد انور .

وقد تحدث مع جيهان عن العرض فى بداية هذا الاسبوع . وقال لها : « أريدك أن تصحبى معك هذه المرة شريف . لقد ربيته وأريدة ان اراه رجلا » وكان شريف البالغ من العمر خمسة اعوام هو أحب أحفاد السادات إليه ، وقد اعتاد ان يصحبه معه فى مناسبات مختلفة : كالصلاة فى المسجد او فى حفل انتهاء عمليات توسيع قطاع جديد فى قناة السويس . وسألت جيهان السادات عما سيحدث مع الأحفاد الآخرين .. فقال لها : « ليأتوا جميعا إننى متأكد انهم سيسعدون واسيفرحون . ومن ثم فقد تجمع الأحفاد فى البيت الكبير بالجيزة فى ليلة العرض . وبعد ان أرسلت ياسمين لتوقظ زوجها من نومه أحست جيهان بالانقباض . وبسرعة تعكر صفوها بلا اى سبب واضح . وقررت فجأة عدم مشاهدة العرض من المقصورة العالية المخصص لها وراء منصة الشرف . فهى لم تحب قط مشاهدة

العروض الصاخبة ولا التجمهرات المزدحمة .

وحاولت التخلص من حالة الضيق والانقباض الغريبة التى اجتاحتها لبضعة دقائق ، ولكن بلا جدوى وفى النهاية اتصلت بالضابط المكلف بمرافقتها الى المنصة ، وقالت بصوت هادئ : « صباح الخير ، اتصل بك لكى اوفر عليك عناء المجئ إلى هنا . فقد قررت البقاء بالمنزل ومشاهدة الحفل بالتليفزيون . واعتقد ان ذلك سيريحنا جميعا » . وعلى الجانب الآخر : كان هناك صمتا . فقد فوجئ الضابط فى الواقع بهذا . وفى أقل من الثانية قال الضابط: « لا تتضايقى سيدتى . ولكن يوم السادس من اكتوبر هو يوم « الريس » ويومك أيضا سيدتى ... » وقالت جيهان : « إننى لا أحب العروض العسكرية » . وأصر الضابط : « لكن هذا اليوم هو اهم يوم فى حياتنا ، سيدتى » . وادركت انه محق وتنازلت عن موقفها وقالت : « او.كى ، سآتى » . واصبح عليها الآن ان تسارع لتعويض التأخير الذى سببه ترددها . واصبح عليها ان ترتدى ملابسها بسرعة وأن تعد الأحفاد وتبكر بمغادرة المنزل قبل ان يغادره زوجها . ولذا سارعت لتدبر امورها فى عجالة ، ولم تتمكن حتى من الدخول الى غرفته لكى تطمئن إن كان فى حاجة إلى شئ ما . لقد كانت تدرك انه من الممكن الاعتماد على فوزى عبد الحافظ سكرتير الرئيس المخلص فى الاهتمام باحتياجاته . وقال فوزى لدى دخوله غرفة الرئيس : « صباح الخير سيدى الرئيس » . ورد السادات « صباح الخير يافوزى » وكان مزاج السادات جيدا . فقد كانت ياسمين سببا فى ذلك . ولم يحد فوزى فى هذا اليوم عن عادته التى يتبعها فى كل أيام السنة . فقد اعتاد أن « يشغل » التسجيل الموجود بالقرب من سرير الرئيس قبل أن ينهض منه وهو يزيح ستائر الغرفة ليسمعه ايات القرآن بصوت الشيخ محمد رفعت الذى كان يحبه .

وعندما فرغ الشيخ من تلاوة آيات القرآن نهض السادات من سريره ليصلى صلاة الصبح . فى ذلك الوقت كان عبد الحافظ قد اعد افطاره البسيط المكون من فنجان شاى وقطعتى بسكويت. وسأل السادات سكرتيره وهو متدثرا بمعطفه « أخبارك إيه يافوزى ؟ » اى هل هناك جديد؟.. ثم اتبعه مبتسما بسؤال آخر: « هل سينظم العرض »؟ وأجابه فوزى « سينظم سيدى ؟ لقد اتصلوا بنا من وزارة الدفاع واخبرونا بأن كل الاستعدادات قد اكتملت » . وكان السادات سعيدا . وقال لفوزى: « حسنا ـ تعالى لننتهى من الأمور الأخرى ، ووضع فوزى على المنضدة « رزمة » من البرقيات والوثائق الخاصة بالأمور السياسية والاقتصادية وقلب فيها السادات بسرعة ثم ذيل بتوقيعه ما كان محتاجا منها إلى توقيع . وقال السادات: « والآن دعنى انظر ماذا ينتظرنى اليوم » وعرض فوزى عليه برنامج اليوم . فبعد هنيهة ، أى فى التاسعة وخمس وأربعين دقيقة (٩.٤٥) تقريبا سوف يصل إلى

المنزل نائب الرئيس حسنى مبارك ووزير الدفاع الجنرال عبد الحليم أبو غزاله ليرافقه إلى مقر القوات المسلحة فى وزارة الدفاع . وفى الحادية عشرة سيتوجه الثلاثة من المقر الى مدينة لمشاهدة العرض العسكرى . وقبل بدء العرض ببضعة دقائق سينزل السادات من المنصة ليضع اكليلا من الزهور على قبر الجندى المجهول الذى يقع أمام المنصة . وقال السادات لفوزى : « هل تتذكر يا فوزى اننى تعودت الذهاب الى قبر عاطف فور انتهاء العرض ... » وعاطف هو اخ غير شقيق لانور السادات وكان طيارا بالسلاح الجوى الذى قتل فى الساعات الاولى من حرب اكتوبر عند سقوط طائرته ، وقد دفن فى مسقط رأسه بقرية ميت ابو الكوم وقد اعتاد السادات الذهاب الى ميت ابو الكــوم لقراءة « الفاتحة » على روحه (سورة فاتحة القرآن) على قبر اخيه . ورد عليه فوزى : « لقد اهتممنا بذلك يا سيدى . فالطائرة الهليوكبتر سوف تنتظر خلف المنصة » .

– وماذا عن بقية الاسبوع ؟ .

أجاب فوزى : « الجدول مزدحم . لأن سيدى يريد التوجه فى نهاية الاسبوع الى سيناء للاحتفال بعيد الاضحى » . فبناء على تعليمات الرئيس المصرى تم إنشاء عدة اكواخ اسفل جبل موسى بوادى الراحة لكى يتمكن من الاعتكاف هناك ، وقال السادات « مفيش راحة إلا فى وادى الراحة » ومعناها : « ليس هناك راحة الا فى وادى الهدوء والراحة » والآن يا فوزى تعالى ساعدنى فى ارتداء ملابسى » .

لقد أحب السادات الزى العسكرى ، فقد كتب فى مذكراته ان زى الجيش الالمانى فى الحرب العالمية الثانية كان يستهويه ويعجبه . وقد بلغ اعجابه بالزى العسكرى الالمانى الى حد أنه أمر يوما ما باستبدال خوذات حرس الشرف الذى يتبع الحرس الجمهورى باخرى مماثلة تمام لقبعات الجيش الالمانى الفولاذية ، وكان الفرق الوحيد بينهم هو النسر المصرى الذى طبع على الجزء الامامى من الخوذة .

والآن استعان السادات بفوزى ليلبسه ملابس القائد الاعلى للجيش المصرى التى شارك بنفسه فى تصميمها . فالسترة ذات اللون الازرق الفاتح المائل للسواد وصلت من خياط فى لندن منذ بضعة ايام فقط .

وقد بدأ السادات بارتداء البنطلون – ثم بالحذاء الجلدى الاسود اللامع ذى حليتين فضيتين براقتين . ثم لبس اخيرا الجزء العلوى من السترة . كانت طيات الياقة كمستطيلين صلبين مزركشتين بنسيج احمر وقد جدلت بها خيوط حمراء على هيئة زهرة اللوتس : رمز مصر الفرعونية . وفى ملتقى طيتى الياقة تدلت من عنقه « نجمة سيناء » وهو ارفع وسام لحرب اكتوبر . وكان هذا الوسام قد منح فى الحقيقة لاخ السادات غير الشقيق عاطف بعد

موته . وكان السادات قد اعتاد فى البداية التحلى بها علانية تكريما لذكرى اخيه إلا ان النيشان سرعان ما أصبح لازمة ثابتة فى ملابسه العسكرية . وكان لون النجمة هو اللون الاسود وكانت اضلعها مذهبة . وفوق كتفيه برزت رتبة القائد الاعلى وقد طرزت هى الخرى بخيوط ذهبية . وفوق جيب السترة اليسارى - فوق قلب الريس - علقت ثمانية صفوف من الشارات الحربية وشارات التميز والتفوق .

وبعد مساعدة الرئيس فى توثيق أزرار السترة سحب فوزى « شارة القضاء » - وهى عبارة عن شريط قماش اخضر اللون وعريض ، وقد زين منتصفه بإحدى عشرة نجمة ونسر ذهبى وألصقه بشكل مائل بالسترة ناحية الكتف اليمنى وادخله تحت ابطه وحتى خاصرته اليسرى . وحينما تأكد ان الشريط قد ثبت بشـــكل جيد ربط حول خصر الرئيس حزاما ذا « أبزيم » براق ، وكان الحزام فى شكل خطين صفراوى اللون وشريط اسود بينهما . ونظر السادات الى نفسه فى المرآة وكان منتشيا ، ولبس قبعته ودلف الى حسنى مبارك وابو غزالة اللذان كانا ينتظراه فى بهو المنزل بملابسهما البراقة ، وكان كل مهما يحمل قبعته فى يده . وخرج معهما الى السيارة فى الفناء وقد نسى بالمنزل عصا « المارشالية » التى اعتاد اخذها معه فى العرض .

وفى العاشرة صباحا تحركت القافلة متجهة الى مبنى وزارة الدفاع بالعباسية . لقد اعتاد السادات منذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ على المجئ كل عام فى هذا الوقت الى قادة القوات المسلحة لكى يلتقى بكبار قادة الجيش المصرى - قادة الافرع وقادة الاسلحة - لكى يبدى تقديره ويثنى على ما قام به الجيش من جهد . وكان هذا اللقاء ينتهى بشكل عام بوقوف السادات مع كبار القادة امام الكاميرات . وكانت الصور التذكارية توزع فى نفس الليلة على رئاسات تحرير الصحف .

وفى هذه المرة ايضا لم يغير السادات من عادته . فبعد انتهاء حديثه مع القادة والذى استغرق حوالى الساعة وقف امام المصورين فى الوضع الشائع الذى اعتاد عليه ، حيث حسنى مبارك ورئيس الاركان وقائد السلاح الجوى إلى يمينه ، بينما وقف وزير الدفاع وقائد السلاح البحرى وقائد الدفاع الجوى على يساره . ولوحظ على الصورة التى نشرت فث الصحف المصرية فى وقت متأخر جدا ان الرئيس كان مجهدا جدا وكان خداه منكمشين والتجاعيد تقطع وجهه ، ولم يركز نظره إلى كاميرا التصوير بل كان هائما ينظر الى مكان ما بالسماء . ترى فيما كان يفكر فى هذه اللحظة ؟

مضت بضعة دقائق على الساعة الحادية عشرة عندما انطلقت قافلة السيارات من وزارة الدفاع بالعباسية فى طريقها إلى منصة الشرف بمدينة نصر . وقد اغلقت الطرق من كلا الجانبين وكان الجنود يقفون بطول الطريق يفصل بين الجندى والاخر بضعة أمتار فقط وكل

مول وجه الى الرصيف وظهره الى الطريق ، وبنادقهم قد علتها السناكى . كان هناك عدد قليل جدا من المدنيين قد تجمعوا على الارصفة لمشاهدة القافلة العابرة بسرعة البرق .

كان « الثلاثى القيادى » – السادات ومبارك وأبو غزالة يجلسون بداخل سيارة كاديلاك مكشوفة . وعلى جانبى السيارة وخلفها ومن فوق الصحائف المعدنية التى ركبت بالسيارة خصيصا لهذا الغرض كان يقف الحراس الثمانية الخصوصيون ومعظمهم كان يرتدى نظارات شمسية ومعظمهم كان يرتدى بذلات فاتحة اللون والبعض الاخر بذلات غمقة اللون . وكانت تتحرك امام السيارة ببضعة امتار وعلى جانبيها خمس عشرة دراجة بخارية تابع للشرطة العسكرية ، وهى من طراز « هارلى ديفيدسون » شديدة القوة . والى الخلف كانت تتحرك العديد من السيارات الحكومية . وكانت سيارات رجال الامن تسير على رأس القافلة وفى مؤخرتها ووسطها .

وعندما اقتربت القافلة من منصة الشرف نهض السادات ومبارك وابو غزاله على اقدامهم ، وأمسك السادات – الذى كان يقف بينهما – ساعد الكرسى بإحدى يديه بينما اخذ يلوح للجماهير التى احتشدت على جانبى الطريق والمقصورات باليد الاخرى . وكذلك اخذ نائب الرئيس ووزير الدفاع يلوحان للجماهير . وتحركت القافلة الى الامام وهى تطلق سارينانها كالعويل ، وكلما اقتربت من منطقة المنصات كلما ازدادت الهتافات . واخذت الجماهير تهتف : « يعيش السادات بطل الحرب والسلام ! » ، وقد غطت هتافاتهم وصيحاتهم تقريبا على صوت المذيع وهو يعلن عن مجئ السادات .

وعندما مرت السيارة بالقرب من مقصـــورات الجماهير كان سائق الكاديلاك ينحرف – وفقا لاتفاق مسبق مع رجال الامن – عن وسط الطريق إلى هامش الطريق لكى يقرب السادات ومبارك وأبو غزالة من الجماهير التى راحت تهتف وتهلل . واخذ السادات يلوح بيده لكنه حرص على ان تكون تعابير وجهه جادة ومكتئبة ، إذ لم يبتسم تقريبا . واخذت الجماهير تصرخ « بالروح ، بالدم نفديك يا سادات » .

وتوقفت القافلة فى النهاية بالقرب من منصة الرئاسة . كان هناك سور فاصل من الحجر والرخام المزركش – احمر واسود اللون ، وقد نقشت عليه صور أشخاص – يفصل بين المنصة بمقاعدها وبين الساحة والطريق العريض ، الذى استخدم كمسار ومجاز للعروض العسكرية . وعلى جانبى المنصة كانت هناك مجموعات من السلالم مفروشة بسجاجيد حمراء تقود الى يسار ويمين المنصة . وكانت تعلو جانبى هذه السلالم مقصورات كبار الضيوف : سفراء وملحقيق عسكريين ودبلوماسيين واعضاء برلمانات وغيرهم . وعلى الجانب الآخر من الطريق الفســـيح وبالقرب (قبر الجندى المجهول) كانت هناك مقصورات الضيوف . ونهض كل الجالسين بالمقصورات للترحيب بالرئيس ولاستقباله بالتصفيق ، وادى

قائد الحرس التحية العسكرية . وتقدم السادات ووراءه مبارك وابوغزالة الى مقاعدهم فوق المنصة فى منتصف الصف الاول .

وانتظر الجالسون بالمنصة الرئاسية بصبر إلى ان جلست الحاشية فى مقاعدها لاصف الاول . وقد جلس إلى اليمين من السادات حسنى مبارك وإلى جواره العقيد حلفان بن ناصر قائد « كتيبة مسقط » بالجيش العمانى . ولم يكن مصادفة أن يحظى قائد الكتيبة المغمور بهذا المكان المحترم الذى يحجز بشكل عام لرؤساء الدول العربية : فالزعماء العرب الذين تعودوا فى الماضى حضور هذا النوع من الاحتفالات غابوا عن المنصة وعكسوا بذلك استمرار المقاطعة العربية لمصر عقب توقيعها على معاهدة السلام مع إسرائيل . ولم تقف الى جانب مصر سوى ثلاث دول عربية هى عمان والسودان والصومال ، وبهذا أصبح قائد الكتيبة العمانية أهم ضيف أجنبى يوجد على منصة الشرف . والى يمين حلفان بن ناصر كان يجلس مستشار الرئيس السادات السياسى ممدوح سالم الذى تقلد فيما مضى منصب وزير الداخلية ورئيس الاجهزة الامنية ، والذى كان يعتبر « كلب حراسة » للنظام . وبالقرب منه كان يجلس عبد القادر حاتم المسؤول عن مشروعات التنميــة الشعبية ورئيس مجلس الشعب د . صوفى ابو طالب . والى يسار الرئيس جلس عبد الحليم ابوغزالة . وقد كان ابو غزالة قائد سلاح المدفعية فى حرب اكتوبر .. ذلك السلاح الذى قام رجاله بقصف دشم وحصون الاسرائليين بالضفة الشرقية . وبعد الحرب عين ملحق عسكرى لمصر فى واشنطن ، وقد دعمت علاقاته الطيبة مع الادارة الامريكية مكانته القوية والصلبة اصلا فى القيادة المصرية والتى تكونت بصفة خاصة بفضل شخصيته القوية والعظيمة .

وبالقرب من أبو غزالة جلس نسيب السادات ومستشاره السياسى سيد مرعى وجلس بالقرب منه مفتى مصر الشيخ عبد الرحمن بيصار الذى برز بعمامته وبلحيته البيضاء . ووراءه جلس رئيس مجلس الشورى صبحى عبد الحكيم ورئيس الاركان عبد رب النبى حافظ وقادة السلاح الجوى والبحرى والدفاع الجوى بالجيش المصرى .

وجلس بالصفوف الثلاثة المتبقية الخلفية اعضاء الحكومة وكبار الضيوف الاخرين ومدنيين وعسكريين . وفى الصف الثانى جلس وراء الرئيس بالضبط سكرتيره فوزى عبد الحافظ . ووقف خلف الجالسين بالمنصة رؤساء مكاتب وسكرتيرو الرئيس العسكريون ونائب الرئيس وكذلك سكرتير ورئيس مكتب وزير الدفاع ، ومن بينهم ايضا الحرس الخصوصيون . وكان يجوب المنصة كثير من رجال الامن بعضه يرتدى الملابس العسكرية والاخر يرتد الملابس المدنية . وبعضهم جلس على مقاعد وضعت امام المنصة واسفل الحاجز الفاصل الحجرى .

وشاهدته جيهان السادات عند دخوله من شرفة الغرفة الذى كان مثبتا بالحائط الخلفى للمنصة الذى كان يشبه عين المحارة (الصدفة) ، حيث كان يعلو قليلا رؤوس الجالسين . وانتظرت حتى جلس على مقعده ، وعندئذ أسلت فى الدقائق المعدودات التى تبقيت على بداية العرض احفادها لكى يتبادلوا معه بضعة كلمات . وقبلهم السادات واحتضن شريف ثم طلب بعد ذلك إعادة الاحفاد الى جدتهم .

وفى الحادية عشر والنصف عزفت الفرقة الموسيقية التحية . ونهض السادات من مكانه وتوجه للنزول من المنصة لكى يعبر الطريق إلى قبر الجندى المجهول ثم ســـار وراءه مبارك وابو غزالة ورئيس الاركان وقادة الأسلحة . وهبطت الحاشية درجات السلم وتوجهت الى النصف الرائع الذى يشبه الهرم . وكان يسير أمامهم ثلاثة ضباط من الحرس الجمهورى يسيرون بخطوات الأوزة الصلبة ، شاهرين سيوفهم . وكان هناك ضابطان اخران يحملان اكليل الزهور . وتوقف السادات ومرافقوه بالقرب من القبر . وبسط الرئيس كفيه الى الامام واخذ يصلى صلاة صامتة : « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم ... »

بعد ذلك انحنى ليضع الاكليل ، ثم عاد إلى مكانه . وقفز إلى المنصة وجلس فى مكانه واضعا قبعته على عتبة السور الفاصل . واقترب ابو غزالة من الميكروفون والقى كلمة قصيرة تحدث فيها عن اهمية ذلك اليوم – السادس من اكتوبر – وامتدح السادات قائلا : « إن التاريخ سيحكم على الرجال وفق اعمالهم » . ثم أعلن عن بدء العرض فور انتهاءه من القاء كلمته .

الفصل الرابع عشر

دماء فوق منصة الشرف

ابداً لن يغفر قائد مجموعة الدراجات البخارية الذى كان يتقدم الطابور لنفسه هذا العار : لقد حدث لاحد رجاله ما لم يحدث ولو لمرة واحدة حتى أثناء عمليات البروفات الكثيرة وذلك اثناء تقدمهم اماما فى بداية العرض : حيث توقفت دراجته البخارية فجأة ، امام منصة الرئاسة وامام أعين القيادة المصرية جميعا وحيث كان مصورو التليفزيون يوجهون اليه عدساتهم ولم يعد الان فى مقدور قائد المجموعة إنقاذه ، بل كان عليه ان يعتمد على فطنة قائد الدراجة وذكاءه ، وقد بدا هذا فى البداية وكانه يعمل كالمعتاد . ثم نزل من الدراجة وسارع بدفعها اماما بمعدل السير البطئ الذى كان يسير به رفاقه وذلك لكى يبعد عن مرمى رؤية الرئيس والجالسين فى منصة الرئاسة ، ولكن للاسف كانت الدراجة ثقيلة فخطا خطوة غير حذرة فادى ذلك الى تعثر قائد الدراجة التعيس فزلت قدماه فوقع على الطريق وانقلبت الدراجة عليه . واخذوا يبحثون عن بعض الماء للجريح الا ان احدا من الجنود الموجودين بالمكان لم يكن معه « زمزمية » . ولجأوا الى مســـاعدة الجمهور الجالس بالمنصات ، ثم نجحوا اخيرا فى الحصول على المياه لقائد الدراجة الراقد على الطريق . وانتهى هذا المشهد المحرج بعد لحظات من الارتباك وكان على العرض ان يستمر .

ولم يتأثر الجالسون فى منصة الرئاسة بالذات . وبدأ انور السادات وهو يستغل هذه الفترة القصيرة لتبادل الكلمات مع مبارك على يمينه وابو غزالة على يساره . فى ذلك الوقت كان هناك تفكير واستعداد لاجراء احتفالات الـ ٢٥ من ابريل عام ١٩٨٢ بمناسبة استعادة سيناء . ويروى مبارك ان السادات كان يطرح كل يوم فى الايام التى سبقت العرض فكرة جديدة بشأن كيفية الاحتفال بهذا الحدث المهم . وبالاضافة الى احتفالات سيناء التى خطط لاجرائها على مدار اسبوع كامل – فقد قرر السادات عقد جلسة تاريخيه لمجلس الشعب (البرلمان المصرى) فى نفس ذلك اليوم . وقال السادات لمبارك وهما يجلسان بالمنصة ، وبالتاكيد يوحى من العرض الذى كان يتحرك امام اعينهم : « ستكون تلك فرصة مناسبة لتوزيع نياشين وأوسمة التكريم على بعض كبار ضباطنا وترقيتهم ... » ، وأومأ مبارك برأسه موافقا .

عندئذ توجه السادات الى أبو غزاله وقال : « لتعد قائمة باسماء الضباط الذين ترى انهم يستحقون الترقية ، لترقيتهم فى ٢٥ ابريل . وذلك للإشـــادة بدور الجيش فى هذا الحدث » . ووعد وزير الدفاع باعداد القائمة بسرعة .

هناك فترة زمنية اخرى اثناء تقدم الطابور وقد استغلها وزير الدفاع ابو غزالة ليؤكد « للرئيس » بشيء من الفخر مدى ما تم اقتصاده من نفقات العرض . فقد قال ابو غزاله « على الرغم من اننا وفرنا كثيرا إلا اننا نجحنا فى إبراز قوة الجيش وإرساليات السلاح الاخير » . كان مثار فخر ابو غزالة دبابات « ام - ٦٠ » وطائرات الهليكوبتر طراز « الشينوك » الامريكية التى كان قد استوعبها الجيش المصرى منذ فترة قريبة فقط وعرضت هذا العام لاول مرة امام الشعب المصرى .

واهتم السادات بمعرفة الوقت الذى وصلت فيه هذه الارساليات فسأل ابو غزاله : ى« متى وصلت الارساليات الأخيرة ؟ » . واجاب ابو غزاله : « منذ بضعة ايام فقط » . وابتسم السادات برضا وسعادة .

وبدأ العرض بعد الساعة الثانية عشر ببضع دقائق . وكانت وحدات المشاه اولى الوحدات التى تمر امام منصة الشرف ، ثم مر حملة الاعلام وقد أنزلوا اعلامهم امام المنصة تحية للريس ، وفى السماء اخذت تطلق البالونات والصواريخ النارية التى كان بعضها يتناثر فى شكل قوس بديع من الاضواء ، والبعض الآخر كان يهبط ناحية الجماهير فى شكل صور للسادات وللعلم المصرى . وقد حازت هذه الالعاب على إعجاب الجماهير التى راحت تعبر عن هذا الاعجاب بالتصفيق الحار . وكان الجالسون بالمنصات يتجهون بابصارهم من الحين والآخر ناحية السماء لمشاهدة أسراب السلاح الجوى المصرى التى كانت تضم طائرات نقل ثقيلة صناعة امريكية من طراز « هركولز » وطائرات مقاتلة من طراز « ميراج - ٥ » والطائرات الهليوكبتر ، التى كانت تمر فوق منصة الشرف لتحية الحضور . وبدا السادات سعيدا . واخذ يتابع بمنظاره العاب الاكروبات التى كانت تقوم بها الطائرات فى السماء ، كما اخذ يصفق بحرارة لوحدة راكبى الجمال (الهجانا) ، وكان بين الحين والآخر يسحب غليونه ليدخن كما كان ينزع احيانا قبعته ليجفف عرقه . فى الساعة ١٢,٣٦ دقيقة تقريبا ، وقبيل انتهاء العرض جاء دور المدفعية . واخذ المذيع يعدد انواع المدافع التى تستخدمها القوات المسلحة وتوقف عند الانواع التى سوف تمر بعد قليل . وقام قائد الطابور بتحية الرئيس عندما مرت مركبته أمام المنصة ، وقام السادات من مكانه ليرد التحية ثم عاود جلوسه .

وفى الساعة ١٢,٣٩ دقيقة كانت سيارة خالد الاسلامبولى بمسافة تبعد عن المنصة الرئيسية بمقدار ١٠٠ متر . وكما هو متبع ، وكما يتطلب السير البطىء فقد كان على سائق السيارة ألا يحرص فقط على ان يكون فى « خط مستقيم » مع السيارات اللورى الثلاثة التى تقع على يساره ، ولكن كان عليه ايضا ان يحرص على الحفاظ على المسافة اللازمة بينه وبين السيارة التى أمامه . وحدث تأخير ما فى مقدمة الطابور أجبر سائق السيارة رفع قدمه

عن دواسة البنزين ووضعها على دواسة « الفرامل » تحسبا للوقوف فى نفس هذه الثانية مرت بالسماء عدة أسراب من طائرات الميراج محدثة اصوات تسم الأذان واتجهت كل الابصار تقريبا ناحيتها . إلا بصر خالد .

واستغل خالد هذا الجزء من الثانية الذى خفت فيه السـيارة من سيرها لكى يتناول « كارل جوستاف » السائق . ووجهه الى رأس السائق وصـرخ فيه « توقف فورا وإلا قتلتك » . وتوقف السائق فى مكانه مذهولا . لقد روعته الصرخة المفاجئة ومنظر الرشاش الفاغر امام عينيه وشل تفكيره الى حد انه نسى ان « الكارل جوستاف » – على حد علمه تقريبا – لم يكن مملوءاً بالرصاص .

وكان عطا طايل هو اول من حاول العمل قبل ان تتوقف السيارة توقفا تاما . فقد نهض من مقعده فوق السيارة واخرج القنبلة من جيبه ونزع منها زر الامان وألقاها فى اتجاه المنصة . إلا ان دفعته لها كانت ضعيفة الى حد ما . فقد سقطت القنبلة بمسافة تبعد بمقدار ١٥ مترا من السيارة وانفجرت دون ان تصب أحدا . ونتيجة للتوقف المفاجئ للسيارة الذى حدث فور ذلك فقد عطا توازنه وسقط على أرضية سطح السيارة المعدنية .

فى نفس اللحظة فتح خالد الاسلامبولى باب كابينة السيارة واندفع الى المنصة . وفى طريقه اليها استل قنبلة وألقاها تجاهها . وسقطت القنبلة الثانية فى مكان اقرب من المنصة الا انها لم تنفجر لعطل بجهازها واخذ يتصاعد منها دخان كثيف ابيض . وحاول عبد الحميد بعده تجربة حظه . إذ اصطدمت القنبلة التى ألقاها بالسور – الحاجز الحجرى المزركش – وانفجرت اسفله فتناثرت الشظايا فى كل اتجاه الا ان قوتها ضعفت كثيرا بفضل السور الحاجز الذى وقف حائلا بين القنبلة وبين الجالسين بالمنصة .

لقد ظلت أبصار كثير من الجالسين فى المقصورات معلقة بالسماء لمشاهدة الطائرات ولم يلتفتوا إلى ما يحدث بالارض ولم ينزلوها من على لان ضجيج الطائرات وصخبها نجح فى حجب دوى اصوات انفجارات القنابل . وبعضـهم – كوزير الدفاع ابو غزاله – ممن كانوا ينظرون الى السيارة اللورى التى توقفت امام المنصة لم يعتبروا ذلك نذير سوء . لقد كان ابو غزاله ذاته مقتنعا ان ما حدث للسيارة نلا يعدو ان يكون عطلا فنيا اصاب محركها . وفى مثل هذه المواقف لا يتوقع من الضابط الذى يجلس بكابينة القيادة سوى ان يسارع بالقفز من السيارة لتحديد مصدر العطل المحرج ومحاولا ابعادها بطريقة او اخرى عن المنصة . الا ان ابو غزالة – وغيره ايضا – قد غيروا رأيهم عندما شاهدوا الضابط الذى كان عارى الرأس وبشكل مفاجئ يجرى بعيدا عن السيارة فى اتجاه المنصة ، ويلقى على الجالسين شيئا غير واضح . ثم يلقى شيئ اخر من فوق ظهر السيارة الخلفية بايدى شخص اخر يقفز منها . كل هذا اوضح للجالسين بالمنصة ان توقف السيارة لم يكن بسبب عطل حدث بها . ولم

يدع دون الانفجارات مجالا لأدنى شك : فهذه الاشياء غير الواضحة هى قنابل حية . وفى ثوان تجمدت الدماء فى العروق وأبت العيون أن تصدق ما تراه .

بعد ذلك حدث هرج ومرج وصراخ وفوض لا يمكن وصفها . وامتزجت اصوات الانفجارات بصرخات الأشخاص الذين طاش صوابهم واخذوا يتدافعون من اماكنهم او حاولوا الفرار بجاة بأنفسهم . وسالت الدماء وتناثرت فى كل اتجاه وطارت الكراسى فى الهواء وامتزجت اصوات الرصاص الذى يطلق بالارض بضجيج الطائرات التى ظلت تحلق فى السماء وكأن شيئا لم يحدث .

فى هذه الثوانى الجهنمية نهض أنور السادات من مقعده فى الصف الاول الى ان انتصب قائما على قدميه وطفق ينظر إلى قاتليه الذين يتقدمون نحوه غير مصدق لما يراه . وفى لمح البصر أشاح ببصره إلى الخلف كما لو كان ينتظر – يائسا – الخلاص من الخلف ولم ينقذه . واخذ يتمتم . « ده مش معقول ... مش معقول » – (هذا غير منطقى – غير منطقى) .

ولم يتمكن السادات من إكمال عبارته . فقد تبقى هناك فوق ظهر سيارة لورى حسين عباس ، بطل الجيش المصرى فى الرماية لعام ١٩٧٥ . وحتى القناص المبتدأ لم يكن يخطىء هدفا بمثل هذا الوضوح .. هدفا منتصبا وبارزا على الساحة بملابسه العسكرية اللامعة والتى تتلألأ منها احدى عشر نجمة ونسر ذهبى جمعها شريط من القماش الاخضر مد بكبرياء من الكتف وحتى الخصر . ووجه حسين عباس البندقية التى كان يمسكها بيده وهو هادئ ومستريح تماما ناحية انور السادات . وضغط عباس على الزناد ، مستعينا بمصوبه ذات سم ابره بعد ان ازاح زرها من « الطلقات المتفرقة » الى الاطلاق « الاوتوماتيكى » . واصابت الدفعية الاولى الرئيس حيث اخترقت احدى الرصاصات رقبته فى الجانب اليمانى فى الفراغ الموجد بين عظمة الترقوه وبين عضلات العنق . واستقرت اربع طلقات فى صدره . وجعل عباس يطلق دفعات اخرى فاصاب الجالسين بالصف الاول ومن وراءهم .

وانهار السادات وطرح ارضا ، فقد سقط على جانبه الايسر واخذ يتقيئ دما . ووجد رئيس مجلس الشورى د . صبحى عبد الحكيم الذى كان يجلس فى الجناح الأيسر بالصف الاول وسارع بالتمدد على الارض لكى ينجو من وابل طلقات الرصاص .. وجد نفسه يرقد امام انور السادات وجها لوجه ، وهو يتنازع ويتأوه ودماء كثيفة تتدافع من جرحه . وكان يرقد قريبا منهما على بطنه لكثرة الامه سيد مرعى مستشار الرئيس السياسى وصهره .

وفقز عبد الحميد من السيارة وكان اول من وصل بالقرب من المنصة . وقد قادة اندفاعه عموديا مع السيارة إلى مجموعة السلالم اليمانية للمنصة . وكان أثناء اندفاعه يطلق

نيرانه من تجاه وسط الصف الاول ، وعندما لاحظ ان المرمى بعيد والطلقات غير فاعلة .. توقف هنيهة وراح يطلق عدة طلقات من الكتف . ثم قفز بعد ذلك فوق الاحبال الحمراء التى كانت ممدودة بين عمودين نحاسيين مكسوان بالنيكل ، وبدأ يتسلق درجات السلم وهو يطلق نيرانه جانبيا إلى الجالسين الذين كانوا لم يتمكنوا بعد من الانبطاح على الارض والحتماء بالكراسى التى اخذت تتدحرج فوقها فوق بعض .

فى تلك الاثناء تقدم خالد الاسلامبولى إلى وسط السور الفاصل الحجرى فى المكان الذى سقط فيه السادات . وأخذ يطلق بعض طلقات الرصاص صوب المنصة وعندما وصل الى الساتر الحجرى ظل يضغط على الزناد ويفرغ الخزنة تجاه الراقدين اسفل الصف الاول . وبهذه الوسيلة اصاب ذراع فوزى – سكرتير الرئيس .. بجروح شديدة – التى كان يرفعها ليجذب بها الكراسى الى جسد السادات محاولا بذلك حمايته . وبدا لخالد وهو يقف بالقرب من الدرابزين الحجرى انه يشاهد حسنى مبارك يحادث بعض الراقدين طالبا الحماية تحت الكراسى . ووجه اليه « الكارل جوستاف » وجعل يضغط على الزناد . حينئذ فقط اكتشف ان الرصاص قد نفد . وتمكن من ان يسمع احد ما من الخلف مشيرا إليه : « لقد نفد رصاصه !! » .

ونظرا لنفاد ذخيرته – وكان لا يزال سليم الجسم ولم يحاول أحد اعتراض طريقه – تراجع خالد الى الخلف وبدأ فى الفرار . واصطدم فى طريقه بحسين عباس الذى تمكن فى تلك الاثناء من النزول من السيارة اللورى وأخذ يتسلق بسرعة بالغة درجات السلم ويطلق نيرانه على احد ما كان يحاول النزول . ولما نفذت طلقات عباس استدار ووصل الى وسط المنصة والى اسفلها ، حيث التقى بخالد الذى كان يستعد للانسحاب . واخذ خالد من عباس بندقيته وصرخ فيه : « اجرى ! » ، وواصل هو ذاته فراره الا انه اصيب اثناء ذلك برصاصتين فى بطنه وسقط .

وشغل عبد الحميد الان مكان خالد بالقرب من السور الحاجز الحجرى أمام المقعد الذى يجلس فيه السادات ، حيث نزل من السلم الايمن بعد ان بدأت النيران تطلق نحوه . وعلى الرغم من أصابته الطفيفة فقد اخذ يزحف اماما موجها بندقيته بزاوية ٤٥ درجة ولما رأى السادات متمددا على الارض افرغ فيه بقية الطلقات التى تبقت بالبندقية . وكان يقف إلى جانبه فى ذلك الوقت عطا طايل يطلق نيرانه على الكراسى المقلوبة والأشخاص الذين يرقدون بينها ساترا بذلك عبد الحميد . وكان عطا هو الذى سقط على ارضية السيارة اللورى اثناء توقفها . وعندما قفز من السيارة بعد ذلك لكى ينضم الى رفاقه .. تعثر مرة ثانية وتورط بين عجلات المدفع المجرور . وسقطت بندقيته من يده فى تلك الاثناء ايضا ، الا ان عطا طايل أفاق بعد بضعة ثوانى ، ونهض واقفا ثم أخذ البندقية وطفق يجرى ناحية وسط

المنصة . وكان عبد الحميد هناك ، فضغط عطا – الذى لم ير امامه سوى كراسى مقلوبة – على الزناد حتى نقطته الاخيرة ، واطلق حوالى عشرين رصاصة إلى ان اصيب برصاصة اطلقت عليه من خلف المنصة وتمدد فوق الارض .

وتمكن عبد الحميد من التراجع إلى الخلف بمسافة تبلغ حوالى عشر خطوات الى ان اصيب هو الاخر فى ساقه اليمنى وسقط مغشيا عليه .

لقد استغرقت العملية كلها منذ لحظة توقف السيارة وحتى بداية الفرار ٦٠ ثانية ، لكنها مرت كدهر . ان تمكن الاسلامبولى ورفاقه من تنفيذ مؤامراتهم والبدء ايضا فى الانسحاب الى الخلف الى ان اصيبوا اثناء فرارهم والقى القبض عليهم تشير إلى مدى صدمة المفاجأة وذهول الجالسين بالمنصة . وقد نجح حسين عباس فى الهرب ، واستحالت المنصة الرئيسية ومقصورات كبار الضيوف إلى بحر من الدماء وصرخات مرعبة . وقلبت الكراسى واصبح الذين كانوا يجلسون عليها يزحفون بينها . وجنود الشرطة القلائل الذين كانوا يجلسون على الكراسى الخشـبية فى مواجهة المنصة وامام الدرابزين الحجرى – فروا بجلودهم .

وأسفل الصف الاول كان يرقد السادات فى بركة من الدماء . وفوزى المخلص الذى كان يجلس خلف الرئيس حاول باحدى يديه رفع رأس السادات لكى ينقذه من الاختناق بينما اخذ يدحرج باليد الثانية الكرسى على الرئيس لكى يجعله حاجزا بينه وبين المتآمرين ولكنه يضطر إلى سحب يده بعد ان اصيب هو الاخر .

وكان يرقد فوق الارض المصابون بجروح شديدة حتى قائد الكتيبة الملكية العمانية وسيد مرعى والمفتى عبد الرحمن البيصار وأسقف الكنيسة القبطية الانبا صموائيل .

والذين لم ينجحوا فى الهرب من منطقـــة الخطر – وهم من بين كبار القادة المصريين – لا يزالون يرقدون بين الكراسى . ومبارك ، الذى كان يتابع ببصره اسراب الطائرات عندما بدأ المتآمرين عملهم نجا من الموت مرتين : الاولى عندما حاول ان يرفع رأسه ويقف الى جانب السادات الذى نهض مندهشا امام مقاتليه الى حين رؤيته للقنبلة التى ألقيت ناحيته . وقد انحنى اوتوماتيكيا او طرح نفسه ارضا وشق طريقه فراراً بين الكراسى . وفى المرة الثانية أنقذ عندما نفذت الذخيرة بخزينة الاسلامبولى .

وقد اصيب ابو غزاله فى ذراعه وأذنه . وأصابت الشظايا أماكن مختلفة من جسده . واخترقت رصاصة اخرى قبعته ومرت بين شعره .

أما رئيس الاركان عبد رب النبى حافظ الذى كان يجلس بالصف الاول فقد اصيب فى صدغه الأمن من القنبلة الاخيرة التى ألقاها ناحيته عبد الحميد ، ولم تنفجر لأنه لم

ينزع زرها كما ينبغى . وقد أصيب رئيس الاركان بصدمة وأغمى عليه من هول الصدمة ، وبلغ طول الجرح الغائر الذى اصاب صدغه ٥ سم .

كانت جيهان السادات فوق منصة الرئاسة وفى الحجرة الخاصة التى خصصت لها تتابع مع احفادها وحاشية نسوة كبار الضيوف سير العرض . وشاهدت طابور سلاح المدفعية ونظرت إلى الطائرات وهى تطير فى السماء . بعد ذلك شاهدت الاسلامبولى يتقدم اماما والقناص يقف فوق ظهر السيارة اللورى . وشاهدت زوجها ينهض من مقعده وينظر بيأس ويجول ببصره باحثا عن رجال الامن وكما لو كان يقول لهم : « اتوسل اليكم بربكم ان تفعلوا شيئا » !! .

واخذت احدى نساء الوزراء تولول وتصرخ ، فصرخت فيها جيهان : « اسكتى » وقالت وهى فزعة فزع الموت : « اذا قدر لنا الموت فلنمت بكرامة وشرف » ، ثم انطلقت بسرعة الى الباب محاولة الوصول إلى زوجها . وأمسك رجل الأمن بذراعها ، وبشىء من القوة طرحها ارضا ، حماية لحياتها .

الفصل الخامس عشر

إنقاذ سفير إسرائيل

كان حضور اول سفير اسرائيلى بالقاهرة الياهو بن اليسار العرض العسكرى الذي اجرى فى أكتوبر عام١٩٨٠ احتفالاً بعيد حرب يوم الغفران مثارا لنقد حاد من جانب مختلف الدوائر الشعبية الإسرائيلية إذ قال الكثير ان لم يكن ما يدعو سفير اسرائيل لحضور حدث يمثل بالنسبة لمصر انتصارا مصريا على اسرائيل فى الحرب فيما يمثل بالنسبة لآسرائيل جرح لم يلتأم بعد.

هذا النقد ظل محفورا فى ذاكرة الشخصيات التى عهد اليها بالبت فى اشتراك خليفة ابن اليسار موشى ساسون فى العرض العسكرى الذى سيقام فى السادس من اكتوبر عام ١٩٨١ ، ولو ان أمرا صدر لساسون بعدم حضور العرض هذه المرة ، ربما أثلج صدور كثير من الإسرائيليين وجاء استجابة لرغباتهم ، لكن من الناحية الأخرى سوف يشكل اهانة لمصر بلآشك وقد يخرب منسوجة العلآقات الدقيقة والحساسة التي يجرى نسجها بين البلدين . اضافة الى ذلك فإن إشراك ابن اليسار فى العرض السابق قد أوجد - فى الحقيقة سابقة لن يكون من السهل التراجع عنها ..

لم اثير اقتراح مع اقتراب السادس من اكتوبر بطرح الموضوع فى احدى جلسات الحكومة للبت فيه . إلا أن تدخل السفير ساسون نفسه قد حال دون ذلك . وقد طلب ساسون فى طلب شخصى تقدم به لرئيس الحكومة بأن تترك لديه حرية الاختيار بين الآشتراك فى العرض أو عدم الاشتراك متعهدا بتحمل المسؤولية الكاملة لنتائج مثل هذا القرار أو غيره.

وكان من الممكن تقريبا الآحساس بالشعور بالرضا فى القدس . ففى برقية الرد الذى سارع الوزير شامير بارسالها الى السفير ساسون ذكر فيها : الأمر متروك لكم - وايما قرار اتخذته ، حظيت بالتأييد الكامل لحكومة اسرائيل .

كان ساسون فى ذلك الحين قد عقد العزم على حضور العرض وشغل مكانه الى جانب بقية الوزراء فى منصة الشرف . وقد سجل بعض الكلمات التى اعتزم الادلاء بها لممثلى أجهزة الاعلام الإسرائيلى الذين اتصلوا - كما توقع - فى منتصف يوم الاثنين عشية العرض بالسفاره الإسرائيلية بالقاهرة ليستوضحوا منه كيف سيتصرف وليسمعوا منه تفسيراته ومبرراته.

وفى محادثة تليفونية اجرتها صحيفة معاريف قال ساسون : اشتراكى فى هذا الحدث

يعد جزءا من عملية السلام والتطبيع بين الشعبين والدولتين ، والدعوة التى وجهها وزير الدفاع المصرى للسفير الاسرائيلى تعد فى نظرى رمزا لانتهاء عصر الحروب بين الجيشين ، ثم أردف السفير : إن رفع علمنا يعتبر فى نظرى بمثابة اكبارا واجلالآ لرغبة احبارئنا واعزاءئنا فى الامن والسلام – وهى الرغبة التى استشهدا فى سبيلها .

وكما جرى العرض الدبلوماسى فقد كان العلم الاسرائيلى مثبتا فى واجهة سيارة السفير الحكومية . وقد آثر ساسون – لما يثيره اشتراكه فى العرض من حساسية – الا يكون العلم الاسرائيلى فى طليعة اعلام سيارات السلك الدبلوماسى التى ستقف أمام منصة السفراء . ومن ثم قرر تأخير وصوله قبل بداية العرض بمدة عشرين دقيقة فقط ، لا لمدة ساعه كاملة كما طلب إليه .

وقد قاد رونى السائق السيارة بيد أمينة حاذقة الى منصة السلك الدبلوماسى . ووقف السفير لدى نزوله من السيارة موليا وجهه إلى المنصه وكان كثير من السفراء قد جلسوا قبله الى أماكنهم ، والى يمينه منصه الرياسة التى كانت لاتزال تنتظر قدوم حاشيه الرئيس .

وانتظر رونى بتؤدة حتى خرج السفير ومرافقوه من السيارة وقاد السيارة الى خارج الحاجز الذى اقيم بالطريق الجانبى الواقع خلف المنصات . وسوف يزيل رجال الأمن المصريين هذا الحاجز عند انتهاء العرض ويسمحوا للسيارات الحكومية بالتوجه الى مقدمة المنصة لكى تقل السفراء . واخذ رونى يناور بين السيارات ونجح بمجهود شاق فى ان يتخذ لسيارته اقرب مكان ممكن من الحاجز .

فلم تصرف رونى هكذا ؟ وهل اشتم رائحه خطر ؟ . يبدو ان النفس السويه فقط هى التى أملت عليه هذا المبدأ : كلما كنت اقرب كلما كان ذلك افضل .

ولم يكن موشى ساسون يقف بمفرده على الرصيف المواجه لمنصة السفراء . فقد كانت هناك مجموعة من الحراس الشخصيين من الاسرائيليين والمصريين تحوطه كخلية حية ولم يكن الدخول إلى المقاعد الموجودة على المنصة فى الواجهة ، بل كان من اعلى ، اى اتجاه الصف الأخير ، وهو اعلى الصفوف .

وتسلقت المجموعة بسرعة درجات السلم الايسر متجهة إلى طرف المنصه ، حيث كان ينتظرهم هناك يحى رفعت مدير المراسم .

وقال رفعت بصوت ودود : سيادة السفير ، يمكنك الجلوس فى اى مقعد تشاء .. فالمقاعد على المنصة ليست موسومة . ثم اردف معتذرا: يؤسفنى ان لم تتبق بعد اماكن كثيرة لقد وصل معظم المدعوين فى الوقت المحدد بالدعوة وسبقوا السفير الاسرائيلى الذى تأخر فى المجيء عن عمد . وشغلت معظم الصفوف العلوية . ولم تتبق سوى بضعة مقاعد محدودة بالصف الثانى المجاور للطريق بينما كان الصف الأول بالقرب من الرصيف فارغا

تماما . وأدرك ساسون ان حيز الاختيار محدود جداً واخذ يهبط بحذر إلى الصف الثاني والحراس وراءه .

واعترض رجل مصرى قوى البنية طريق الحراس وقال بحدة مهذبة: اسف غير مسموح بالمرور إلا للسفير فقط وأشار بيده الى بقية السفراء الذين يجلسون بلا حراس على المنصة لكى يثبت لهم ان تصرفه هذا لم يكن اعتباطيا .

ووجه موشى – قائد مجموعة الحراس – نظرة حادة إلى عين المصرى وقال بصوت هادىء : إذا لم أنزل أنا فلن ينزل السفير ايضا ، واستدعوا قائد الحرس لم هذا الإحراج ؟ ألا يمكنكم البقاء هنا فى المؤخرة إلى نهاية الاحتفال وأصر قائد ؟ مجموعة الحرس على موقفه . ولكنه أذ عن اخيرا قائد الحرس قائلا : « او – كى ». فلم يجلب على نفسه المشاكل ؟

وفى طريقه الى اسفل مرموشى ساسون بالفريد « روى » الرتون السفير الامريكى ، وقد جلس «روى» بأحد الصفوف العلوية وابتسم لساسون الذى نزل ووصل إلى الصف الثانى وشغل المكان الخالى على يسار السفير السويدى .

ولم يكن هناك مايدعو موشى « الاخر » قائد مجموعة الحراس ورجاله الى القلق ، فقد تكفلوا بأنفسهم.

كان الصف الثانى الذى جلس به ساسون قريبا جدا من الطريق الذى ستمر به بعد قليل طوابير العرض ، وسوف تمر هذه الطوابير أولا أمام منصة الرئاسة التى تقع على يسار السفير ساسون ، ثم تواصل طريقها الى المنصة الدبلوماسية . وبدأ الصف الأول يمتلىء مع اقتراب موعد العرض ، لا بالديبلوماسيين ، ولكن بعلية القوم من المصريين مع نسائهم وأطفالهم.

وعندما بدأ العرض كان سفير اسرائيل منهمكا فى حوار ودى مع نظيره السويدى الذى ابدى اهتماما خاصا بالعناوين وباللافتات الضخمة ، التى كتبت باللغه العربية المعلقة على العواميد المتناثرة حول المنصات ، وسأل السفير السويدي : « هل يتكرم حضرة السفير الاسرائيلى الذى يجيد اللغة العربية اجادة تامة بترجمة بعض هذه المكتوبات لى إلى اللغة الانجليزية ؟

ورحب ساسون بطلبه .. وهكذا انهمك فى الترجمة الى حد انه لم يهتم برفع رأسه إلى السماء – كما فعل بقية السفراء والجالسون بالمنصات – لكى يرى اسراب الميراج التى مرقت بارتفاع منخفض وبضجيج يصم الاذان . وكانت عينا ساسون متجهة الى الامام – على الأرض تنظر الى اللافتات ، ولهذا كانت اول من راقبت وتابعت الحدث الغريب الذى

وقع امام منصة الرئاسة والذى اثار دهشة كبيرة : السيارة التى توقفت والجنود الذين ينطلقون قفزا الى الأمام الى مقاعد الرئاسة ، وهم يحملون البنادق فى أيديهم .. وتابع سفير اسرائيل بقلق هذا المشهد الغريب إلا أنه لم يربط بينه وبين اصوات الانفجار المدوية للوهلة الأولى . لقد كان ساسون مقتنعا ان هذه الاصوات ليست سوى اصوات الصواريخ النارية التى كانت قد أطلقت إلى السماء منذ دقائق معدودات مكونة بحرا من الاضواء والالوان ، ولكن ما الذى يفعله بالضبط هؤلاء الأشخاص الذين يجرون اسفل ؟ ولماذا تسمع اصوات انفجارات قريبة جدا من المنصة ؟ وقبل ان يتمكن سفير إسرائيل من الاجابه على هذه الأسئلة كان موشيه قم (١) وراءه موشيه ، واستصرخ الحارس السفير ودفعه الى الارض بقوة : « انبطح فورا . هذا حقيقى وفى أقل من ثانية اخرى كان الحارس يغطى السفير بجسده ويحوطه كمظلة بشرية واقية من طلقات الرصاص التى تمزق الهواء .

كان مائير الحارس رقم ٢ يتابع من مكانه البعيد قليلا فوق نفس المنصة ما يحدث على منصة الرئاسة ، لقد رأى المقتالين ورأى الرئيس وهو ينهض من مقعده مندهشا مذهولا، رأى الاشخاص الذين يهربون وسمع صيحات وصرخات اليأس والحزن تتوالى من كل جانب . لقد وصل وابل الرصاص وشظايا الطلقات إلى المنصة التى يجلس بها السفراء ايضا وحولوها فى لحظة الى بحر من الدماء والصراخ والعويل .

فكم من الجالسين بالمنصة اصيب !! ومائير الذى اتجهت اهتماماته الآن إلى السفير وإلى الحارس رقم ٧ المنبطحين اسفل المنصة بين الكراسى المقلوبة أحس فجأة بألم حاد فى صدره وبدأ نزيف دموى دقيق يخرج من صدره ، ويلطخ قميصه . كذلك بدأت يده تنزف دما.

وربما حاول مائير فى غير هذه الظروف تحسيس جرحه ليوقف نزيف الدم الا انه لم يجد الان وقتا لذلك ، وظل منتظرا حتى هدأ إطلاق النار الذى استمر حوالى دقيقة . وعندما تأكد ان السفير الاسرائيلى لم يكن هدفا لهذه الهجوم – اشار لرقم (١) بالطريقة التى اعتاد عليها الاثنان وتدربا عليها مئات المرات « استعد للانقاذ » .

ومع تلقى الاشارة من مائير امر موشى الحارس السفير مشيرا له بيده الى اتجاه الفرار . وتقدم الاثنان زحفا وببطء بين المقاعد المقلوبة وبين الاشخاص الراقدين على الارض منبطحين يتألمون الى ان وصلوا الى الجزء العلوى من المنصة . وهناك كان ينتظرهم مائير . وتوجهوا من هناك بسرعة للخروج من السلم الخلفى للتقدم إلى نقطه انتظار السيارة . وصاح موشى الحارس لدى خروجهم إلى الشارع المكشوف محذرا : احذر يا موشى هذه المنطقة المكشوفة فربما كانت اشد خطر من المنصة ... وكانت ملقاة على الطريق جثه مجهولة الهويه ، وكانت تقف بالقرب منها طائرة هليوكبتر السادات ساكنة بلا حراك . وكانت

الطائرة لاتزال خالية من الاشخاص ومن ثم امكن الاستنتاج بأن السادات لايزال موجودا بالمنصة . وانضم الحراس الآخرون بالاضافه الى الحراس المصريين محمود عبد اللطيف إليهم فى ذلك الوقت وهم يجرون من الخلف .

وتوجهت المجموعة يمينه بالطريق الجانبى . وقدر « رقم ١ » انه سيكون عليهم اجتياز مسافة كبيرة بعض الشىء حتى يصلوا إلى مكان انتظار السادات وراء الحاجز . وكان الطريق خطيرا ولم يكن هناك من يستطيع ان يعرف ماذا سيحدث وهم فى طريقهم . إلا أن سياره السفير توقفت فجأة وقد سمعت اصوات فراملها ، وكان رونى بداخلها . وصاح احدهم تلقائنا : كل التقدير لك يارونى . واتضح بعد ذلك ان رونى استوعب على الفور مغزى ما يحدث . وأدراك ان عليه ان يتصرف بسرعة . فأدار السيارة وانطلق بها الى الامام فى اتجاه الحاجز . واخذ يطل برأسه اثناء سيره خارج السيارة ويصيح فى الحراس : اسرعوا ازيلوا الحاجز .

وكان حراس الحاجز مرتبكين على ما يبدو إلى حد ما . فربما فوجئوا على غير المتوقع بظهور سيارة السفير الحكومية ، وربما كان ارتباكهم بسبب دوى طلقات الرصاص التى ترددت من المنصة ولم يعرفوا سببها . على كل ، فقد أزالوا الحاجز ومكنوا رونى من الانطلاق بسرعة . وفى تلك الثوانى فقط وعندما فتحت أبواب السيارة .. كشفوا عن أمر إصابة مائير ، ومن فحص الجرح ، تبين ان الجرح لم يكن غائرا ، الا أن السفير كان قلقا فقد يكون تشخيصهم غير الفنى خاطئا .

وزاد رونى من سرعة السيارة ليبتعد بأقصى سرعه ممكنه عن منطقه الخطر . وانضمت الى الخلف سيارة تأمين وحماية السفير . وبدا محمود فى هذه اللحظات شارد الذهن . واستل مسدسه استعدادا وتحسبا لاى محاولة من جانب احد ما لاصابة السيارة المسرعه والسفير الاسرائيلى بداخلها . وتوسل قائد مجموعه الحراس إلى محمود كى يعيد مسدسه الى غمده . وبجهد شاق امكن إقناعه بانه من الممكن ان تنطلق طلقات من المسدس المسلول .

واتضح فى وقت متأخر جدا ان مساعدة محمود لم تكن غير ضرورية ففى نهايه الطريق قامت الدبابات بسد الطريق ومنعت الخروج من مدينه نصر ولم تسمح لاحد بالمغادرة. وقد أغلقت المنطقة - بناء على امر من الشرطة . وحاول رونى الالتفاف ولكن عبثا . حتى العلم الاسرائيلى المعلق فى مقدمه السياره لم يجده .. وفى النهاية لم ينجح سوى الرائد محمود الذى نزل من السيارة وتحدث بحده الى قادئه وبصورة مقتض بة ، فسمحوا له بالعبور . وتوجه موشى السفير إلى محمود وسأله : هل تعلم طبيبا أو عياده بالمنطقه ؟ فأجاب محمود بالايجاب وقال : هنا قريبا فى مدينه نصر يوجد عم لى طبيب على بعد خمسه دقائق

. فقال السفير : حسنا ، فلنذهب إلى هناك فورا فقد ازعجه فى الحقيقة جرح مائير .

وفى الطريق اتصلوا بالسفاره الاسرائيليه بالقاهرة ، ولم يكن هناك من يعلم شيئا عما حدث وكان الابلاغ مقتضبا وموضوعيا : طلقات تجاه الرئيس . انقاذ سريع . كل شىء على ما يرام . الجميع بخير . وبناء على أمر السفير فلم يبلغوا بجرح مائير ، لكى لايثيروا الفزع .

وسارعت السفارة الاسرائيلية إلابراق بالخبر لإسرائيل . لقد علمت بعملية الانقاذ التى تمت بسلامة بعد إحدى عشرة دقيقه فقط من انقضاض المتآمرين على منصة الشرف فى مدينة نصر .

وارشد محمود رونى الى بيت عمة فى مدينه نصر . وكان بيتا بديعا مكونا من طابقين ويضم جراج للسيارة بالفناء . وكان الاستقبال حارا ووديا للغاية . ولم يكن المقيمون بالبيت يعلمون ما حدث بالضبط بالعرض لأن الاذاعة المصرية تذيع اغان وموسيقى مستمرة وبلا توقف ، ولكن السفير الاسرائيلى كان فى كل الاحوال ضيفا مقبولا . وطلب منه محمود الدخول وأخبره بأن صاحب البيت سوف يأتى على الفور لمعالجة الجريح . ولم ير الطبيب – على الرغم من انه لا يشتغل بالطب الاكلينكى – خطرا على الجريح وأخبرهم بأن الجرح ليس خطيرا . وقد طمأن مائير وهدأ الحاضر قائلا : لاداعى للقلق . سيادة السفير أى شراب تفضله ؟

ونظرا لآن صاحب البيت عرض مساعدته فقد كان لساسون ثلاثة مطالب متواضعه : جهاز تليفون للاتصال بمنزله بالمعادى وجهاز راديو ترانزستور لمتابعة ومعرفة ما يحدث بمصر حاليا ، وفنجان قهوه لتهدئة الاعصاب . واستغل محمود وعبد اللطيف هذه الفتره للاتصال بمقرهما والابلاغ عن انقاذ السفير وعلى مكان تواجدهما بالضبط . تم جاء أمر صريح من المقر : لاتترك السفير يغادر المكان لحين مجيء سيارة مصفحة لتأمين طريقه الى منزله بالمعادى . وهو أمر لايمكن مناقشته .

واتصل موشى بمنزله بالمعادى وأبلغهم بالأمر . وكانت كل من الزوجة والابنة متشككتان . فهل اصيب بجروح لاسمح الله ولذلك تأخر أو انه يخفى شيئا ما عنهما ؟ وحاولتا جذب اطراف الحديث معه لمحاوله استخلاص السبب الحقيقى للتأخير منه .

بعد ذلك كان على خط التليفون مستشار الشئون الاعلامية ايلى لانيادو ، وحاول المستشار إقناع السفير بأنه ينبغى الوصول إلى تليفون يمكنه من تلقى محادثات من اسرائيل خلال نصف ساعة على اكثر تقدير . واوضح ايلى انه غمر بطلبات من اجهزه الاعلام فى اسرائيل لسماع صوت السفير بعد أن سرت شائعات عن اصابته بجروح اثناء الاغتيال . ووعد

ساسون بأن يفعل اقصى ما يستطيع وإن كان لايملك من الأمر شيئا بالطبع وليس فى مقدوره عمل شىء . وكان رجال الأمن المصريون مصرين على موقفهم : بعدم مغادرة السفير البيت لحين وصول القوة المدرعة التى ستؤمن طريقه . وكانت الاعصاب متوتره ليس فقط بسبب المكالمات التى ترد من اسرائيل والشائعات التى تنتشر بسرعه ، وليس فقط لتأخير وصول القوه المدرعة المصرية ، ولكن أيضا بسبب استمرار الاذاعه المصريه فى التزامها بالصمت المثير للاعصاب واذاعتها الاناشيد والموسيقى فقط .. فلو أن الرئيس نجا ولم يصب لكانت سارعت بإذاعة صوته . وكلما مرت الدقائق كلما وجد من الصعوبة رفض طلبات صاحبة البيت الملحة بالجلوس الى المائده لتناول طعام الغذاء . وعلى الرغم من انه لم يكن يشعر بجوع وكان منزعجا جدا بسبب جرح مائير والقلق بالبيت ، فقد استجاب فى النهاية وصعد الى الطابق الثانى ، حيث كانت المائده هناك معدة . فى تلك اللحظه بالضبط سمع صوت ضجيج خارج المنزل وتوقفت عربتان مصفحتان تابعتان للأمن المركزى بباب البيت ، وصعد قائد القوه المؤمنه الى الطابق الثانى : وقال بشىء من الحده : «لقد تلقينا امرا باحضار سيادتكم للبيت » !! وقال ساسون : بالنسبه لى ، فأنا مستعد . ولكن كيف حال الريس ؟ فقال قائد القوة : « الحمد لله وقد تلقينا فى هذه اللحظه خبرا ، يقول ان كل شىء على ما يرام » وقال السفير «ا نا قلق لاننا لم نسمع صوته بالراديو » هل العقيد مستعد للاتصال مره أخرى بالمقر لاستصلاع الامر» . كان الضابط المصرى يمسك بيده جهاز اتصال . وجاءه الرد من المقر : « اطمئنوا .. كل شىء على مايرام » وبعد ان ودع اصحاب البيت بحراره نزل السفير ساسون الى الغناء متوجها الى سيارته . واعترضه الضابط : «على سيادته دخول السياره المصفحه . . تلك هى التعليمات التى لدينا » .

وبلاخيار ، اقحم السفير نفسه ومرافقوه بالسياره . وبدات القافلة تشق طريقها الى بيت السفير فى المعادى عبر طريق صلاح سالم ، حيث السياره القياديه تفسح الطريق بالميكروفون . وتوجه السفير الى قائد القوه اثناء سيرهم « لدى طلب » فأجابه القائد : « امرك ياسيدى .. اتجه اولا إلى المستشفى العسكرى بالمعادى » ونظر اليه الضابط بدهشه . وقال السفير موضحا : « اريد ان يفحص طبيب مختص احد رجالى الذين اصيبوا فى العرض» . ورد عليه العقيد : « على أن أتلقى موافقه من المقر » . ورن جهاز الاتصال . ورد المقر بالتصفى المطلق : « عليك الاستمرار فى السير الى بيت السفير » وفوجىء ساسون بهذا الرفض السريع . كذلك لم يكن يتصور وجود جثة الرئيس المصرى ملقاه بالمستشفى بعد ان قرر الاطباء هناك وفاته ، وفى جناح اخر يجرى التحقيق مع ثلاثة من المغتالين .

وبعد محاولات ومفاوضات خفف المسؤولون بالمقر موقفهم . منذ قالوا للقائد عبر جهاز الاتصال : اذهبوا أولا بالسفير الى بيته وبعد ذلك تنقل السيارة المصفحة الاسرائيلى الى

المستشفى . وفى ذروة الظهيرة .. توقفت السيارتان المصفحتان امام بيت السفير الاسرائيلى فى شارع بورسعيد بالمعادى . وصاح سائق السياره المصفحه القياديه على الحراس عبر مكبر الصوت : « افتحوا الباب » . ولم يسارع رجال الأمن الاسرائيليين بفتح البوابة إن حضور سيارتيـن مصفحتين إلى بيت السفير الاسرائيلى بالقاهرة قد لايبشر بخير فى مثل هذه الظروف ، حيث اطلقت النيران على الرئيس فى منصه الشرف ولم يعرف بعد من الذى اطلق عليه النار . ومره أخرى يدوى الصوت عبر مكبر الصوت : « افتحوا الباب » وتجمد اهل البيت فى مكانهم بالبالكونه خلال ثوان طويلة . ولم يكن هناك سوى شخص واحد يمكن انهاء هذا الموقف الحريج . وانطلق موشى ساسون من المصفحة ونادى الحراس :«انا هنا . كل شيء على ما يرام » واستدارتا السيارتان المصفحتان تنقل مائير الجريح الى المستشفى وهناك ثبت صدق تشخيص الطبيب عم محمود : الجرح بسيط .

فى تلك الاثناء انهمرت المكالمات التليفونيه على ساسون من اسرائيل . فقد ارادت اجهزه الاعلام سماع صوته . وارادت القدس سماع تقارير اكثر تفصيلا كما اراد اقاربه تهنئته على نجاته ، وتمكن ساسون بين كل مكالمة وأخرى باختطاف مكالمة مع سكرتير وزير الدفاع الجنرال عبد الحليم ابو غزاله وأبلغه السكرتير بان وزير الدفاع يمارس عمله كالمعتاد رغم جرحه البسيط وانه يسيطر سيطرة كاملة على قيادة الجيش المصرى .

وكان هذا الخبر مهدئا لا للسفير الاسرائيلى فقط ولكن لكل الجالية الإسرائيلية الحائره والقلقة .

وفى نفس هذا الاسبوع الذى توجه فيه السفير الإسرائيلى لإستقبال رئيس الحكومه وحاشيته الذى قدموا للاشتراك فى جنازة السادات ، توجه ساسون الى كنيسة المعادى الصغيرة للمباركه . والى جانبه وقف موشى ومائيرو « رقم ١ » ورقم « ٢ » والحراس الإسرائيليون الآخرون ورونى السائق بالطبع . ولفت شخص ما نظر السفير الاسرائيلى قائلا : الم يكن من الافضل الا تحضر العرض كما نصحوك . فقال ساسون ممسكا برأسه : « الله اكبر - لكم ان تتصوروا كان سيعتقد المصريون وفيما كانوا سيقولون لو لم أكن هناك على المنصة أثناء عرض ٦ اكتوبر العسكرى .

الفصل السادس عشر

القصــــــور

فتحت معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر المجال لعقد لقاءات شخصية بين اسرائيليين ومصريين ، وهذه اللقاءات « بدأت » تدريجيا وببطء . لقد تغلب الفضول على الذهول .. فالرغبة فى كشف ومعرفة ما يحدث بالطرف الثانى قد نحت جانبا المواضيع السياسية محل الخلاف . فحدث فى احدى الزيارات التى قام بها رئيس الحكومة مناحم بيجين لمصر واثناء اجتماعه مع الرئيس انور السادات فى جلسة مغلقة اقتصرت عليهما وحدهما .. حدث ان كان قادة مجموعات الحراس والتامين لدى الطرفين ينتظران خارج قاعة الاجتماع . وقد سنحت لهم الفرصة لتبادل بعض العبارات نظرا لقربهما من بعض . فقال قائد المجموعة المصرى لنظيره الاسرائيلى : « رأيـــت رجالك انهــــم يبدون صغارا جدا ، كالاطفال تقريبا ... » . وابتسم الاسرائيلى وقال « معك حق ، ولكنهم جميعا خريجو الجيش » . وقال المصرى بادب جم : « اذا سمحت ، اننى اعتقد ان ذلك خطأ .. فالشبان بشكل عام متهورين بطبيعتهم ولذلك يميلون للخطأ .. صحيح ان حارس الرئاسة يختار وفق مواهبه وقدراته لكنه يختار وفقا لولائه الشخصى الذى لا يقل اهمية عن مواهبه وقدراته . فلا يعقل ان يختار لمثل هذا المنصب الحساس من لا يوثق فى ولائه . والولاء لابد ان يتعرض لاختبار طويل يستغرق سنوات ، ولذا فان الحرس الشخصى عندنا هم بشكل عام اكبر سنا من حراسكم وربما كانوا ضعف عمر حراسكم » . وقال الاسرائيلى : « للسن ميزته بالطبع . لكن له عيبه ايضا . فالشبان بشكل عام اسرع وانشط وسريعى الرد واستلال السلاح » . وقال المصرى بصراحة « اعرف ذلك . ولكن الاخلاص يبقى مع ذلك هو الاهم » . ان رجال الحرس الخاص لانور السادات لم يكونوا من الهواة . فقد تلقوا تدريباتهم جميعا فى وحدة الحرس الرئاسى الامريكية واجتـــازوا فترة تخصص مدتها عام فى مهام الحراسة والتأمين ، قبل العودة للخدمة بالوطن وقد استثمرت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٤ ٢٥ مليون دولار فى تدعيم الوطن وتقوية امن انور السادات . وقد قام الجهاز السرى الامريكى بتدريب رجال الامن المصريين على عدة فنون بدءا من الافلات من مطاردة السيارات وانتهاء بالسيطرة على جماهير المتظاهرين ومثيرى الشغب . وقد زودت وكالة المخابرات المركزية حرس الرئاسة المصرى باجهزة اتصال حديثة جدا خاصة بتأمين المكالمات والاحاديث التى تجرى بين حرس السادات الخاص عند التنصت من قبل قوات عسكرية وبوليسية اخرى . واستبدل الحرس الخاص تدريجيا القباقيب الخشــبية الثقيلة بأحذية خفيفة وسريعة ، كذلك استبدلت « الموتورولات » التى كانوا يحملونها بايديهم للاتصال اللاسلكى فيما بينهم بسماعات

وميكروفونات صغيرة توضع فى ثنايا ملابسهم وجيوبهم . وكان ذلك بلا شك تحسنا فى منظومة الاتصالات الا ان للطبيعة حدودها . فكلما ازداد عمر الحارس كلما كان من الصعب عليه اكثر التعود على السماعة التى تؤذى الاذن ، الا انه حتى لو لم يكن الحرس الخاص يعانى من قيود السن .. لكان ببقاء الرئيس انور السادات حيا بعد انقضاض المغتالين عليه ظهر يوم السادس من اكتوبر امرا مشكوكا فيه . ذلك ان الحرس الشخصى الخاص ، لم يكن ببساطة فى المكان الصحيح . فعندما وصل انور السادات الى « ميدان النصر » لمشاهدة العرض كان يحرس سيارته السوداء ثلاثة من الحرس الشخصى من كل جانب واثنان من الخلف . بيد انه عندما احتل الرئيس مكانه فى الصف الاول وقف الحرس الشخصى بعيدا عنه ، وراء المنصة (بل إن كل جلس وراء الاخر فى مكان واحد) . ولم يكن اى من الحرس الشخصى يجلس وراء السادات مباشرة فى الصف الثانى . ولو ان احدا من الحرس كان يجلس فى هذا المكان اثناء ابقضاض المغتالين لامكن بسهولة منع الرئيس من القيام من كرسيه وقوفا .. جاعلا من نفسه بذلك هدفا سهلا لرصاص المغتالين . وربما امكنه سحب الكرسى ودفعه الى الارضية لانقاذه من وابل الرصاص . وليس ثمة شك فى ان المكان الذى كان يجلس فيه حرس السادات الخاص اثناء انقضاض الاسلامبولى ورفاقه كان مكانا خاطئا . وهذا المكان لم يمكن المغتالون من اصابة السادات فحسب ، ولكنه مكنهم ايضا من افراغ خزانات اسلحتهم فى جسده بلا اية عقبات وبكل سهولة .

ولا خطورة عن ذلك ، حقيقة ان حراس انور السادات الخصوصيين لم يكونوا مزودين بالسلاح الصحيح . فقد كان كل ما معهم هو المسدسات فقط ، ومع ذلك فقد ظهر ان هذه المسدسات سيئة تماما ، ولم تصمد امام الرشاشات والقنابل اليدوية التى كانت مع الاسلامبولى ورفاقه .

لقد قرر ثلاثة من كبار مستشارى الشؤون الامنية الامريكيين - بشكل قاطع فيما نشروه من استنتاجاتهم حول اغتيال السادات فى صحيفة « النيويورك تايمز » - انه كان بمقدور اثنان من رجال الامن مزودين ببنادق آلية إحباط عملية الاغتيال بلا صعوبة . واكد الثلاثة ان فرص نجاح المغتالين كانت معدومة عندما قفزوا من السيارة اللورى .. الا ان هذه الفرص كانت تزداد كلما نجحوا فى التقدم تجاه المنصة بلا عائق » . وكان انطباعهم هو ان رجال الامن قد انتابهم الذعر ، وربما كان احد اسباب فزعهم وارتباكهم هو عدم حملهم السلاح المناسب للرد على نيران الرشاشات التى كان يحملها الاسلامبولى ورفاقه .

وقد اكد الرئيس مبارك بنفسه ان حرس السادات كانوا مزودين بالمسدسات فقط . لم انهم - للاسف الشديد - فوجئوا تماما بما يحدث . وقد مرت ٢٠ ثانية حتى افاقوا من المفاجزة وبدأوا فى الرد على النيران . وحتى عيندما فعلوا ذلك ، واتضح لهم ان رصاصاتهم

لا تصيب المهاجمين – تسمروا فى اماكنهم ولم ينقضوا إلى الأمام لكى يقصروا مدى النيران . وهكذا نجح الاسلامبولى ورفاقه فى الوصول الى المنصة ولم يصابوا إلا حينما كانوا بالقرب من المنصة او عندما بدأوا فى الهرب . وفى الفيلم التليفزيونى الذى سجل سير عملية الاغتيال ، امكن رؤية احد رجال الامن وهو يفرغ خزنة مسدسه فى اتجاه المغتالين دون ان يصيبهم . .

بيد انه من غير المعقول ان نلقى بكل مسؤولية القصور الذى ادى الى الاغتيال على رجال وحدة الحرس الشخصى الخاص بانور السادات . لقد كان كل جهاز الحراسة والتأمين المصرى المعقد والمتشعب ، الذى كان يتعين عليه الدفاع عن حياة الرئيس .. كان مليئا بالثغرات كثغرات الغربال . وكانت كل ثغرة من هذه الثغرات قاتلة فى حد ذاتها ، لقد كان هذا اليوم يوما اسودا بالنسبة لاجهزة الأمن المصرية .

لقد استمر الملازم خالد فى الخدمة بوحدته ، بل رقى ايضا على الرغم من اتهامه من قبل بإقامة علاقات مع التنظيمات الاسلامية بل وحذرت منه المخابرات العسكرية . ولم يمنعه احد من الاشتراك فى العرض العسكرى على الرغم من اعتقال اخيه محمد فى حملة الاعتقالات التى جرت فى الثالث من سبتمبر . ولم يواجه الاسلامبولى اية صعوبة فى تقديم ثلاثة « خلفاء » بدلا من الثلاثة الغائبين من وحدته ، بدون ان يكلف احد من رجال الامن نفسه بفحص هويتهم او اختبار مدى صدقهم .

ثم اثناء الاستعدادات للعرض ، لم تكن هناك أية هيئة أمنية تتأكد من تنفيذ تعليمات الامن بالفعل بشأن نزع السحابات من البنادق . والتفتيش الذاتى للجنود – الذى يهدف لضمان عدم حملهم ذخيرة حية – من المحتمل انه لم يتم اطلاقا ، واذا افترضنا انه تم ، فانه لم يتم بشكل جاد ، حتى التفتيش الذى قام به ضابط الحرس الجمهورى فى وحدة خالد الاسلامبولى والذى كان سيفشل العملية كلها . كان تفتيشا سطحيا وسريعا . وكقاعدة عامة ، فان ضباط الجيش – وخالد من بينهم – فوق الشبهات ويعفون من اى تفتيش .

كذلك فان خطة تأمين مسار العرض كانت خطة معيبة لأنها اثرت على الكيف . فالاستخدام المفرط الذى قامت به اجهزة الامن لالات الجنود وجنود الشرطة الذين كانوا يقفون على جانبى الطريق كان استخداما مظهريا . ذلك لان احدا من هؤلاء الجنود لم يكن يحمل ذخيرة حية ، كذلك لم تكن هناك سحابات بالبنادق . فماذا عسى ان تكون فائدتهم أمام مغتالين مسلحين وهم على هذا الحال ؟

ولم يقتصر الامر على ذلك فقط ، بل إن رجال الشرطة المدنية الذين يرتدون الملابس البيضاء وقوات الامن المركزى .. قامـــت صبيحة يوم العرض باغلاق منطقة مدينة نصر

بالفعل ، وحظر الدخول على الاشخاص من الخارج باستثناء هؤلاء الذين كانوا يظهرون بطاقة ذات لون وردى . بيد انه قد اتضح انه لم تكن هناك صعوبة فى الحصول على مثل هذه البطاقات ، والاهم من ذلك : انه كان من الممكن لمغتال قضى ليلة ما قبل العرض فى احد الفنادق الفاخرة الموجودة بمدينة نصر كفندق « شيراتون هليوبوليس » او « هيات فرينس » — ان ينهض من نومه ويتقدم مترجلا الى منطقة المنصات ويجلس بالمقصورة التى تقع امام منصة الشرف بدون ان يحاول احد اعتراضه او تفتيشه . وكان بمكنه الجلوس باحد المقاعد الخالية الكثيرة ، وان يشترى بقرش واحد قبعة ورقية صفراء مصنوعة من صفحات الرسم الكبيرة ويشاهد هبوط طائرة الهليكوبتر الرئاسية من طراز « جازل » ، والانتظار لمسافة امتار معدودات لمجئ قافلة الرئيس إلى المنصة . كذلك كان تأمين المنصة مليئا بالثغرات . ولو ان الحراس الشخصيين نصبوا على المنصة بطريقة افضل — لكان ساعد ذلك فى احباط العملية ، الا ان مثل هذه المساعدة ربما لم تكن لازمة اطلاقا لو ان المنصة كانت اعلى بكثير من مسار العرض البعيد بدرجة كافية عن الطريق وعن الدبابات وسلاح المدفعية التى تمر امام المنصة . وعلى سبيل المثال : لو انه كان هناك لوح زجاجى امنى يفصل بين الذين يقدمون العرض وبين الجالسين فى المنصة ، ولو كان هناك رجال قناصة يقفون وراء المنصة مزودين ببنادق ذات مناظير تلسكوبية لاختلف الأمر تماما .

وربما لم تكن هناك حاجة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، لو انه كان هناك جنودن شرطة ورجال امن يفصلون بين الرئيس وبين طوابير العرض . وصحيح ان واجهة منصة الرئاسة كانت تعج بالعسكريين ورجال الامن .. قبيل بداية العرض . وان مصورى الصحف الدولية الذين كانوا يلتقطون الصور للجالسين بالمنصة كانوا متداخلين ويتجولون بين العسكريين ورجال الامن الا انه لم تتبق سوى حفنة ضئيلة من جنودن الشرطة ورجال الامن بين الفناء الذى يقع بين المنصة وبين مسار العرض عند بدء العرض . وقد جلس الجنود ورجال الامن على مقاعد اسفل السور الفاصل الرخامى المائل الى الحمرة الا انهم فروا جميعا هاربين عند بداية الهجوم تاركين وراءهم الرئيس مكشوفا فى مكانه . وقد اظهرت صور الاغتيال التى التقطها مصور الصحيفة القاهرية « الاخبار » — احد مصورين لم يهربا وظلا فى مكانهما ولم يغدراه لكى يسجلا بكاميراتهما هذا الحدث الفظيع — اظهرت انه لم يكن هناك سوى رجل امن واحد فقط يرد على النيران من خاصرته فى اتجاه المنصة . وفى تلك الصور امكن بوضوح رؤية الكرسى اليتيم الموجود فى مقدمة المنصة والذى كان مخصصا لرجل الامن لكنه كان خاليا حينما اقترب القتلة من المنصة . لقد كان بمقدورهم ان يقفوا حتى على الكرسى لو كانوا قد ارادوا ذلك ، لكنهم لم يحتاجوه واكتفوا بالوقوف على أطراف أصابعهم لكى يوجهوا السلاح الذى كانوا يحملونه الى ما وراء السور الحاجز .

الى كومة الكراسى التى كان ملقى تحتها السادات الذى يحتضر .

ومن الصعب ان نفهم كيف فشلت اجهزة الامن المصرية التى اشتهرت بانها افضل اجهزة امن فى العالم العربى – هذا الفشل الذريع – والاصعب من ذلك ان نفهم ذلك اذا ما وضعنا فى اعتبارنا ما تجمعت لدينا من انباء مسبقة عن اعتزام « الجهاد » القيام بعملية اغتيال ، ان السادات قد اصبح هدفا وعن فشل عملية اغتيال جرت بالمنصورة .

لقد ارتكبت اجهزة الامن كل الاخطار الممكنة تقريبا اثناء العرض العسكرى اى بعد شهر واحد من نجاح نفس هذه الاجهزة وإظهارها فاعلية مذهلة فى تحديد واكتشاف الخلايا الارهابية الاسلامية فى حملات الاعتقال التى جرت فى الثالث من سبتمبر وفيما اعقبها من حملات اخرى .

وفى محاولة جزئية لتفسير اسباب هذا الفشل يتعين علينا ان نتوقف أولا عند بنية اجهزة الامن المصرية المعقدة والمتشابكة ، والتى ادى عددها الكبير إلى صعوبات كبيرة فى التنسيق بينها .

ففى السادس من اكتوبر عام ١٩٨١ تحملت ثمانية اجهزة على الاقل مسؤولية تامين حياة الرئيس وهى : الشرطة السرية (المباحث) وشرطة الرئاسة والحرس الرئاسى الخاص والحرس الجمهورى ، والمخابرات العسكرية والشرطة العسكرية والمخابرات العامة (المسؤولة عن إحباط العمليات التخريبية خارج البلاد) وجنود الامن المركزى الذين تخصصوا فى قمع الاضطرابات .

وترجع الصعوبة الرئيسية فى فشل هذه الاجهزة فى احباط عملية الاغتيال إلى أن هذه الجهات تخضع لاربعة عناصر مختلفة : الحرس الجمهورى ، وحرس الرئاسة الخاص ، وشرطة الرئاسة ، وتخضع لامرة الرئاسة ، اى للاشراف المباشر لنائب الرئيس الذى كان مسؤولا عن تنسيق نشاطاتها .

وكانت الشرطة العسكرية والاستخبارات العسكرية تخضعان لوزارة الدفاع .. بينما كانت الشرطة السرية (المباحث) والامن المركزى يخضعان لوزير الداخلية . أما المخابرات العامة فقد كانت تخضع مباشرة لرئيس الجمهورية وكان رئيسها يعين بامر جمهورى خاص

وكان لكل من هذه الاجهـــزة فى السادس من اكتوبر دور ما فى تأمين الرئيس والعرض ، إلا انه لم تكن هناك سلطة واحدة تضطلع بدور التنسيق بين عمل هذه الاجهزة .

لقد ادى عدم التنسيق إلى عدم الوضوح فى توزيع المهام والأدوار .. فهل كانت

وزارة الداخلية المسئول الرئيسى فى التأمين أو وزارة الدفاع ؟ واذا كان الجيش مسئولا عما حدث فلم لم تلق عليه مهمة تأمين مسار العرض وانما القيت على جنود الامن المركزى الخاضعين لوزارة الداخلية ، واذا كانت وزارة الداخلية هى المسؤول .. فلم لم تصر على اقامة جهاز حراسة مزدوج على منصة الشرف يقابل جهاز الحرس الرئاسى والشرطة العسكرية ؟ فضلا عن ان النبوى إسماعيل .. وزير الداخلية ، هو الذى حرص - على حد قوله - على اطلاع السادات على خطورة انباء محاولات اغتياله . وقال قائد حرس الرئاسة العقيد احمد سرحان على سبيل المثال: إن مهامه الرئيسية كانت قبل اى شئ التاكد من شخصيات الجالسين بالمنصة والتاكد من ان اى عنصر غير معروف لم ينجح فى التسلل إلى صفوف الجالسين .

وبالنسبة للاخطار الخارجية .. فقد اعتمد - على ما يبدو - على جهات الامن الأخرى . فهل كان عدم التنسيق بين الاجهزة الامنية نتيجة لقصور بيروقراطى فقط وعدم وجود هيئة منسقة أو كان انور السادات ضحية نزاعات خفية بين الهيئات الامنية العسكرية وبين الهيئات الامنية المدنية حول مكان الصدارة وزعامة جهاز الحراسة والتأمين ، وضحية نزاع خفى بين هذه الهيئات بشقيها وبين رئاسة الجمهورية ، لقد وجه وزير الدفاع الجزال ابو غزالة فور العرض اصابع الاتهام الى اجهزة الامن المدنية واعفى اجهزة الامن العسكرية وقائد العرض من مسؤلية الفشل .

والى جانب الثغرات العديدة فى جهاز الحراسة والتامين وعدم وجود تنسيق بين مختلف الهيئات الامنية .. فانه من غير الممكن تجاهل « التصور » الذى اسهم فى وقوع هذا القصور . ففى السادس من اكتوبر ١٩٧٣ لاحظت اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية كل اشارات التحذير الموجودة على السطح . وبالرغم من ذلك فقد اعتقدت ان احتمال نشوب حرب « ضيئيل للغاية » . وفى السادس من اكتوبر ١٩٨١ حللت اجهزة الامن المصرية الشفرات التحذيرية الكثيرة الموجودة على الساحة ولاحظت ازدياد قوة الارهاب الاسلامى وعلمت بعبود الزمر الذى يتجول حرا باحثا عن الانتقام ، ومع ذلك لم تتصور ان شيئا ما يمكن ان يحدث بالعرض العسكرى . ان الجيش لم يكن يعتبر دائما وابدا اخلص نصير وسند للنظام وكان فوق اية شبهات فحسب ، بل كان هناك اعتقاد شاع بين اجهزة الامن المصرية بان العدد القليل من تنظيم « الجهاد » الذين نجح مع ذلك فى التسلل الى صفوف القوات المسلحة قد القى القبض عليه . إضافة لذلك فقد اعتقدت بانه لا داعى للقلق والخوف طالما ان احدا من الجنود المشتركين فى العرض غير مسلحا .

ومع ذلك فانه ينبغى الاعتراف بانه على الرغم من المعلومات الكثيرة وعلى الرغم انه

كانت لديها اعترافات تفصيلية للذين ألقى القبض عليهم – وهم كثير – وسجنوا من تنظيم « الجهاد » .. فان مهمة الانقضاض على الاسلامبولى ورفاقه لم تكن مهمة سهلة بالنسبة لأجهزة الامن . لقد كانت الميزة التى تمتع بها هؤلاء هى قلة عدد الذين يعرفون بسر الخطة والوقت القصير الذى مضى منـــذ اللحظة التى قـــرروا فيهـــا العمل وحتى انطلاقهم لتنفيذ الخطة .

فى ذلك الوقت نجح الاربعة فى استغلال كل الثغرات المتاحة فى جهاز الحراسة والتأمين . لقد كانت صعوبة تحديدهم والقبض عليهم تماثل الصعوبة التى واجهت اجهزة الامن فى المسارعة فى مصر وتحديد مهاجمى المعهد الفنى فى القاهرة فى عام ١٩٧٤ ، وكذلك فى تحديد شخصية قتلة وزير الاوقاف السابق محمد الذهبى عام ١٩٧٧ .

فهل كان للسادات دور فى موته ؟ لقد حاولت بعض العناصر المصرية الادعاء بان الرئيس نفسه كان هو الذى أمر بتخفيف الطوق إلا من فوق المنصة ، فهو الذى قال لرجال الامن « من فضلكم اذهبوا فأنا هنا بين اولادى » . حتى حسنى مبارك قال « لقد عارض السادات الحراسة لانه احس بأنه يعيش بين شعبه ، ولم يتوقع ان يحدث شىء من هذا القبيل » . وحتى لو صحت هذه الاقاويل .. فان ذلك لن يخفف من خطورة قصور أجهزة الأمن المصرية .. ذلك القصور الذى أدى الى اغتيال السادات .

الفصل السابع عشر

نجمة سوداء فى برواز مذهب

ظل أنور السادات راقدا تحت كومة المقاعد على منصة الشرف دقائق طويلة إلى أنقذ من هناك وحمل إلى طائرة الهليكوبتر « جازل » التى كانت تنتظر خلف المنصة . والبيان الرسمى الذى اذيع غداة الاغتيال ، والذى يقول إن نقل الرئيس الجريح الى الطائرة الهليوكبتر استغرق اربعة دقائق على اكثر تقدير ليس هناك ما يؤكده ويدعمه .

لقد مضى وقتا طويلا حتى افاق الحراس من صدمتهم وشقوا طريقهم الى الرئيس بين الكراسى والمقاعد المقلوبة والجرحى يتأوهون من الآلام . هناك ايضا دقائق اخرى ضيعت فى التفكير فيما اذا كان ينبغى الانتظار لحين وصول سيارة الاسعاف الى واجهة المنصة – من الاتجاه الذى قدم منه القتلة – لحمل السادات إلى الطائرة الهليكوبتر ، ام إخراج الرئيس الى الطائرة عبر الابواب الثابتة خلف المنصة . وفى النهاية نقل الى سيارة الاسعاف التى قامت بحمله الى الطائرة .

وهناك حقيقة بعيدة عن أى شك وهى ان : طائرة « الجازل » هبطت فى الساحة المخصصة للطائرات فى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى حوالى الساعة ٢٠ : ١٣ ظهرا . اى بعد حوالى ٤٥ دقيقة من لحظة الاغتيال . ٤٥ دقيقة ! فاذا وضعنا فى الاعتبار ان المستشفى تبعد بحوالى ١٢ كم فقط عن منصة الشرف فى مدينة نصر ، وان الطائرة تنتظر هناك على بعد امتار معدودة من المنصة .. فلا مفر من الاستنتاج من ذلك بان عملية الانقاذ كانت بطيئة بطءاً قاتلا .

ومن الصعب ان نقرر : الى اى مدى كان هذا القصور مصيريا لانقاذ حياة انور السادات ؟ إلا ان هناك رأيا واحدا على الاقل يرجع مصـــدره الى المجلة الكويتية الاسبوعية « الوطن العربى » يؤكد ان انور السادات قد لفظ انفاسه على ارضية منصة الرئاسة من الرصاصات التى اخترقت صدره وعنقه واصابت أجزاء أخرى من جسده . وقد انطلقت هذه الرصاصات فى البداية من بندقية القناص حسين عباس ، الذى كان يقف فوق سطح السيارة اللورى ثم من بنادق بقية المغتالين بعد ذلك .

ولكن حتى لو كانت قد تبقت انفاس فى روح الرئيس المصرى فى رقاده على ارضية المنصة لكانت الدقائق الخمس واربعين التى مضت حتى وصوله إلى المستشفى قد قضت على بصيص الامل فى انقاذه وقطعت فتيل حياته .

والمقولة المصرية الرسمية غير مستعدة الا للاعتراف فقط بان انور السادات قد نقل إلى

المستشفى فاقد الوعى . وكان النبض ضعيفا وغير منتظم . وكان وجهه مغمورا بالدم الذى أخذ يتدفق من جروحه ويلطخ ملابس القائد الاعلى للجيش المصرى . وقد سارعوا به الى غرفة عمليات القلب والصدر فى قسم الانعاش . واخذ طاقم مكون من احد عشر طبيبا يبذلون جهود انعاش يائسة أوردها تقرير المستشفى الطبى بتفصيل شديد وقد صدر فى وقت متأخر بتوقيع المدير اللواء د . احمد سامى كريم .

تحدث د . كريم عن الجهود التى بذلت فى « محاولة لانقاذ حياة السادات » حسبما اوردها التقرير على النحو التالى :

- ازالة التجمع الدموى بالمرئ وتنفس صناعى بواسطة ماكينة التنفس .
- تدليك قلب خارجى .
- حقن الرئيس بمواد منشطة للقلب .
- نقل دم بفم الرئيس بكميات كبيرة .
- ادخال انبوب الى الجانب اليسارى من القلب لتفريغه من الهواء والتجمعات الدموية .
- تسجيل ضربات القلب وضغط الدم والنبض ونشاط المخ بواسطة اجهزة متابعة وضعت الى جسم الرئيس .

وذكر د . كريم فى تقريره : انه قد اتضح اثناء هذه الفاعليات والنشـــاطات ان القلب لا يستجيب للتدليك الخارجى . كذلك لم تجد الصدمات الكهربائية وسارع الاطباء بفتح الصدر لتدليك القلب من الداخل وأيقنوا أن القلب فى حالة ضعف عام تام . وقد تجمع فى الصدر دم كثير متخثر ، وكانت الرئة اليسرى فى حالة تهتك تام . واستمرت عمليات تدليك القلب ومحاولة التنفس الصناعى .

وقد تكشفت الصورة التالية من واقع اشعات الرنتجن التى اجريت للسادات وهو راقد فى غرفة العمليات : ظهرت كسور فى اشعات الصدر فى الضلوع وتهتك الرئة اليسرى . وأظهرت صور الاشعة بوضوح وجود رصاصة فوق عظمة الترقوة اليمنى ، ووجود شظايا كثيرة فى الجانب الايسر من الصدر « شظايا » كما جاء فى تقرير المستشفى . الا ان الصحف المصرية نشرت رسما كروكيا يظهر اماكن اصابة خمس رصاصات فى جسم الرئيس وذكرت مجلة « روز اليوسف » القاهرية فى عددها الصادر فى ١٦ نوفمبر ١٩٨١ انه قد اخرجت من جسم الرئيس ٢١ طلقة . واذا ما وضعنا فى الاعتبار ان شظايا القنابل التى القاها الاسلامبولى ورفاقه لم تصب اى من الجالسين فى المنصة ، فانه يبرز تساؤل عما اذا

كان التقرير الطبى قد استبدل عن عمدٍ كلمة « الرصاصات » بكلمة « الشظايا » لكى يخفف من وقع الصدمة على الشعب المصرى .

وأظهرت صور اشعة الفخذ الايسر وجود كسر فى الثلث الاسفل من العظمة . ولم تظهر صور الجمجمة واليد اليمنى اية اصابات .

وفى الساعة ١٤,٤٠ من يوم الثلاثاء السادس من أكتوبر ١٩٨١ أشارت أجهزة متابعة قسم الإنعاش بمستشفى المعادى إلى توقف قلب الرئيس المصرى . وقرر طاقم الاطباء الذى احاط بسرير الرئيس توقف نشاط المخ ايضا . وقد صاغ الاطباء سبب الوفاة فى التقرير السبى بعبارات مقتضبة ومحددة : « صدمة قوية افترنت بنزيف داخلى بالقفص الصدرى وانهيار الرئة اليسرى والاوعية الدموية فى جدار الرئة » .

وقد ذيل التقرير بتوقيع اللواء احمد سامى كريم مدير المستشفى وبتوقيع عشر أطباء اخرين اشتركوا فى جهود الانعاش .

وأعد اللواء احمد سامى كريم نفسه لمغادرة الغرفة الى الممر . لقد كان مستعدا لان يدفع اى مبلغ نظير تحاشيه انظار جيهان وبنات انور الثلاثة اللائى تلاحقنه بنظرات شاحبات ويقلمن اظافرهن باسنانهن .

ولم تكن جيهان قد وصلت المستشفى من منصة الرئاسة وانما من بيتها بالجيزة . فعلى الرغم من انها شاهدت زوجها يسقط على المنصة ويحمل من هناك الى المستشفى فانها لم تستطع مرافقته لكنها اضطرت الى الانتظار لحين نقلها بالسيارة اولا الى البيت بالجيزة لاعادة الاحفاد المفزعين الى البيت . ومن هناك سارعت الى المستشفى يرافقها بناتها وقد خدشت ساقيها واتسخت ملابسها ، وكان جمال السادات بعيدا ، فقد كان فى رحلة الى الولايات المتحدة ولم يكن يعلم بعد بالكارثة .

وعلمت جيهان بالحقيقة المرة بمجرد ان التقت عيناها بعين الدكتور كريم . وعلى الرغم من انها شعرت بذلك منذ اللحظة التى شاهدت فيها زوجها يتهاوى على الارض بالصف الاول من منصة الرئاسة .. فانها لم تسمح لليأس أن يسيطر عليها وظلت تأمل حدوث معجزة . اما الان فقد راح اليقين الفظيع يطعنها كألف سكين ويجرح جسدها كما لو كان حديدا مطروقا .

وفجأة أخذت تطفو وتجول بخاطرها ذكريات سنى حياتهما سويا .ففى اول مرة رأته فيها كان رجلا متزوجا اكبر منها سنا حركى فى جماعة « الضباط الاحرار » ، لم يتصور انه سياتى اليوم الذى يطلب فيه يدها . وتتوالى الذكريات متلاحقة بعد ذلك الزواج ، ثم الثورة ثم السنوات الصعبة التى ركن فيها « الى الظل » ثم السنوات الافضل التى شغل فيها

مكان جمال عبد الناصر ونجح في التغلب على المؤامرة التى حيكت ضده فى عام ١٩٧١ . ثم المخاوف والشكوك التى واكبت حرب اكتوبر ورحلة القدس . والصراعات الداخلية . تفاهة وضيق افق آرائه عن مكانة المرأة ، وفى مقابل ذلك تسامحه وصبره الذى التزم به بسماحه لها بمواصلة نشاطها الاجتماعى . والوقار والثناء الذى تتمتع بهما السيدة الاولى الى جانب حملات التشهير وتشويه السمعة التى تجرى وراء ظهرها . كل ذلك نماذج واختلط ببحر من الدموع .

كانت إحدى البنات تجهش ببكاء مرير يمزق القلب ولزم الامر تهدئتها . وطوقتها جيهان بذراعيها على الرغم من ان حركاتها كانت ميكانيكية وبدت وكأنها قد فقدت توازنها والسيطرة على جسمها . بعد ذلك استدارت الى الاطباء المحيطين بهن طالبة منهم السماح لهن بالاختلاء بجثة زوجها بحجـــرة العمليـــات لبضع ثوان . وقد سمحوا لها - محرجين - بما تريد لكنهم رافقوها خشية ان يغمى عليها بالقرب من السرير .

ودخلت جيهان الحجرة وخرجت بعد حوالى دقيقة ، وهى تغطي وجهها بيديها وخرج وراءها سيد الجندى الطبيب الجراح ممسكا بيده نجمة سوداء بروازها واضلعها مذهبة ، يتدلى خيط دقيق منها . وقد دمعت عيناه . وبحث عن احد ما ليسلمه « وسام سيناء » فلم يجد . واخيرا وقع بصره على الحارس الخاص لانور السادات الذى كان يقف امامه مكتئبا مكفهر الوجه . واقترب منه الطبيب وسلمه الوسام دون ان يقول شيئا ، لكى يحتفظ به . واخفى الحارس الوسام فى جيبه وبكى .

وسرى خبر وفاة انور السادات فى المستشفى بسرعة البرق وفجأة تحطم الصمت الذى جثم على صدر المستشفى الضخم منذ اللحظة التى رقد فيها انور السادات بحجرة العمليات . وأخذت تتعالى اصوات الصراخ والبكاء من الممرات بمجرد خروج الاطباء من حجرة العمليات . وأخذ المرضى الذين كانوا يرقدون بأسرتهم يندفعون الى ابواب قسم الانعاش لرؤية الرئيس ، واخذ فريق من جنود الشرطة يدفعونهم بصعوبة بالغة وقد شكلوا سورا اغلقوا به القسم . بعد ذلك رأى المرضى والاطباء من شرفات وبلكونات المستشفى - التى تطل على النيل - قافلة السيارات التى نقلت جيهان السادات وبناتها .

وقد بلغ عدد الجرحى من الجالسين بمنصات المصعد العسكرى فى ذلك الوقت ثلاثة واربعين جريحا وكان من بين القتلى ياوران الرئيس العسكرى اللواء حسن علام ومصوره الشخصى محمد رشوان والاسقف القبطى صموئيل ، وكان من بين الجرحى السفير البلجيكى والسفير الكوبى والسكرتير الاول فى سفارة اســـتراليا وعدد من الضيوف الامريكيين .

الفصل الثامن عشر

اختبار النائب

فى اللحظة التى أقلعت فيها الطائرة وعلى متنها انور السادات فى اتجاه مستشفى المعادى انطلقت على الفور من مكان قريب من المنصة سيارة عسكرية فى سرعة رهيبة مخترقة شارع هليوبوليس ثم شارع صلاح سالم ثم شارع السيدة عائشة بطول السور القديم ، ثم سارت بعد ذلك بطول النيل إلى أن توقفت عند ابواب المستشفى. وكان يجلس وراء عجلة القيادة رجل قصير الشعر يرتدى الملابس العسكرية الملطخة بالدماء .

وانحنى حراس بوابة المستشفى إلى نافذة السيارة ليطلبوا وثائق السائق لفحصها ، لكنهم فوجئوا بشخصية من يقود السيارة . وسارعوا بفتح أبواب المستشفى على مصراعيها لتمكين حسنى مبارك نائب الرئيس من الدخول بسيارته والوقوف بباب المستشفى والانطلاق منها بسرعه صاعدا درجات السلم .

لقد تمكن حسنى مبارك من اكتساب الخبرات فى المواقف الصعبة التى مرت خلال السنوات الست التى عمل فيها كظل للسادات . فمن بين الاحداث التى حفرت بذاكرته « اضطرابات الغذاء » التى حدثت بالقاهره فى يناير ١٩٧٧ .. عندما خرج آلاف العمال إلى الشوارع للتظاهر ضد النظام بسبب تزايد الازمة الاقتصادية ، وقد اشعل المتظاهرون النيران وأقاموا الحواجز والمتاريس بل هددوا بالسيطره على قصر الرئاسه ووزارات الحكومة . وقد كلف السادات مبارك بالتعامل مع المشكلة وعلى الفور نفذ الأمر وبالكفاءة التى تميز الرجل العسكرى ، وكان اول قرار اتخذه هو ادخال وحدات الجيش إلى المدينه لقمع الاضطرابات والمظاهرات ، وقد اقدم على هذا الاجراء وهو يعلم ان هذه الاضطرابات من الممكن ان تمتد بسرعه إلى الجامعات وإلى قطاعات اخرى فتجرف الجماهير إلى ثورة شعبية . وقد اعترف السادات منذ ذلك الوقت بقدرة مبارك وادرك انه يمكن ان يثق لا فى اخلاصه وولائه ولكن ايضا يمكنه الاعتماد على ذكاء وفطنة النائب الذى اختصمه واعده لوراثته . وقد اظهر حسنى مبارك براعة فائقة فى التعامل مع الجبهة الداخلية .

إلا أن اية « اضطرابات غذاء » أو ثورة أو ازمة اقتصادية لا يمكن ان تقارن بخطورة هذه السحب المهددة الكثيفه والسوداء التى تضافرت واتحدت فى سماء مصر فى تلك الثوانى التى وقعت فهيا عملية الاغتيال على المنصة الرئاسية ، وبالرغم من أنه كان جاثيا على ركبتيه بين الكراسى والمقاعد يتحسس جوفه غير مصدق انه حى .وانه نجا من الموت أمام

فوهة الاسلامبولى الفاغرة ، حسنى مبارك استطاع بسرعة تنظيم افكاره وترتيبها وجمع شتاتها والسيطره عليها . إنه لم يكن يعرف القتلة ولا أهدافهم ، لكن حقيقة كونهم قفزوا من سيارة عسكرية ويرتدون الزى العسكرى جعلته بعد نفسه للاحتمال الأردأ من اى احتمال آخر : وهو أن يكون الاغتيال مؤامرة حيكت داخل الجيش لاسقاط السادات والاستيلاء على الحكم بالقوة . ومن المحتمل الا تكون وحدة واحدة هى التى اضطلعت بالاغتيال ، فربما اشتركت فى العملية مجموعة وحدات .

أكثر من ذلك فقد داهمه خوف بأن يكون السلاح الجوى قد اشترك فى المؤامرة أيضا وليست الوحدات البرية فقط .

لقد كان حسنى مبارك مقتنعا ككثيرين غيره بالعرض العسكرى - ممن شاهدوا الاسراب الجويه - بأن الطائرات التى مرت بارتفاع منخفض وبصوت ردصم الآذان من فوق المنصة الرئاسية فى نفس الثانية التى انقضى عليها المتآمرون الأربعة .. هذه الطائرات كانت جزءا من المؤامرة وكان الهدف منها جذب الأنظار إلى السماء بصرف اهتمام وانتباه الجالسين بالمنصه عما يحدث على الأرض ، وأيضا للتغطية على صوت الطلقات وانفجارات القنابل اليدويه بحيث يتبقى وقت حيوى للمقاتلين للوصول إلى المنصة .

لقد أعياه التفكير فى ذلك فى حد ذاته وسبب له آلاما ثقيلة . أمن المعقول ان يكون السلاح الجوى قد اصيب بالمرض الخبيث .. وهو السلاح الذى تعهده هو ذاته بالرعاية طيلة السنوات وكان يعرف كل واحد من طياريه معرفة شخصية ؟

فى هذا الوقت الذى كان يرقد فيه الجرحى على الأرض والذى بدأ فيه الحراس المرتبكون يطلقون نيرانهم فى الهواء بل وأصابوا المارة ، وعندما حاول رجال الشرطه العسكريه بصعوبه اغلاق طريق الجماهير التى انقضت فى اتجاه المنصه .. فى هذا الوقت كان من الصعب استبعاد الاحتمال الاردأ ، اى : اشتراك السلاح الجوى ايضا فى المؤامرة . هذه الحقيقة فى حد ذاتها - هكذا اعتقد مبارك - تنذر بالسوء إزاء إمكانية التغلب على المؤامرة بسرعة. ولم تتبدد مخاوفه هذه إلا بعد انقضاء فترة ما من الوقت .

وكانت هناك حقيقة واحدة داهمت فكره منذ أول ثانية اكتشف فيها انه لا يزال على قيد الحياة ، هذه الحقيقة هى ان : مصير مصر فى هذه اللحظات العسيرة فى يديه وحده . فهو الرجل الذى فى مقدوره الآن وقف القطار الذى « يطير » الآن بسرعة رهيبة نحو الدرك الاسفل للهاوية . بيد انه من الممكن ان يكون الوقت مازال متاحا ولم يمض

بعـد . لقد فطن إلى انه إذا ما فكر بصفاء ذهنى وعمل بثبات ورباطة جأش .. فإنه سوف يمكنه إعادة العجلة إلى الوراء .

وفجأه يلمح بطرف عينه اكتاف وزير الدفاع العريضة اللواء أبو غزالة يتحدث فى الطرف الآخر من المنصة . لقد كان أبو غزالة فى حرب اكتوبر قائدا لسلاح المدفعية فى الوقت الذى كان فيه مبارك قائدا للسلاح الجوى . فالخدمه العسكرية المشتركة والجلوس سويا إلى مائدة واحدة فى اجتماعات هيئة الاركان قد اوجدتا بينهما لغة مشتركه وقربت كل منهما من الآخر . وعلى الرغم من الشائعات القوية التى سرت حولَ وجود خصومات ونزاعات بينهما إلا أنه قد نشأ بين الاثنين بالذات ثقة متبادلة . وزادت حقيقة بقائهما على قيد الحياة بعد الهجوم على المنصه . من فرص واحتمالات السيطره على مجريات الامور . ولق مبارك فى « ابو غزالة » وتأكد انه عرف كيف يسيطر على الوضع وتعبئة وتجنيد المخلصين له داخل الجيش إذا ما دعت الحاجه إلى ذلك . واشار بيده إلى وزير الدفاع بالتراجع معه إلى خلف المنصه . والتقيا لإجراء مشاورات خاطفة فى الوقت الذى انشغل فيه حراس السادات بإجلائه وحمله إلى سيارة الاسعاف ومنها إلى الطائرة . ولم تكن لهما حاجة وكذلك لم يكن لديهما وقت للإكثار من الكلام . حيث طلب مبارك من ابو غزالة « افعل اللازم . خلى بالك من السلاح الجوى . سأذهب فورا إلى المستشفى » .

ولم يكن هناك مكان لمبارك فى الطائرة التى اوشكت على الاقلاع لنقل السادات إلى المستشفى . فلم يفقد صوابه . وصاح فى وجه احد الضباط الذى تصادف وجوده : « اين سيارتك ؟ » واشار الضابط إلى السيارة التى كانت تقف عل مقربة منهم . فقفز مبارك إلى داخلها وأسرع بها إلى المستشفى .

كان هناك سببان على الأقـل اجبرا حسنى مبـارك على الاسراع إلى المستشفى . أولا – الرغبة فى معرفة مدى خطورة حالة الرئيس . وتفرع عن هذا السبب . السبب الثانى أيضا : فإذا ما تبين ان السادات مات لا قدر الله – فإنه ينبغى بذل اقصى جهد فى الحيلوله دون اعلان خبر الوفاه وتأجيله لعدة ساعات على الأقل لكى يتاح الوقت لأبو غزاله لتنظيم قواته ، ولمعرفة حجم المؤامرة ولفرض النظام فى الجيش ، وفى نفس الوقت لتمكين وزير الداخلية النبوى – الذى اعتقد انه سيذهب إلى المستشفى – من نشر قوات الأمن فى جميع انحاء مصر .

وفى الوقت الذى كان مبارك فى طريقه إلى المستشفى تذكر فجأه انهما تسرعا فى المحادثة الخاطفة مع « أبو غزاله » بعد الاغتيال والتى جرت بمنصة الرئاسة ، لدرجة أنهما نسيا ولم يتحدثا اطلاقا عن التهديد الخارجى الذى قد يكون مخبوءاً وراء المؤامرة . وأخذ يحادث نفسه : « ما الذى يضمن الا يكون القدافى مشتركا فى هذه المؤامرة ؟ وحتى لو لم

يكن مشتركا بشكل مباشر ، هل سيضيع هذه الفرصه ولا يستغل الفوضى لتجنيد مؤيديه للقيام بثورة وانتفاضة ضد السلطة ؟ وأمل مبارك فى ان يكون هذا الاحتمال قد خطر ببال ابو غزاله ، وعلى أية حال فقد قرر الاتصال به فور وصوله إلى المستشفى .

وعبر نائب الرئيس بسرعة الممر المؤدى إلى حجرة العمليات . وأخذ رجال الأمن الكثيرون الموجودون بالممر والاطباء ذوو المعاطف البيضاء يفسحون له الطريق . وخرج احد الاطباء من غرفة العمليات ، وقد كشفت تعابير وجهه عن كل شيء . ودخل مبارك إلى حجرة العمليات ، وقد نكس على عقبيه لدى رؤيته للمنظر البشع – منظر انور السادات وهو مشقوق الصدر – وأفاق من هول هذا المنظـر بعـد حوالى ثانيه . لقد كان السادات ميتا إلا أن حسنى مبارك امر الاطباء بالاستمرار فى جهـود الانعاش حتى لـو كانت هذه الجهود يائسه ، وأدرك الاطباء ما يعنيه .

كانت هناك شخصيات كبيره بالادراه المصرية تتجمع بالممر ، كنائب رئيس الحكومة فؤاد محى الدين ووزير الداخلية محمد نبوى اسماعيل وغيرهما . واقترب رئيس الهيئة العامة للاستعلامات من نائب الرئيس وقال له : « هناك ضغـوط شـديده للإعلان عن حـالة الرئيس ... فماذا نقول للشعب ؟ » .

لم تتبق سوى دقائق معدودات على نشرة الثانية ظهراً . وقد اتفقا فيما بينهما على نعى الخبر . وفى الثانية بعد الظهـر اذاعت اذاعة القاهرة بنـاء على توجيه من مبارك هذا الخبر : « انطلقت عدة طلقات فى اتجاه المنصه الرئيسية اثناء العرض العسكرى » . وأضاف المذيع : « وقد غادر السادات ومبارك وأبو غزاله ارض العرض » .

ولم يستطع هذا النص الصمود لأكثر من ٤٥ دقيقه . فقد كانت الضغوط تتزايد على مكتب الرئيس والهيئة العامة للاستعلامات كل لحظه للإدلاء بمعلومات أخرى .

لقد شهد عدد كبير من الاشخاص الرئيس السادات وهو مصاب بالجروح . وكان من بينهم السفير الامريكى الفريد الرتون الذى كان يجلس بمنصة الضيوف . وكان أترتون صديقا للسادات وكان كثيرا ما يتردد عليه فى منزله . وقد تحدث الرتون تليفونيا مع ابو غزالة واعرب عن قلقه على صحة الرئيس . واعترف وزير الدفاع بأن السادات اصيب بجروح إلا أنه اضاف انها « جروحاً طفيفه فقط » . ولم يعد هناك مفر الآن من المواءمة بين البيانات الرسميه والتنسيق بينها فى اذاعة القاهرة لكى تتلاءم والبيان الجديد . لقد بدأت العاصمة المصرية الكبيرة تتناقل الشائعات عن وفاه السادات . وقرر مبارك « إزاحة الستار قليلاً » .

وفى الساعة ١٤,٤٥ أوقفت اذاعة القاهرة ارسالهـا . واعلن المذيع بصوت مختنق : « قامت كوكبة من الأفراد اليوم فى حوالى الساعة ١٢,٤٠ اثناء العرض العسكرى بإطلاق

النار فى اتجاه المنصة الرئيسية وقد اصيب رئيس الجمهورية نتيجة لذلك كما اصيب بعض مرافقيه . وقد تم نقل سيادة الرئيس إلى المكان الذى يقوم فيه اطباء مختصون بعلاجه . ويتابع نائب رئيس الجمهورية شخصياً نشاط الاطباء . وقد اقحمت هذه الفقره الأخيرة عن عمد لخدمه خطة مبارك بالتعامل مع المتآمرين الذى لم يكن يعرف بعد عددهم . واراد من جانبه ، ان يعطى للشعب – وللمتآمرين – أحساساً بأن الرئيس السادات لا يزال على قيد الحياة وربما انقذت ايضا حياته بفضل الرعاية الطبية التى يتلقاها . ومن جانب آخر – ليترك انطباعا لدى الجميع انه نائب الرئيس – يسيطر على الموقف جيداً . ومع ذلك ، فقد كان حسنى مبارك لا يزال فى حاجه إلى مهلة حيوية لبضعة ساعات قبل ان يعلن للشعب المصرى الحقيقة . فقد كان عليه ان يعرف أولا ما الذى يحدث وان يستمع إلى ما قام به أبو غزاله من عمليات ونشاطات لاستقبال تهديد خارجى ثم لتمكين وزير الداخلية من نشر وحدات الأمن فى النقاط الحساسية والانتظار للمعلومات التى سيستخلصها المحققون الاستخباريون من افواه المغتالين . وقد اجبر هؤلاء على اسئلة وهم لا يزالون بعد يرقدون على الأسرة بحجره العمليات : من الذى يقف وراءكم ؟ ماهو حجم حركة التمرد ؟ ما دور السلاح الجوى ؟ . ولهذا اصدر مبارك امرا للمسئول عن الإذاعة والتليفزيون بمواصلة بث الصيغة الأخيرة – البيان الخاص بإصابة الرئيس بجروح وسيطرة حسنى مبارك على مجريات الأمور – حتى فى النشرات الجديدة التى تذاع فى اوقات ما بعد الظهر .

وقبل مغادرة المستشفى ، تحدث مبارك مع وزير الداخلية حول الخطوات والاجراءات اللازم اتخاذها لتأمين الجبهة الداخلية . واصدر النبوى – الذى ظل على اتصال متوال مع مكتب مبارك – امرا إلى رجاله بإنشاء هيئة طوارىء خاصة تحسباً لوقوع تمرد فى القطاع المدنى .

وخرج النبوى من المستشفى إلى مكتبه – لكى يمضى به ستة عشر يوما وست عشره ليلة متوالية امضاها راقدا على سرير ميدانى صغير وضع بحجرته . وبناء على تعليماته فقد اعلنت حالة الطوارىء لتأمين المؤسسات العامه والمنشآت المهمة . ولم يلاحظ من التقارير الأولية التى تجمعت على مكتبه فى الساعات الأولى التى اعقبت الاغتيال – اى دليل على وجود اضطرابات أو احداث شاذة .

عندئذ فقط تفرغ النبوى لمتابعة تحقيقات المغتالين التى دارت بنشاط وسرعة كبيرتين متابعة شخصية . وفى ذلك الوقت كان لدى اجهزة الأمن ثلاثة مغتالين فقط من المغتالين الأربعة ، وقد نجح حسين عباس فى الهروب اثناء الفوضى التى اعقبت عملية الاغتيال . والثلاثة هم – خالد الاسلامبولى وعبد الحميد وعطا طايل الذين اصيبوا بجروح متوسطة . وقد نقل الثلاثة إلى مستشفى المعادى التى نقل اليها انور السادات ، وكان التحقيق قد بدأ

معهم وهم فى الطريق للمستشفى ثم استكمل بالمستشفى . وقد اصيب عطا طايل بالرصاص فى امعائه الدقيقه وأمعائه الغليظه وزعم عبد الحميد الذى نقل إلى غرفة الانعاش فيما بعد انه تلقى صدمات كهربائية بواسطة الكترودات كهربائية ركبت بإذنيه .

وقصّى الجرحى - الذين يتأوهون - كل مايعرفونه على الفور . وكانت أول وأهم معلومة يحصل عليها المحققون تتعلق بحجم المؤامرة المحدود وبعدم وجود أى تعاون بين المتآمرين وبين وحدات السلاح الجوى . واقتنع المحققون أن الصدفة وحدها هى فقط التى جمعت بين طلقات الرصاص وبين ضجيج الطائرات فوق المنصة . وعلى الفور نقلت هذه المعلومه المطمئنة إلى نائب الرئيس الذى كان لا يزال بالمستشفى وإلى مقر وزير الدفاع .

واستنادا إلى اعترافات الذين اجرى التحقيق معهم فى المستشفى فقد قامت قوات الأمن بحملة بحث ضخمة عن حسين عباس الهارب وعن عبد السلام فرج - وعبود الزمر وبقيه اعضاء « الجهاد » . وقد القى القبض على عباس فى شقة سرية بالقاهرة . اما القائد - عبد السلام فرج فلم يقبض عليه إلا بعد اسبوع فى ١٣ أكتوبر فى قرية صغيرة بمحافظة البحيرة لدى اقارب زوج اخته . وكان لا يزال يرقد بالسرير اثناء اقتحام المحققين للغرفه وكانت قدمه لا تزال بالجبس .

ونفى زعيم « الجهاد » وجود أية صلة له بعملية الاغتيال . وأكد أنه لا يعرف خالد الإسلامبولى وأنه رأى صورته لأول مرة فى الصحف التى صدرت بعد الاغتيال . ولم يكن خالد فى شقته ببولاق الدكرور اطلاقا . ولم يمكث اطلاقا فى شقه عبد الحميد . وانه لم يزود بالتالى المتآمرين الذين لا يعرفهم بالاسلحة . وهو يعرف عطا طايل منذ صباهما ايام ان كانا بقرية الدلنجات حيث كانا يتقابلان أحيانا فى الافراح أو فى المـآتم . وسأله المحققون : « إذا كان الأمر كذلك فلم تركت القاهرة بعد الاغتيال ؟ » واعترف : « خشيت من ان يعتقلونى » وبالتالى لن استطيع تلقى العلاج الطبى المناسب لقدمى المجبسة بالسجن » .

« وإذا كنت بريئا ولا علاقة لك بالاغتيال فلم يعتقلوك ؟ » وحتى هذا السؤال كانت لديه إجابة عليه : « سمعت أن رجال المباحث جاءوا إلى والدى قبل العرض وأخبروه أنهم يبحثون عنى » .

- « لماذا حلقت ذقنك ؟ »

- « لكى أبعد عنى أية شبهه فى هذه الأيام التى يعتقلون فيها كل ملتح وكل مرتد لطاقية . وقد قامت المباحث بتفتيش شقتى بالقاهرة قبل العرض بيومين ، ولم يحتج رجال النبوى أكثر من يوم ليجبروا فرج على الاعتراف بكل شىء ، وصحيح أنه ظل يزعم أنه كان شريكا سلبيا فقط فى خطة الاغتيال ، ولم يبد رأيه فيها ولا مرة اثناء الاستعدادات ، إلا أنه

أخبر المحققين بالاجتماعات وباللقاءات التى عقدها مع المتآمرين الأربعة ، وأكد انه انتقل من شقة عبد الحميد إلى غرفة مفروشة بحى الزيتون بالقاهرة قبل بداية العرض بفترة قصيرة ، ومن هناك سافر بعد ذلك إلى قريته الدلنجات فى الصعيد ، حيث ألقى القبض عليه هناك .

ولم ينجح كل الذين جرى التحقيق معهم إلا فى اخفاء معلومة واحدة ، على الرغم من التعذيب والضربات التى كانت توجه إليهم ، وهى الخطة التى جرى إعدادها بالقاهرة بخطوط عامة مع « أمراء » الصعيد بشقة عبد الحميد لانتهاز مقتل السادات فى اشعال نار الثورة فى المناطق البيعدة عن العاصمه .. فى أسيوط والمنيا وضواحيها .

وكان ابو غزاله قد غادر منصة الرئاسة إلى غرفة العمليات بهيئة الاركان العامة بسياره قائد سلاح البحرية اللواء محمد على محمد ، التى كانت تقف وراء المنصة . وكانت طلقة رصاص قد خدشت صدغه وكانت يده اليمنى رطبه وملطخة بالدم . وافترقا لدى وصولهما إلى هيئة الاركان ، حيث واصل على محمد طريقه إلى الاسكندرية ليتولى شخصيا إمرة سلاح البحرية . فإذا كان هناك احتمال بتدخل « قوة خارجية » فى محاوله للانضمام إلى المتآمرين ، فإنه من المحتمل أن يتم ذلك برا من اتجاه الحدود الليبيه أو بمساعدة جويه . ولكن يجب أيضا أن يوضع فى الاعتبار احتمال أن يحاولوا ذلك عن طريق إنزال قوات بطريق البحر . لقد اعتقد قائد سلاح البحرية المصرى أنه – اذا كان الأمر سيقتصر على الاسطول الليبى فقط ، فإنه لن تكون لديه أية مشكلة فى التغلب عليه . ومن ثم فقد اعلنت حالة الاستعداد القصوى بين وحدات الاسطول المصرى وبين القطع البحرية التى راحت تنطلق إلى البحر المفتوح .

كذلك كان أكثر شىء يزعج أبو غزاله هو احتمال محاوله المتآمرين – الذين لم يكن يعرف عددهم الدقيق ولا حجم تغلغلهم بالجيش فى الساعات الأولى – الاستعانة بالليبيين .. فقد كان للقذافى حساب طويل مع انور السادات ، وربما تكون قوات مدرعات ليبيه ، تشق طريقها فى هذا الوقت بالضبط عبر الحدود المشتركه .

إلا أن وزير الدفاع رأى أنه إذا ما تحققتة مخاوف التدخل الليبى ، فإن هذا التدخل سوف يبدأ بعملية جوية بالذات . ولذا فقد أصدر تعليماته فور وصوله إلى هيئة الاركان بإغلاق المجال الجوى المصرى فى وجه جميع الرحلات أيا كان نوعها . وفى المقابل فقد أعلن حالة الاستعداد القصوى فى وحدات الدفاع الجوى فى جميع أنحاء مصر لاكتشاف «طائرات معادية » .

وقد أصدر أبو غزاله أمره برفع درجة الاستعداد بالسلاح الجوى لصد أى « تهديد خارجى » ، قبل تلقيه لتأكيد نهائى بأنه ليست ثمة علاقة بين الاغتيال وبين الأسراب الجويه . إلا أنه اعتقد أنه حتى لو كان للقتلة شركاء بين طيارى السلاح الجوى ، فإنه من

الصعب الاعتقاد بأن « التمرد » قد سرى ليشمل كل وحدات السلاح . ولمزيد من الاطمئنان والتأكد طلب من قائد السلاح الجوى أن يأمر شخصيا قادة القواعد الجوية بوضع أخلص الطيارين على رأس أسراب الطريق . وفى تلك الأثناء وصلت الأنباء المطمئنة عن نتائج التحقيق ، والتى اكدت عدم اشتراك السلاح فى عملية الاغتيال .

وقد قرن وزير الدفاع اجراءات الاستعداد فى صفوف السلاح الجوى والدفاع الجوى بتعليمات بالاستعداد العملياتى العسكرى فى الوحدات البرية . وطوقت وحدة سلاح المدفعيه رقم ٣٣٣ الدائمة - وهى وحدة خالد الاسلامبولى فى مجموعة معسكرات الهايكستب - بدبابات الوحدات العسكرية الموالية ودبابات الحرس الجمهورى .. إلا إنه لم يكن هناك دليل فى أيدى أبو غزاله بعد الاغتيال بساعتين يشير إلى وجود حركة تمرد منظمة بالجيش . وبدأ يتضح أكثر فأكثر - سواء من اعترافات المغتالين أو من الواقع على الساحة - أن العملية اقتصرت على أفراد قلائل ، ونجحت لأنها أخفيت كما ينبغى عن أعين رفاقهم بالوحدة العسكريه .

وقد ظل أبو غزاله على اتصال مباشر ومتواصل بوزارة الداخلية من مقره . ونفذت عملية تأمين الأماكن الحيويه بالقاهرة وفقا لخطة اشترك فيها الجيش مع قوات الأمن الداخلى الخاضعة لسلطة النبوى . وهكذا - على سبيل المثال - قامت الشرطة العسكرية التى تخضع لأبو غزاله بالمساعدة فى مهام تأمين النظام وفقا لتعليمات وتوجيهات وزير الداخليه . ومن بين المبانى التى تحولت إلى قلاع منيعة مبنى الاذاعه والتليفزيون ، حيث انتشرت السيارات المدرعة فى كل اتجاهاته ، واقيمت متاريس وحواجز من قوات الأمن التى منعت السيارات من الاقتراب من المبنى ، واقيمت مواقع من أكياس الرمل عند مدخل المبنى وفى الطابق الأول وقد شغلها جنود الأمن المركزى .

وهكذا أصبح بمقدور وزيرى الدفاع والداخلية ابلاغ مبارك باتخاذ اجراءات الطوارىء كما ينبغى ، وذلك قبل انعقاد الجلسة الطارئة للحكومة المصرية ، والتى تحدد موعدها فى الخامسه بعد الظهر . فهناك أقصى درجه من الاستعداد بالجيش وتم إلغاء الاجازات . ولم تكن هناك دلائل تشير إلى حدوث اضطرابات أو مصادمات .. ومع ذلك فإنه ينبغى أن تكون وحدات الجيش جاهزة ومستعده لاحتمال ما قد تخفيه الليلة من مفاجآت غير سارة .

وعاد مبارك بسرعة من المستشفى إلى منزله فى هليوبوليس أمام قصر العروبه وقد ضمدت يده الجريحة. ونزع ملابسه العسكرية الملوثة بالدماء واستبدلها بسترة سفارى داكنة . ولم يلبس مبارك الملابس العسكريه طوال فترة طويله .

كان كل الوزراء قد علموا بنبأ وفاة السادات قبل انعقاد جلسة الحكومة الطارئه -

وأبلغ مبارك الوزراء بما اتخذ من إجراءات ووسائل حتى الآن للحفاظ على الأمن الداخلى ، وللتضييق على متآمرين محتملين . وأبلغ الوزراء أنه قد تم إلقاء القبض على ثلاثة من المتآمرين - من بين أربعه - وجميعهم جرحى ويوجدون فى المستشفى تحت حراسة مشددة . وأثناء ذلك جرى التحقيق معهم ، وقد أبلغ الوزراء بالمعلومات الأولية التى تم استخلاصها من التحقيق عن الاستعدادات التى قام بها المتآمرون وعن علاقات المتآمرين « بالجهاد » . وهناك معلومات أخرى كثيره تحتاج إلى تأكيد واستيضاح عن كيفيه نجاحهم فى اختراق العرض العسكرى وتنفيذهم العمليه بلا عقبات . إلا أن مبارك أكد أن العمليه لم تكن حركة سريه لها مؤيدون كثيرون بالجيش ، وأنها من المحتمل أن تكون مرتبطة بظاهرة التطرف الاسلامى التى شهدتها مصر فيما سبق ، مثل العمليات التى قامت بها جماعة «ا لتكفير والهجره » .

بعد ذلك جاء دور أبوغزاله . لقد حضر وزير الدفاع جلسة الحكومة بعد أن تمكن من تغيير ملابس الاحتفال واستبدالها بملابس الجيش المصرى الصيفية . وفى كلمته التى القاها بالجلسة دعم شهادة مبارك عن اخلاص الجيش وولائه وأخذ يتحدث بالتفصيل عن اجراءات الاستعداد التى اتخذت بمختلف أسلحة الجيش . ثم توقف بعد ذلك بالتفصيل عند الوضع على الحدود الغربية بعد أن بدأت ليبيا فى أوقات الظهر تبث حملات تحريضية منظمة فى محاولة لإثارة الشعب المصرى وتأليبه للعمل ضد السلطة الحاكمة . وعلى الرغم من هذه الحمله - حسب قول أبو غزاله - فإنه ليست هناك دلائل تشير إلى مرابطه أو تحركات فى تشكيل الجيش الليبى بطول الحدود . والقذافى لم يحرك فصائله وقطاعاته ، واكتفى حتى الآن بإعلان حالة الاستعداد فى عدد من وحدات الجيش الليبى فى منطقة طبرق . وأكد وزير الدفاع أن « الجيش المصرى مستعد لكافة الاحتمالات » .

وفهم الوزراء من كلامه أن احتمال قيام ليبيا بعمل عسكرى ضد مصر قد أصبح ضئيلاً جدا - إن لم يكن معدوما - وذلك بفضل الاجراءات الرادعة التى قامت بها الولايات المتحدة فور علمها بمقتل السادات . وكان البيت الأبيض قد أعلن ظهرا أن وحدات من قوة الانتشار السريع الامريكية بالشرق الأوسط ووحدات الاسطول السادس بالبحر المتوسط ، قد رفعت درجة استعدادها بشكل محدود عقب الاغتيال . وأعلن مسؤولون فى وزارة ادفاع بواشنطن - بشكل غير رسمى - أن الهدف من وراء رفع درجة الاستعداد هو ردع الحاكم الليبى معمر القذافى أو أى « عنصر آخر » عن محاولة استغلال حالة « عدم الاستقرار » فى مصر .

أكثر من ذلك أنه كانت هناك طائرتا تجسس متطورتان من طراز « أواكس » انطلقتا من الولايات المتحدة فى طريقهما إلى مصر لكى تؤمنا سماء مصر من أى هجوم خارجى ،

فى نفس الوقت الذى كان يعلن فيه أبو غزاله أمام الحكومة عن اجراءات الاستقرار التى اتخذها .

ثم أعقبه وزير الداخلية ، حيث تحدث عن الاجراءات التى اتخذها بالتنسيق مع الجيش لتأمين المنشآت الحيوية فى جميع أرجاء القاهرة . كذلك كشف أنه أصدر تعليماته أيضا بمضاعفة الحراسة على أعضاء الحكومة وعلى كبار الشخصيات بالادارة . كما تحدث عن حملات الاعتقال التى جرت حتى ذلك الوقت ، وعن التفتيش الذى أجرى بمنازل المتآمرين وبمنازل عائلاتهم وأصدقائهم . وقد قامت بحملات التفتيش هذه الوحدة ٧٥ بالمخابرات. وقد عثر فى معظم البيوت . على كتيبات صغيرة وعلى شرائط كاسيت تحتوى على خطب للشيخ كشك والشيخ المحلاوى – وهما الموجهان الروحيان لأعضاء التنظيمات الاسلاميه –كما عثر على أسلحة ومواد متفجرة فى عدد من الأماكن .

ثم تعلقت الأنظار واتجهت إلى مبارك . لقد بدا شاحب الوجه بعض الشىء ، لكنه كان واثقاً فى نفسه . وسأل مبارك : « هل ترى الحكومة أنه من الأفضل أن يعرض ترشيحه لرئاسة الجمهورية ؟ »

وارتفعت ثلاثين ذراعا – هى أيدى كل الوزراء – بالتأييد ، وقال مبارك : « إذا كنتم تعتقدون ذلك فمن الافضل أن نعجل بكل الاجراءات القانونية لننتهى من كل شىء بأقصى سرعه ممكنة ولنستطيع ، التفرغ لتهدئة الجبهة الداخلية . واقترح دعوة جميع مؤسسات الحزب للانعقاد فورا لكى تعرض ترشيحه بشكل قانونى ، ثم تقوم سكرتارية الرئاسة فى تلك الأثناء بإعداد مراسم الجنازة . وكانت هذه هى المرة الوحيدة تقريبا التى يذكر فيها أنور السادات خلال الجلسة .

ولم تستغرق جلسة الحكومه أكثر من ٣٠ دقيقة . ثم انعقد بعدها مكتب الحزب السياسى بحضور مبارك ، وناقش على مدار ساعتين وربع الساعة كافة الجوانب القانونية المرتبطة بترشيح محمد حسنى مبارك لمنصب رئيس الجمهورية . وقد كان محتاجا لأغلبية من ثلثى أعضاء المكتب لكى يتم ترشيحه . ولم يعترض أحد بالفعل ، فقد اجتمع كل المكتب وكل الحكومة حول الرجل الذى أعده السادات وأهّله لخلافته .

وكما ينص البند رقم ٨٤ من الدستور المصرى ، فقد قرر مكتب الحزب اعلان تعيين رئيس البرلمان صوفى أبو طالب رئيسا مؤقتا للجمهورية . وتقرر أن يقوم أبو طالب من جانبه بإصدار أوامر – بحكم منصبه – تضع السلطة فى يد نائب الرئيس حسنى مبارك وتخوله العمل وفق مايراه .

وفى الساعة ١٨,٢٠ ، انضمت جميع شبكات الاذاعه والتليفزيون ، وبدأت إذاعة

القاهره تذيع آيات القرآن . وفى الساعه ١٩,٣٠ – أى بعد انتهاء جلسة مكتب الحزب الوطنى الديمقراطى ببضع دقائق – توجه حسنى مبارك إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون – وقد بدا منهكا محمـر العينين – ليعـلن من هناك إلى الشعب المصرى– ولأول مـرة نبـأ وفاة أنور السادات . وكان نص البيان كما يلى : « بصوت ملؤه الحزن والأسى أعلن للشعب المصرى وللشعوب العربية والاسلامية والعـالم أجمع نبأ وفاة زعيمنا المقاتل البطـل محمد أنور السادات . الزعيم الذى أحبته الملايين . بطل الحرب والسلام . الرجل الذى بذل دمه وعرقه وحياته من أجل شعبه ، مات ميتة الشهداء .. إننا لن نتوقف عن دفع عجلة السلام لكى نحقق رسالة السادات كاملة ، وحتى نرفع علمنا على كل أرجاء سيناء ويتحقق السلام الشامل بالشرق الأوسط . »

كذلك أصدر أبو غزاله بيانا نيابة عن القيادة العسكرية استنكر فيه « الجريمة البشعة التى نفذتها يد غادره .. يد المرتزقة » ، وأقسم على الاستمرار فى الدفاع عن أمن الوطن ، وأكد أن الاغتيال قام به أفراد معدودون لا يزيد عددهم على اصابع اليد الواحده . ثم ختم بيانه بقوله : « إن خائنا واحدا لن يمكن أن يلوث سمعة الملايين المستعدين للتضحية بأنفسهم فى سبيل وطنهم » .

وأعلن مبارك فى خطابه الذى وجهه للأمة المصرية عن تعيين صوفى أبو طالب رئيسا مؤقتاً ، وأعلن عن انعقاد البرلمان فى اليوم التالى – يوم الاربعاء – الساعة العاشرة صباحاً للبدء فى الاجراءات القانونية لانتخاب خليفة لأنور السادات .

وقبيل هذا الاعلان كانت قد صدرت عن الرئيس المؤقت أربعه أوامر هى :

* (إعاده) تعيين حسنى مبارك نائبا لرئيس الجمهورية ، وتخويل الرئيس المؤقت لمبارك سلطات القائد الأعلى للقوات المسلحة .

* استمرار عمل نائبى رئيس الحكومة ووزراء الحكومة .

* إعلان حالة الطوارىء فى جميع أنحاء الدولة لمدة عام طبقا لقانون عام ١٩٧٨ الذى يخول الرئيس اعلان حالة الطوارىء فى كل مرة يتهدد فيها الأمن والنظام العام ويتعرضان فيها لخطر .

* الأمر الأخير هو دعوة مجلس الأمة العام للانعقاد (البرلمان) فى جلسة استثنائية صباح الغد .

وانعقد البرلمان كما هو مقرر . وقد حضر ٣٤٢ نائبا جلسة البرلمان من بين ٣٩٢ ، ولم يحضر الجلسة ٥٠ عضواً لأسباب مختلفه.كما تم جمع توقيعات ثلث أعضاء المجلس ، وهو النصاب اللازم للاقتراع على ترشيح مبـارك ، بلا أية صعـوبات منذ الساعات الأولى من

الصباح ، ولأسباب ودواعي رسميه . وفى العاشرة صباحا صوّت كل الحاضرين بالقاعه على ترشيح مبارك رئيسا للجمهورية . ولم يكن مبارك هو المرشح الوحيد للرئاسة فقط ، بل كان بمثابة الرجل الذى كانت تعلق مصر كلها عليه الأمال للخروج من الموقف الصعب الذى شهدته البلاد . كذلك كانت أعين العالم كله تتطلع إلى الطيار السابق – البالغ من العمر ٥٣ عاماً – ابن قرية مصالحة بدلتا النيل ، الذى عرف كيف يقود السفينة إلى بر الأمان .

وأخذت تتواتر أولى الأخبار عن حدوث اضطرابات فى أسيوط ، التى تقع على بعد ٣٨٥ كم من جنوب القاهرة ، وذلك فى اليوم التالى للاقتراع بالبرلمان . فبمقتضى الاتفاق الذى أنجز فى شقة عبد الحميد ليلاً فى الاسبوع السابق على الاغتيال ، كان قادة خلايا « الجهاد » فى صعيد مصر ينتظرون من القاهرة أخبارا عن تفجير الثورة الاسلاميه ، التى كان من المتعين ان تحدث فور الاغتيال . وانتظروا بيانات عبر الأثير تعلن عن سقوط مبنى الاذاعه والتليفزيون –كما هو مخطط – فى أيدى التنظيم والأخبار التى تبشر بجماهير الشعب وهم يغرقون ويجتاحون الشوارع ،كتعبير تلقائى عن إبداء التأييد والمساندة لقيام حكم اسلامى جديد يعيد للإسلام مجده وازدهاره .

إلا انهم ادركوا بعد يوم واحد أن هناك شيئا ما قد ارتبك فى القاهرة . فلم تكن أصوات فرج أو عبود الزمر هى التى تتحدث إليهم من مبنى الاذاعه ، بل صوت نائب الرئيس حسنى مبارك ، وكات شوارع القاهره تنعم بالهدوء .

ولهذا قرروا عدم الانتظار ، فالثورة إذاً لم تأت من القاهرة – فإنها ستأتى حتماً من أسيوط بصعيد مصر . فالنيران التى ستندلع هناك سوف تسرى وتمتد بسرعة شمالاً .

وفى ليله الثامن من أكتوبر سحبت الأسلحة من مخابئها وأعطيت الاشاره وانتشرت خلايا الجهاد فى جماعات صغيره وتوزعت على نقاط مركزية فى ارجاء أسيوط والمنيا ، وخرج البعض منها إلى المساجد لاستثارة الجماهير وحثها على العمل ، بينما حشد معظمهم فى سيارات « بيجو » وانطلقوا إلى الشوارع وفوهات رشاشاتهم تطل من نوافذ السيارات . وكان الهدف الرئيسى هو السيطرة على مقر شرطة الأمن فى أسيوط وعدة مراكز شرطة أخرى بالمدينة .

وكان وقع العملية فى أسيوط على قوات الأمن فى مصر مفاجئاً تماما . لقد بدا لثوانى أن المتآمرين قريبون من تحقيق أهدافهم . ففى المعركه التى دارت حول مقر شرطة الأمن قتل ٤ من جنود الشرطة الذين يتولون حماية المقر ، ثم فى النهاية سقط المقر فى أيدى المتطرفين بعد معركة استمرت ٣٠ ساعه . وأخذت سيارات أخرى لأعضاء « الجهاد » تجوب فى تلك الأثناء شوارع اسيوط ويطلق الجالسون فيها النار فى الهواء . وكانت تلك هى وسيلتهم فى تبشير سكان المدينة باندلاع الثورة . كذلك تكرر نفس المشهد فى شوارع

مدينة المنيا ، التى تقع شمال أسيوط على بعد حوالى ١٠٠ كم من جنوب القاهرة .

وأدرك أبو غزاله مع وصول أخبار الاضطرابات فى أسيوط والمنيا أن قوات الأمن بالمنطقة لم تعد قادرة بعد على السيطرة على الموقف ، وأنه ينبغى دفع تعزيزات من الشمال . وأمر بارسال وحدات عسكرية ومدرعات على الفور إلى المنيا وأسيوط ، واغلاق الطريق بين المدينتين لمنع انتشار الحريق .

بعد ذلك قرر استغلال الساعات التى تبقت لحين وصول الوحدات التى تم دفعها من قواعد قريبه ، وذلك فى لبث واثارة الرعب والخوف فى المتطرفين الاسلاميين . وبناء على أمر منه تم ارسال طائرات مقاتلة إلى أسيوط وقامت هذه الطائرات لفترة طويله بالتحليق بارتفاع منخفض فوق مقر شرطة الأمن ، وأظهرت بذلك لمهاجمى المبنى أنه ليس عليهم انتظار مساعدات من الخارج . وفى اليوم التالى كانت قوات الأمن قد سيطرت على الوضع ، فقد استردت المقر مرة أخرى وألقت السلطات القبض على مئات المتطرفين . وكانت شوارع أسيوط قفراء وخالية من المارة ، بينما كات ساحة المعارك حول المقر وحول أقسام الشرطة التى لم يستول عليها المتطرفون وكأنها ميدان حرب مليء بالقتلى .

ولم يكن الفشل الذريع الذى منيت به خلايا « الجهاد » بالتبشير باندلاع الثورة فى صعيد مصر يعزى لذكاء أبو غزاله فقط ، فالثورة لم تفجر لأن الجماهير لم تخرج إلى الشوارع لرفع راية العصيان والتمرد كما فعلت جماهير إيران الخمينى ، ومن المحتمل أنها لم تكن مستعدة لهذا - كما خشى فى حينه عبود الزمر - لأنها لم تكن تثق فى قدرة الجماعات والتنظيمات على تحسين موقفها .

كذلك كانت خطة الثورة بالقاهرة محكوما عليها بالفشل منذ اللحظة التى سارع فيها النبوى بتعزيز الحراسة على المبانى العامه لاسيما مبنى الاذاعه والتليفزيون . لقد تسبب النبوى فى نبذ القلة التى لم يلق القبض عليها من أعضاء « الجهاد » لفكرة اقتحام مبنى الاذاعه ، والاستعانه بالفنى سيد رشاد لكى يوقف الارسال ويوحد الشبكات ليعلن بيان الثورة . وكان هذا البيان مسجلا بصوت فرج ، حيث كلف مذيع المحطة محمد البلتاجى - وهو من رجال الجهاد - بالاحتفاظ به .

ولم يذع البيان . وكانت السياره الوحيدة التى مرقت بحى شبرا الخيمة بشمال القاهرة وأطلقت النار على قسم الشرطه ولاذت بالفرار ، هى التذكار الوحيد الذى ذكّر بخطة العمل الاصلية للانتفاضة .

وبعد أسبوع من وفاة أنور السادات وانتخاب مبارك خليفه له فى جلسة البرلمان المصرى ، قام الشعب المصرى أيضا بمبايعة مبارك فى استفتاء عام ، فلم يستغل ولو سدس

الوقت الذى منحه له الدستور لاجراء الاستفتاء العام ، حيث علقت لافتات التأييد التى تهيب بالمواطنين للذهاب لصناديق الاقتراع لانتخاب مبارك وعلقت هذه اللافتات كما لصقت الاعلانات على حوائط المبانى وعلى السيارات العسكريه ، التى حملت صوراً كبيرة لمبارك وأخذت تجوب الشوارع وهى تحمل مكبرات الصوت ، وتنادى على المواطنين طالبة منهم أن يقولوا « نعم » لرجل السادات .

حتى جيهان السادات توجهت مع بناتها للتصويت فتحققت بذلك آخر رغبة لزوجها ، وهى نقل السلطه إلى خليفته من بعده نقلا منظما . وقالت سكينه السادات – أخت الرئيس – بعين حزينه دامعة : « لقد ربى السادات حسنى لهذا المنصب » .

وحظى مبارك بأغلبية هائلة . وربما كان أحد الأسباب التى دفعت جماهير المصريين دفعا إلى صناديق الاقتراع هو عرض فيلم اغتيال السادات بالتليفزيون عشية الاستفتاء . ولم يكن هذا هو الفيلم الكامل ، فقد اقتطعت منه الأجزاء التى أظهرت المغتالين وهم يتقدمون بحرية كاملة ويقتربون بلا عائق إلى منصة الرئيس . إلا أن ملايين المصريين شاهدوا لأول مرة ما شاهده العالم من قبل ، شاهدوا يد سكرتير أنور السادات الشخصى عبد الحافظ فوزى وهى مقطوعة تقطر دما ، أما وجه وزير الدفاع أبو غزاله المخدوش والجثث الملقاة على الأرض ، فإن ذلك لم يحدث فى مصر من قبل .

وأعلنت السلطات أنها سمحت بعرض هذا الفيلم المروع « لأن من حق الشعب أن يعرف » . وقالت إنها لم تعرض هذا الفيلم من قبل خوفا من إثارة مشاعر السخط لدى الشعب .

إلا أن الهدف من ذلك قد تحقق ، فقد قال أحد المقترعين : « إن ماشاهدته كان أشد هولا وفظاعة من كافة الشائعات التى سرت بالقاهره . وبعد مثل هذه المشاهد ، فإنه من المتعين على أن اقترع لكى اضمن الاستقرار والسلطة والنظام التى يمثلها جميعا محمد حسنى مبارك » . وقال سائق سيارة تاكسى : « لقد سارعت بالتصويت قبل ذهابى للعمل لأننى لم أنم طوال هذه الليلة من التأثر من شدة ما رأيته فى هذه المشاهد الفظيعة » .

وفى صباح الاستفتاء تم اعتقال عبود الزمر ، المسمى بـ « المنصور » . فقد انقض عليه كمين نصبته له قوات الأمن عندما كان يهم بالدخول فى إحدى الشقق السرية فى شارع الهرم .

الفصل التاسع عشر

حيره وتخبط فى اسرائيل

بدأ السفير المصرى يستقبل أوائل ضيوفه الذين قدموا بمناسبة الاحتفال بعيد القوات المسلحة السادس من اكتوبر عند مدخل فيلته المؤجرة فى كفار شمرياهو . وكانت هذه هى المرة الثانية التى يوجه فيها سعد مرتضى الدعوة لشخصيات اسرائيلية لحضور هذا الاحتفال ، وكان يأمل أن يكون استقبال هذا العام أنجح من سابقه .

فالاستقبال الأول الذى نظمه مرتضى فى فندق « هيلتون » بتل أبيب - بعد قدومه لاسرائيل ببضعة أشهر - قاطعته بالفعل كبار الشخصيات القيادية الاسرائيلية الذين دعوا لحضوره . لقد ارتأى الرئيس ورئيس الحكومه وكبار الوزراء وغيرهم أنه ليس ثمة مايدعو للاشتراك فى الحدث الذى ينظم احتفالا - ولو تلميحا - بانتصار الجيش المصرى تقريبا فى حرب يوم الغفران . ولم تجد تفسيرات مرتضى الذى قال إن استقبال السادس من أكتوبر ينظم احتفاءا بـ « انتهاء عصر الحروب » . وخارج الفندق كانت هناك مجموعة صغيرة من الاسرائيليين يتظاهرون ضد تنظيم هذا الحدث .

وقد تعلم مرتضى الدرس وقرر فى العام الثانى « الحد من البهرجة » ، والاكتفاء بحفل متواضع فى فيلته فى كفار شمرياهو بدلا من الاستقبال الفخم فى فندق « هيلتون » .

كذلك لم يحضر هذه المرة أى من وزراء الحكومه .. الا أن هذه الحقيقة قد تلاشت وضاعت معالمها بفضل حرارة الضيافه المنزليه . وقد مثل المعارضه البرلمانية عضو الكنيست شمعون بيريز الذى مكث فترة قصيرة فقط وانصرف . وكان مستشار وزير الدفاع اللواء أفراهام (افراشا) تامير هو الرجل العسكرى الوحيد الذى حضر بزيه العسكرى . وحاول مرتضى إخفاء خيبة أمله بالابتسام ، وراح يقف بجانب باب الفيلا ليستقبل ضيوفه ، الذين كان من بينهم أيضا أعضاء السلك السياسى الأجنبى بتل أبيب .

وسرعان ما تبدد جو الاستقبال الدبلوماسى فجأة بعد التقاط أحد العاملين بالسفارة المصريه - الذى كان يستمع لاذاعات القاهرة بغرفة مجاوره - لأول خبر يذاع عن اطلاق النار بالعرض العسكرى . وسارع بإبلاغ السفير بذلك ، والذى شحب وجهه بسرعه . وخرج أحد ضيوف رجال السفارة الامريكية إلى حديقة الفيلا لاستقبال السفير سام لويس الذى كان على وشك الوصول فى أية لحظه .

ومع دخول لويس أسرع إليه مرتضى : « هل سمعت شيئاً عن اطلاق نار » ؟ وأجاب

لويس بالنفسى ، ثم أضاف : « سمعت عن ذلك توا هنا فى الفناء ، وللمره الأولى ». وقال مرتضى « أنا قلق ، إننى لم أنجح فى الاتصال بالقاهره . هل يمكنك استطلاع الأمر وبحث ذلك مع سفارتك ؟ » . واتصل لويس بالسفاره الامريكية إلا أنهم لم يكونوا يعرفون فى شارع هيركون أكثر مما أذاعته اذاعة القاهرة . ثم أسرع السفير الامريكى بعد فترة قصيرة عائدا إلى سفارته لكى يظل على اتصال تليفونى بواشنطن . وفى الظهر أجرى أول محادثة تليفونية - ولم تكن الأخيره فى هذا اليوم - مع رئيس الحكومة مناحم بيجين . ولم تكن حكومة اسرائيل ايضا تعلم فى البداية شيئا عما يحدث بالقاهره .. ووعد لويس رئيس الحكومة بإبلاغه أولا بأول بما سيرد إليه من اخبار من واشنطن .

وانهار فجأة ثاني استقبال ينظمه مرتضى احتفالا « بيوم الجيش » المصرى . وسارع المدعوون بمغادرة المنزل ، وكان آخر من تبقى هم الصحفيون الاسرائيليون ، الذين ظلوا ينتظرون مع مرتضى وأعضاء طاقم السفارة المصريه لتليفون من القاهرة . وعندما تأخرت المحادثة التليفونية قرر مرتضى توديع ضيوفه والذهاب بسرعة إلى مبنى السفارة المصرية فى شارع بازل رقم ٥٤ فى تل ابيب لمحاولة الاتصال المباشر بالعاصمة المصرية .

لقد أصابت أخبار اطلاق النار فى العرض العسكرى واحتمال « تعرض السادات لشىء ما » ، اصابت القدس بصدمة . وزاد التضارب بين الأنباء التى كانت ترد من أماكن مختلفه من الارتباك والحيرة التى سادت عقب التقارير الأوليه . فقد قال مصدر : لقد أصيب السادات ونقل إلى المستشفى العسكرى بالمعادى . وقالت اخر: لقد خرج السادات ومبارك دون إصابه الا أن وزير الدفاع أبو غزاله قتل . وكانت هناك حقيقة واحدة يكفى ان تثير قلقا خطيرا وهى: توقف إذاعة القاهرة عن بث إرسالها ، وإذاعتها مارشات عسكرية واغانى وطنية.

كان مناحم بيجين أحد هؤلاء الذين صعب عليهم أكثر من غيرهم تصديق هذا الخبر العسير . لقد أمضى رئيس الحكومة وقت ظهر السادس من أكتوبر فى بيته فى حى رحافيا بالقدس ممسكا بجهاز راديو متلقيا لتقارير رجال مكتبه .

وبدا للمحيطين به أنه كلما زاد تأكد أنباء موت السادات ،كلما ازداد رفض رئيس الحكومه تصديقها .

كان هناك من قال : « إن رئيس الحكومة كان يتعلق بكل بصيص أمل فى نجاة السادات » . وعندما أذاعت كل شبكات التليفزيون الامريكية تقريبا نبأ وفاة السادات ، فضل رئيس الحكومة الاعتماد على أخبار شبكة واحدة كانت لا تزال حتى هذا الوقت تتشكك فى موته . ومن المحتمل ان تكون روحه المعنوية قد ارتفعت حينما اتصل به رئيس الولايات المتحده السابق جيمى كارتر فى الساعة الثالثه بعد الظهر وقال له : « كل ما أعرفه أن

صديقنا السادات ليس مصابا بجروح شديدة » . وسعد بيجين بهذا الخبر وقرر الاثنان صلاة الشكر لسلامة رئيس مصر ولسرعة شفائه . ولم عرف بيجين أن كارتر اعتمد على ما يبدو على أشد التقارير تفاؤلا – وهو تقرير السفير الامريكى بالقاهره آرثرتون – الذى استقى معلوماته هو الآخر من أخبار غير دقيقة وصلتة من وزارة الدفاع المصرية .

ومن الصعب تفسير صدمة وقع الخبر التى اجتاحت رئيس الحكومة الاسرائيلية عند تواتر أول معلومات عن اغتيال السادات ، بدون أن نتوقف عند العلاقة الشخصية الخاصة التى نشأت بمرور الوقت بينه وبين الرئيس المصرى منذ أن التقيا للمره الأولى فى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ ، ثم خلال مؤتمر كامب ديفيد ، وانتهاء بتوقيع اتفاقية السلام فى مارس ١٩٧٩ . لقد كان الاثنان يختلفان فى أراءهما بين الحين والآخر بل وكان كل منهما يهاجم سياسة الآخر بشدة بالغة – ومع ذلك فقد عرف كل منهما تدريجيا كيف يقدر ويحترم الآخر .

ولئن كان هناك قـدر من المبـالغة أيضا فى القـول بأنه قد نشأ بين الاثنين نوع من « .. الألفه » – فإنه ليس ثمه شك فى أن علمهما بأن اسميهما سوف يقترنان بتاريخ الشرق الأوسط – عند الحديث عن مسيرة – السلام قد أسهم فى التقريب بينهما وفى إيجاد لغة مشتركة بينهما.

الا أن المعرفة الشخصية لم تكن هى وحدها التى أثرت فى حالة ومزاج رئيس الحكومة عند تلقية أخبار وفاة أنور السادات . ذلك أنه طالما ظل أنور السادات على قيد الحياة – كلما ظل بيجين والسادات يحملان سويا على عاتقيهما ليس فقط مسؤولية تنفيذ معاهدة كامب ديفيد واتفاقية السلام ولكن ايضا ظلا يحملان عبء الدفاع عنها وحمايتها من منتقديها الكثيرين داخل بلديهما . لقد كان الرئيس السادات يشكل ضمانة بأن مصر سوف تنفذ اتفاقية السلام نصا وروحا وأنها لن تجعل مسيرة التطبيع فارغة المحتوى . ورئيس الحكومة من جانبه كان يشكل ضمانة – بأن إسرائيل سوف تقوم بدورها عن آخره بالاتفاقية وأنها سوف تجلى مستوطنيها عن سيناء حتى الموعد الذى تحدد فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢ بالرغم مما سيسببه ذلك من آلام وحزن وبالرغم من المعارضة الداخلية فى إسرائيل .

وفجأة ، وقبل اكتمال الانسحاب بسته اشهر ، يحدث فى مصر تحول مفاجىء يؤدى

إلى اختفاء السادات عن الساحة . وأدرك بيجين - الوحيد الذى ظل باقيا بالحكم من الموقعين الثلاثة على اتفاقية كامب ديفيد - انه سوف يتعين عليه حاليا اتخاذ القرار الصعب فيما إذا كان الانسحاب سيستمر إلى نهايته ام سيتوقف . وهو وحده الذى سيتعين عليه تحمل مسؤولية النتائج الخطيرة التى قد تتمخض عن هذين القرارين .

وفى هذه اللحظات ، التى لم تتضح فيها بعد شخصية مدبرى الاغتيال أو حجم المؤامرة ضده ، فإنه سيصبح من المنطقى اتخاذ قرار بوقف الانسحاب ، خشية الا تحترم مصر التعهد بالسلام الذى حمله السادات على عاتقه ، وخشية أن تدير ظهرها تماما للاتفاقية المبرمة بين الدولتين .

إلا أنه ينبغى أن يوضع فى الاعتبار أيضا أن قرار وقف الانسحاب سوف يفسر على أنه نقض من جانب واحد لاتفاقية السلام أقدمت عليه إسرائيل - ومثل هـذا الخرق لن يقبله العالم ، وبالتأكيد لن تقبله مصر ولا الولايات المتحدة شريكة اتفاقية كامب ديفيد .

ولهذا السبب ، ولأسباب أخرى ، رفض رئيس الحكومة الاعتماد على الأخبار الأولية التى وصلت من القاهره عن موت أنو السادات . وفى أوقات ما بعد الظهيرة الصعبة فى يوم الثلاثاء فضل رئيس الحكومة التفاؤل ورفض ان يعير اهتماما للأصوات التى بدأت تتعالى فى إسرائيل ملمحه إلى الحاجة إلى التفكير فى وقف الانسحاب .

ولم يكن من المستغرب أن تصدر الصيحة الأولى : « لقد نجت سيناء » عن المستوطنين الإسرائيليين فى هذه المنطقة وفى يهودا والسامرة . وتجمع فى مركز ياميت التجارى الكثيرون وأخذوا يتعانقون ويقبلون بعضهم البعض أملين بأن تغير إسرائيل رأيها الآن بالنسبة لقرار إجلاء منطقة ياميت وسيناء . وصرحت جولا كوهين لإذاعة الجيش : « لقد ازدادت جـدا فرص إنقـاذ إقليم ياميت عقب اغتيال الرئيس السادات بالقاهرة . لقد جاءنا اليوم ، تماما كما جاءنا فى عيد يوم الغفران ، ضوء أحمر وتحذير من السماء بأن علينا أن نكف عن الثقة فى عملية الانسحاب هذه » .

إلا أنه كان هناك شركاء كثيرون آخرون يفكرون فى وقف الانسحاب . فقد قال رئيس لجنة الشؤون الخارجية والدفاع بالكنيست موشى أرينز!! إننى أرى هناك خطرا يهدد استمرار مسيرة السلام ، لأننا لا نعرف الآن كيف سيتصرف خليفة السادات » . وأضاف أرينز « ينبغى أن تجرى الآن دراسة أساسية وجوهرية لإعادة تقييم الموقف قبل أن نتخذ خطوات أخرى جديدة فى عملية الانسحاب » .

كذلك قال الوزير بورج ، رئيس اللجنة الوزارية لشؤون الحكم الذاتى : « ينبغى أن

ننتظر الآن لنركيف سيتصرف الرئيس الجديد ، وعلى الحكومة الإسرائيلية ان تحدد خطواتها بعد ذلك فقط » .

فى هذا الوقت ، الذى كان ينتظر فيه رئيس الحكومة والوزراء وصول معلومات موثوق فيها من القاهرة ، سلطت كل الأضواء على مسؤولى التقديرات المختصين فى إسرائيل ، حيث طلب منهم الإجابة بسرعة على الاسئلة الملحة التى ثارت فى تلك اللحظات ومنها : ما الذى حدث للسادات بالفعل ؟ من الذى يقف وراء الاغتيال ؟ ماهى التوقعات التى من المنتظر أن تحدث فى مصر فى الساعات وفى الأيام القريبة القادمة ؟ وما هى فرص واحتمالات نائب الرئيس - حسنى مبارك ، إن كان لا يزال على قيد الحياة - للسيطرة على الوضع فى مصر ؟ وإذا ما نجح فى الاستمساك بالسلطة ، فإلى أى وجهة سيتجه بمصر داخليا ، والأهم خارجيا ؟

إن هذه الأسئلة لم تكن مصيرية فقط بالنسبة للمدى القصير للاستعداد للانسحاب من سيناء خلال سته اشهر ، لكنها كانت مصيريه ايضا وحاسمه ؛ بالنسبه للموقف الذى سيتعين فيه على الحكومة الإسرائيلية أن تنتهجه بالنسبة لبقاء معاهدة السلام مع مصر وعلاقتها معها .

كان الجميع ينتظرون ما سيقوله المختصون وكان رئيس الدولة يتسحاق نافون ومكتب رئيس الحكومة ومكاتب الوزراء - يريدون الحصول على إجابات سريعة .

لقد كانت إسرائيل تولى اهتماما كبيراً - وبحق - بسلامة وأمن أنور السادات الشخصى منذ زيارته للقدس فى عام ١٩٧٧ ، ثم ازداد هذا الاهتمام بعد التوقيع على معاهدة السلام . وكان من الطبيعى فقط الاعتقاد - بعد الهجمات التى شنتها عليه محطات الإذاعه بالعالم العربى ذاته ووصفته « بالخائن » - أن يصبح السادات هدفا لمحاولات اغتيال من جانب مختلف العناصر التى أمنت بأنها لن تستطيع هدم اتفاقية السلام التى وقعتها مصر مع إسرائيل إلا بهذه الطريقة .

لقد أمكن أن نفهم من مصادر أجنبية أن القدس رأت أن من الصواب - فى كثير من المرات - أن تحذر الرئيس السادات من محاولات اغتياله . ولم يكن من الممكن بالطبع الحصول على موافقة القدس على الاعلان عن هذه المحاولات . ومن المعقول أن نفترض بأنه إذا كانت قد أرسلت مثل هذه التحذيرات إلى مصر ، فإنها تكون قد أرسلت بمبادرة من إسرائيل وليست بناء على طلب من مصر ، لا لأنه لم توقع بين الدولتين أية اتفاقية لتبادل المعلومات الاستخباراتية - فقط ، ولكن لأنه لم يكن من الممكن أن تنتظر من المصريين أن يعترفوا بأن الاستخبارات الاسرائيلية تتوفر لها معلومات لا تتوفر لهم ، وبالطبع لن يريدوا أن يظهروا علنا كعنصر يريد ومحتاج لمثل هذه المعلومات . على أية حال ، فإن الانطباع الذى

تكون فى إسرائيل هو أن السادات يعتمد ويثق فى أجهزته الأمنية .

لقد « قررت » العناصر المسؤولة فى إسرائيل عن إعداد التقديرات عقب موجه الاعتقالات التى قام بها السادات لمعارضيه فى بدايه سبتمبر - أن الرئيس المصرى قد « أصبح هدفا » . وهذا التقدير - أيضا - لم يكن فى حاجة إلى معلومات من مصادر فنية او سرية لتؤكده . بل إن السادات نفسه ألمح إلى ذلك فى خطابه الذى ألقاه فى ٣٠ سبتمبر والذى قال فيه : « إننى لا أخشى من شىء ، إن كل يوم لا أخطىء فيه ولا أغضب الله فيه يمكننى أن أنام فيه بهدوء وأمان » .

بيد أن الطريق كان بعيدا بين الإقرار بأن السادات قد « أصبح هدفاً » للمعارضه الاسلامية وبين التقدير القائل بأنه من المنتظر ان يقع اغتيال للسادات فى اية لحظة.

إن مفاجأة اسرائيل بالاغتيال لم تقل عن مفاجأتها بتوقيته وبالمكان الذى وقع فيه - حيث وقع أثناء العرض العسكرى الذى كان من المفترض أن يكون أكثر الأماكن أمنا وأماناً ، وعلى يد من ؟ على أيدى متآمرين خرجوا من صفوف الجيش الذى يعتبر أكثر العناصر ولاء للنظام .

وعندما بدأت المعلومات الأولية تتدفق واتضح أن السادات لم يكن الوحيد من بين القيادة المصرية التى كات تجلس بالمنصة الذى أصيب بجروح شديدة - تزايد الارتباك والحيرة فى إسرائيل . فهل من الممكن أن يكون هناك شخص ما - وربما بعض الأفراد - من بين الجالسين بالمنصة الرئاسية قد تآمر على اغتيال أنور السادات وكانوا شركاء فى هذه الفعلة ؟ والا - كيف يمكن أن تخطى رصاصات المتآمرين الشخصيات التى كانت تجلس بالقرب منه وهى - مبارك وأبو غزالة وغيرهما ؟

لقد بحث فى إسرائيل احتمال اشتراك مبارك سرا فى المؤامرة إلا أنه استبعد بنفس السرعة التى طرأ بها . لقد كان مبارك وريثا للسادات اختصه وأعده وأهله لهذا المنصب . وكان السادات يوكل إليه كل عام صلاحيات أخرى . وبالتالى لم يكن هناك سبب واضح يدفع مبارك لكى يخون ثقة السادات وينظم عملية اغتيال لإبعاده لكى يتولى المنصب الرفيع الذى كان سيتولاه طبيعيا فى النهاية . وليس هذا فحسب ، بل إن جلوسه فى هذا المكان القريب جدا من الرئيس المصرى على المنصة والشكل الذى تقدم به المغتالون نحوهما - وهم يوزعون رصاصهم فى كل اتجاه - قد أزال الشك بالنسبة لاحتمال اشتراك نائب الرئيس فى العملية .

وكان أول سؤال يطرح بعد الظهر هو : هل السادات لا يزال حيا ؟ . وتحدد التقدير الأولى بأن السادات قد مات فعلا بناء على آيات القرآن التى كانت تذيعها إذاعة القاهرة ،

وكذلك بناء على الجلسة الخاصة التى عقدتها الحكومة المصرية برئاسة مبارك .

ثم جاء الرد الأكيد والموثوق فيه فى الساعة ١٩,٥٠ فقط مع ظهور نائب الرئيس حسنى مبارك - وهو يلقى خطابه إلى الأمة المصرية بالتليفزيون . وفى الحقيقه فإن خبر وفاة السادات الذى اعلنه مبارك قد أجاب - بشكل جزئى على الأقل - على السؤال الرئيسى الذى كان يتردد فى ذلك الوقت وهو : من الذى سيخلف انور السادات ؟ . وكان كل ما يمكن استنتاجه والحكم عليه هو أن نجاة مبارك من الرصاص وهو بمنصة الشرف قد ضمن انتقـال السلطة اليه انتقالا منظما . ثم إنه إذا كانت هناك محاولة انقلاب وراء اغتيال السادات - فإنه قد بدى ان هـذه المحـاولة قد فشلت فى الساعات الاولى التى اعقبت الاغتيال - فإنه لم يظهر على شاشه التليفزيون وجه جديد باستثناء وجه نائب الرئيس حسنى مبارك الشاحب المتصبب عرقا .

إلا أنه قد برز الآن سؤال تال احتاج إلى إجابه شافية : بافتراض أن الذى نفذ الاغتيال هم نفر قليل بالفعل من المتآمرين لا يقف معهم ولا يساندهم تأييد شعبى عريض ، حينئذ بدت هذه الاسئلة ملحة: من هو مبارك ؟ وماهو موقفه تجاه مسيرة السلام ؟ وإلى أى اتجاه سيقود مصر ؟

وكان التقدير الذى تبلور فى نفس ذات الليلة فى إسرائيل هو أن تعيين مبارك المرتقب فى منصب الرئيس خلفا للرئيس السادات هو افضل ما يمكن أن تنتظره إسرائيل وتتوقعه ؟ . وقد اعتمدت أصول هذا التقدير وارتكزت على عملية تحليل سريعة لشخصية مبارك الذى كان غير معروف فى إسرائيل نظرا لخدمته الطويلة بالجيش - كما اعتمدت بشكل أكبر على حقيقة أن اختيار السادات لمبارك وايثاره له ليكون خليفة له - ولكونه شريكا قريبا فى مسيرة السلام ومخلصا لطريق انور السادات المتوفى - قد اوجدت لديه نوعا من « الالتزام » بالاستمرار فى المسيرة ومواصلتها .

ووفقا للمعلومات التى كانت موجودة فى اسرائيل ، واستناداً إلى انطباعات الشخصيات الاسرائيليه التى التقت بمبارك فى مصر أو فى المرة الوحيدة التى زار فيها إسرائيل - فى بئر سبع ، مع السادات - فقد كان التقدير هو أن مبارك يختلف بالفعل عن السادات فى شخصيته وفى طابعه وفى خصائصه المتميزة ، إلا أن أحدا من بين الاسرائيلين لم ينجح قط فى تذكر مناسبة ما أدلى فيها مبارك بآراء ووجهات نظر جديدة أو أفكار تختلف عن أفكار السادات . وقد تجسدت هذه الحقيقة فى المقابلة الوحيدة للصحف الاسرائيلية التى أجرتها معه صحيفة « معاريف » قبل الاغتيال بسته أشهر وهو لا يزال نائبا للرئيس السادات ، حيث

قال : « إننى مخلص للسادات ، وسأظل سائرا على دربه » .

ومن ثم لم يكن من الصعب على معدى التقديرات فى اسرائيل ان يقرروا بأن مبارك سوف يكون حريصا - على الأقل فى بداية حكمه - على مواصلة طريق السادات السياسى واتباع سياسته داخليا وخارجيا على حد سواء . وقد وجد هذا الاستنتاج المطمئن ما يدعمه ويعززه فى أول بيان سياسى يلقيه مرشح الرئاسة حيث قال فيه : « إن مصر سوف تحترم كل الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التى وقعت عليها ولن تتخلى عن مسيرة السلام إلى أن يتم التوصل إلى اتفاق شامل » . وحرص مبارك فى سياق بيانه على تأكيد رغبته فى العمل على اكمال الانسحاب الاسرائيلى من سيناء حيث قال بالحرف : « إن رفع العلم المصرى على سيناء بعد الانسحاب منها - سوف يكون دليلا على ولاء مصر وإخلاصها لطريق السادات » . ومن ثم فإنه لم يكن ثمة خطر كبير فى التقدير بأنه من غير المنتظر - حتى ابريل ١٩٨٢ على الاقل ، حدوث تغييرات فى سياسة مصر تجاه اسرائيل وتجاه مسيرة السلام إزاء الحرص المصرى على « عدم إعاقة استرداد سيناء » .

لقد كان هناك ما يبعث على الاطمئنان فى هذا التقدير . ثم ان التقدير القائل بأن فرص مبارك فى السيطره على الوضع فى مصر جيده ، لأنه لم تكتشف بعد مراكز وبؤر معارضه خطيرة تتهدد نظامه . ونظرا لأن كل اعضاء القيادة المصرية قد ظلوا فى مناصبهم - إضافه إلى وعوده بالاستمرار فى السير فى طريق السادات فى مسيرة السلام - كل هذا ساعد فى التخفيف من وقع الصدمة التى أصابت إسرائيل ، بالرغم من أنها لم تزل كل الشكوك . وقد راح المشككون يستغلون الأشهر السته المتبقية على إكمال الانسحاب من سيناء فى التشكيك فى الحاكم الجديد .

وربما كانت هذه المخاوف والشكوك إحدى الاسباب التى دفعت مناحم بيجين إلى اتخاذ قراره بالسفر إلى مصر للاشتراك فى تشييع جنازة السادات - ولمقابلة مبارك شخصيا - بهذه المناسبة . إن قراره بالسفر للاشتراك فى تشييع الجنازة لم يكن فقط تعبيرا عن التقدير الذى كان يكنه بيجين للرئيس السادات ، ولكنه كان أيضا رغبة فى التعرف على مبارك والاستماع منه - وجها لوجه - عن التزمه بالسلام مع إسرائيل .

ومع وصول الخبر اليقين عن موت السادات ، خرق بيجين صمته وخرج إلى الصحفيين الذين كانوا ينتظرون خارج بيته وقرأ عليهم ووجهه مكفهر بيانا صاغه بنفسه قال فيه : لقد اغتال اعداء السلام الرئيس السادات . لقد سقط ضحية اغتيال آثم ... وسوف يظل قراره بالمجىء للقدس واستقبال الشعب الإسرائيلى له كأحد احداث عصرنا العظام » . ثم أضاف رئيس الحكومة بنبرة شخصية : « لقد تكونت بيننا صداقه شخصيه خلال اللقاءات العديدة التى جرت بيننا. إننى لم أفقد اليوم شريكا فى السلام فحسب بل أفقد

صديقا ايضاً » . ثم أنهى بيانه بإبداء الأمل فى استمرار مسيرة السلام » كما كان يتمنى الرئيس السادات من كل قلبه .

وفى المساء بعث رئيس الحكومة برقية تعزية إلى جيهان السادات باسمه وباسم زوجته . وكتب فى برقيته أن كليهما يعتريهما الأسى والحزن لما آل اليها مصير زوجها « رئيس مصر العظيم » .

ثم بعث رئيس الحكومة ببرقية اخرى إلى نائب الرئيس - حسنى مبارك - قال فيها : « لقد كانت أمنية السادات القلبية أن تقف مصر وإسرائيل فى مواجهة أعداء السلام » . وفى الواحده بعد الفجر أرسل الرئيس نافون ثلاث برقيات لمصر : إلى جيهان وإلى نائب الرئيس مبارك وإلى الرئيس بالنيابة صوفى أبو طالب . وقد بعث بهذه البرقيات بعد اتصال السفير مرتضى به ليبلغه رسميا بالكارثة . فقد قال مرتضى بصوت مكلوم : « لقد فرض على الواجب المؤسف والحزين أن ابلغك بالكارثة » . ثم أمر بعد ذلك بتنكيس العلم فوق السفارة المصرية .

الفصل العشرون

التكريم الأخير

استغرقت جلسة الحكومة الخاصة التى عقدتها فى يوم الأربعاء غداة الاغتيال وقتا أقل من المعتاد ، خاصة بسبب قرب حلول عيد الغفران . وقد استعرضت بها التطورات المفاجئة التى وقعت فى مصر وتم فى نهايتها تشكيل الوفد الذى سوف يمثل إسرائيل فى الجنازة والمكون من : رئيس الوفد مناحم بيجين ووزير الخارجية اسحاق شامير ووزير الدفاع ارئيل شارون ووزير الداخلية د . يوسف بورج . وكان رئيس الحكومة مصراً على رأيه بالذهاب إلى القاهرة لحضور الجنازة بالرغم من أنه كان لايزال يعانى من آلام فى ركبته .

كذلك رغب رئيس الدولة يتسحاك نافون الذهاب للقاهرة ، إلا أنه اضطر للتخلى عن رغبته منذ اللحظة التى أبلغه فيها رئيس الحكومة بقراره برئاسة الوفد الاسرائيلى . لقد كان واضحاً أن الاثنين لن يمكنهما الذهاب سويا . فقد تقرر إجراء الجنازة فى يوم السبت ، ومن ثم جرت الاستعدادات على قدم وساق كى يسافر الوفد الإسرائيلى إلى القاهرة يوم الجمعة.

لقد بذل الحرس الإسرائيلى بالاشتراك مع نظرائهم المصريين جهودا كثيرة للتخطيط لحماية أمن وسلامة الشخصيات الإسرائيلية التى أوشكت على الانضمام إلى ممثلى حوالى ٨٠ دولة جاءوا إلى مصر لتكريم انور السادات التكريم الأخير . ومن بين الإجراءات الأمنيه التى تقرر اتباعها – سياره مدرعة تم نقلها بصفة خاصة جوا من إسرائيل لكى تضمن سرعة فرار الوفد فى حالة وقوع خطر . وأعلن المصريون مقدما – وهم لا يزالون بعد واقعين تحت تأثير صدمة القصور الامنى أنهم يعارضون حمل رجال الأمن الإسرائيليين لأسلحتهم .

لقد اقتضت الرغبة فى تمكين الوفد الإسرائيلى من حضور مراسم الجنازة فى مدينة نصر – المكان الذى اغتيل فيه السادات بدون تدنيس قدسية السبت بالذهاب إلى هناك بالسيارات – البحث عن مكان لإقامة الوفد الإسرائيلى ليكون قريبا بقدر الإمكان من المكان الذى ستجرى فيه المراسم . وقد قسم الوفد الذى ضم حوالى ٤٠ شخصا – بدون أفراد الحراسة – إلى قسمين . ونزل معظم اعضاء الوفد بفندق « هيات » ، بينما نقل وفد السفراء إلى النادى الرياضى الذى يقع على بعد كيلو متر ونصف فقط من قبر الجندى المجهول . كانت المسافه قصيرة حقا ، إلا أن الظروف كانت أبعد ما تكون عن المثالية. فقد كان مبنى النادى الرياضى مهجورا ومتداعيا ، وبلا دورات مياه وحمامات . ولم يخصص لاعضاء الوفد سوى ثلاث غرف فقط . وهكذا وجد الوزيران شامير وشارون نفسيهما فى

غرفة واحدة فيما أقام رئيس الحكومة مناحم بيجين ، والوزير بورج فى الغرفتين الأخرتين . واضطر الحراس الكثيرون إلى الاكتفاء بالممر .

وفى مساء السبت اكتشف الوفد أن مجموعة الأطعمة الكاشير التى حملها الوفد معه إلى القاهره - الأطعمة التى يراعى فيها تطبيق الأحكام اليهودية ، ولا يلتزم بها سوى المتدينين - تنقصها زجاجة خمر قدوش (نوع خاص من الخمر يتلى عليه دعاء التقديس يوم السبت) ، فأمر الوزير بورج بإحضار الخمر بأى ثمن . وقد جندت السفارة الإسرائيلية كلها نفسها قبل مغرب السبت للبحث عن زجاجة خمر كاشير - وكانت عبارة عن حملة توجت فى النهاية بالنجاح .

ومر مساء السبت على رؤساء الوفد الإسرائيلى فى مصر وهم فى النادى الرياضى الصغير والخانق بمدينة نصر ، وكان بوسع رئيس الحكومة أن يستعيد ذكرى اللقاء المثير الذى أجراه مع جيهان السادات وابن أنور - جمال - الذى كان موجودا بالولايات المتحدة أثناء الاغتيال ، وعاد إلى مصر فور سماعه للنبأ ، وكان قد أجرى هذا اللقاء معهما قبل فترة قصيرة . لقد قال بيجين لجمال : « أرجوك أن تعتبرنى عما لك وانت لزيارتنا فى إسرائيل فى أى وقت تشاء » . ولم يستطع جمال تمالك نفسه فبكى.كذلك حاولت جيهان السيطرة على نفسها وعدم البكاء حينما كانت تتحدث عن زوجها ، وأضافت بعض العبارات مدحاً لخليفته . فقالت : « يمكنكم الاعتماد على مبارك . فقد أهله وأعده زوجى لمنصب الرئيس » .

وفى مساء السبت أبدى المصريون حساسية للآلام التى يعانيها رئيس الحكومة بيجين فى ركبته ، فاقترحوا عليه التخلى عن السير مترجلا مع جمهور المرافقين فى مراسم الجنازة صباح السبت والبقاء فى النادى حتى غروب الشمس لزيارة قبر السادات ووضع إكليل من الزهور عليه . وعلى الرغم من أنهم لم يقولوا ذلك صراحة ، فقد كان البرنامج البديل يخفف عنهم عناء الحراسة أثناء السير بالجنازة . إلا أن بيجين رفض هذا العرض بتأدب ، وقرر القيام مبكراً من نومه للسير فى الجنازة بصحبة رؤساء الدول الأخرى أيا كانت الآلام .

وتجمع بالقاهرة صباح السبت زعماء العالم : ثلاثة رؤساء أمريكيون سابقون هم ريتشارد نيكسون ، وجيرالدفورد ، وجيمى كارتر ، ووزير الخارجية الكساندر هيج ، ووزير الخارجية السابق هنرى كيسنجر ، وكبار المسئولين الأمريكيين الذين شاركوا فى عملية السلام . ولأسباب أمنية لم يشترك الرئيس ريجان فى الجنازة ، كذلك اعترض الجهاز السرى الأمريكى على إرسال نائب الرئيس ، جورج بوش لنفس الأسباب ، ومن فرنساوصل جيسكار ديستان وخصمه فرنسوا ميتران ، ومن بريطانيا الأمير شارلز الذى كان قد زار القاهرة مع زوجته ديانا قبل عدة أشهر فقط فى رحلة شهر العسل التى أمضياها فى منطقة قناة السويس

حيث قام بجولة هناك بصحبة أنور السادات ، ومن ألمانيا قدم المستشار هيلموت شميدت ، ومن بين الشخصيات الأخرى التى حضرت الجنازة داغ سياد - يينج من الصين ، ومالكو لم فريزر من أستراليا ، والرئيس الإيطالى وملك بلجيكا ورئيس اليونان ورئيسة البرلمان الأوربى سيمون فيل وكثيرون آخرون .

وقد قاطع العالم العربى الجنازة كما قاطع العرض العسكرى ، وكان الرئيس السودانى جعفر النميرى هو الزعيم العربى الوحيد الذى قدم للاشتراك فى الجنازة ، وفضل سلطان عمان الذى اغتيل ممثله الشخصى فوق منصة الرئاسة البقاء بعمان وإيفاد ممثل عنه لحضور الجنازة. ولم يكن هناك من هو مستعد للاعتراف بأنهم ينفذون تعليمات مقاطعة مصر التى أعدت عقب مبادرة سلام السادات سوى بعض الزعماء العرب الذين تغيبوا عن حضور الجنازة . بينما زعم آخرون أنهم كانوا سيحضرون الجنازة لولا وجـود رئيس الحكومة الاسرائيلية بالجنازة . كذلك اضافوا أن مناحم بيجين لم يجىء لحضور الجنازة الا لينصب حاجزا بين مبارك وبين العالم العربى .

وفى السبت ، يوم الاجازة استيقظت القاهرة لاستقبال يوم عادى . لقد كانت هناك فجوة صارخة وعدم توازن رحيب بين التكريم الأخير الذى سعى إليه قادة دول من جميع أنحاء العالم لأنور السادات وبين لا مبالاه وعدم اهتمام الشارع المصرى إزاء افتقاد وابتعاد زعيم مصر صباح يوم الجنازة . ففى عام ١٩٧٠ جرفت وفاة جمال عبد الناصر ملايين المصريين إلى الشارع ، وتولد عنها مشاهد هستيرية جماعية وخرجت النساء تولولن وتمزقنى ثيابهن ، والرجال يصرخون بشوارع المدينة. إلا أن القاهرة صباح جنازة السادات كانت قاهرة هادئة تماما دون أن يكون هناك ما يزعج بها تقريبا . كانت حركة السيارات والمواصلات تسير ببطء ولم تلاحظ إمارات الحزن على المارة . ولم يكن ذلك - كما قال مصريون آخرون - اختيارا منطقيا بين الشارع الخطير الذى خطط له ليشهد أحداث شغب وحوادث عنف ، وبين المشاهد الآمنة والمريحة لمسيرة الجنازة أمام جهاز التليفزيون بالبيت . لقد كان هذا الإعراض تعبيرا صامتا ، ولكنه وضح بما فيه الكفاية الواقع الذى لم يعرفه انور السادات ، أو ربما كان يعرفه وفضل أن يتجاهله ، خاصة فى عامه الأخير . أما فى نظر العالم الخارجى فقد كان السادات بطلا وشخصية زعامية ، شبه مسيحية ، زعيما ذا رؤية استطاع أن يغير مسار التاريخ فى رحلة جرئية قام بها للقدس ، بينما فى نظر كثير من المصريين كان السادات رمزا لآمال وتطلعات الرخاء الاقتصادية التى لم تتحقق . إن سياسة الانفتاح الاقتصادى والليبرالية والتعاون مع الغرب التى اتبعها السادات لم تؤد إلى تخفيف معاناة الطبقات العريضة ، وحتى معاهدة السلام مع إسرائيل لم تسهم فى تحسين مستوى معيشة المصرى المتوسط .

أكثر من ذلك ، فإن شقة الغربة والعزلة بين أنور السادات وأبناء شعبه قد أخذت تتسع

فى السنوات الأخيرة . ففى البدء اتهمت المعارضة المقربين منه بالفساد وبالثراء السريع على حساب الأخرين ، ثم ألحت فيما بعد أن ذلك ماكان ليحدث لولا مباركة أنور السادات ، ثم بدأت تظهر رويدا رويدا انتقادات تلميحية للرئيس نفسه عن الفيلات الفاخرة التى يمتلكها في جميع أنحاء مصر ، وعن زوجته جيهان التى تتعارض تصرفاتها مع كل القيم الإسلامية الأخلاقية .

كذلك لم تضف طريقة تعامل السادات مع المعارضة لمكانته جديدا ، فلم تكن طريقة التعامل هذه انحرافاً عن طريق الديمقراطية التى كان يتباهى ويتفاخر بإدخالها وتطبيقها فى مصر فحسب ، بل كانت أيضا دليلا وبرهانا على عجزه عن السيطرة - دون أتباعه - على أساليب القمع والقوة. وسرعان ماسرى الإحساس بانعزال السادات وبأنه يعيش « فى كوكب آخر » وانه لم يعد قريباً من نبض الجماهير - الشخصيات المقربة منه والذين قلقوا جدا وانزعجوا لذلك - ليدب فى أوصال الشارع المصرى مما زاد من عمق شقة هذه العزلة .

والمصريون - على الرغم من مباركتهم لمسيرة السلام - لم يحبوا مهاجمة السادات لدول عربية ولا شتائمه للحكام العرب الذين لم يتبعوه ويسيروا فى طريقه . ولم يروا ما يدعو للدخول فى مثل هذه المواجهة العنيفة جدا مع زعماء الامة العربية .

كل هذا أسهم فى عدم خروج الشعب المصرى للشوارع ليعبر عن حزنه على الرغم من الصدمة التى أحس بها فى عملية الاغتيال . لقد بدت القاهره صباح السبت كعادتها لا كشوارع حاضرة ، لم تفق بعد من كابوس الليل .

وفى الساعة ٩,١٥ صباحاً وصلت قافلة السيارات الحكومية التى تقل جيهان السادات وأفراد عائلتها من بيتهم بالجيزة إلى مستشفى المعادى العسكرى .

وقد وقفوا لبضع دقائق إلى جانب نعش السادات الذى كان ملفوفا بعلم مصر ووضع على الارضية أمام مدخل مسجد المستشفى ، ثم عادت جيهان بعد ذلك إلى السيارة ، بينما ظل رجال الأسرة بالقرب من النعش وهم : جمال الابن وأزواج البنات محمود عثمان وحسن سيد مرعى وعبد الخالق ثروت . وانضم خلفهم حراس أنور السادات الخصوصيين مكفهرى الوجه بالاضافة إلى أعضاء سكرتارية الرئيس .

وطلب منهم الإمام الوقوف صفا واحدا بمسافة تبعد حوالى ثلاثة أمتار عن النعش . وفعلوا كما أمرهم . أما هو نفسه فقد وقف قريبا جدا من النعش وقرأ سورة « الفاتحه » (فاتحة القرآن) ترحما على روح أنور السادات . وأخذ المصلون وراءه يرددون آيات القرآن بأصوات تجهش بالبكاء . وخارج المسجد كان هناك طابور من الجنود يقفون بانتظارهم ، وقد اخذت وجوههم تتصبب عرقا من فرط حرارة الجو .

وفى نهاية المراسم القصيرة رفع حراس أنور السادات الخصوصيون النعش وحملوه على أكتافهم إلى سيارة الإسعاف التى كانت تقف بباب المسجد . وقد أحاط بالسيارة مجموعة من جنود المظلات وهم يرتدون قباعتهم ويحملون رشاشاتهم ، وبدأت السيارة تتحرك ببطء فى اتجاه ساحة إقلاع وهبوط طائرات الهليكوبتر بالمستشفى . وهناك دائرة أخرى - أوسع عددا - كانت تحيط بجنود المظلات وكانت تتألف من الحرس الشخصى للسادات ، وكانت هذه الدائرة تتكون من سيارتين جيب تابعتين للحرس الجمهورى ، وكانتا تتحركان ببطء أمام سيارة الإسعاف ، وسيارتين آخرتين من الخلف ، ويبدو أن السادات لم يحط بحلقة امنية فى حياته قط أكثر إحكاما من تلك التى كانت تحيط به فى موته .

ثم رفع نعش رئيس مصر إلى طائرة الرئاسه الهليكوبتر. وهى ذات الطائرة التى منحها له رئيس الولايات المتحدة كهدية ، والتى كانت تساعده - إلى جانب مزاياها الأخرى - فى التغلب على الاختناقات المرورية التى لا مصد لها بالقاهرة . وصعدت جيهان وأفراد عائلتها إلى طائرة أخرى كانت تنتظرهم بالساحة . وفى ثوان أقلعت الطائرتان فى اتجاه منصة الشرف بمدينة نصر .

وكانت كل الطرق ، والطرق المؤدية إلى منطقة الجنازة قد أغلقت بعد الفجر ، وكانت هناك دائرة يصل نصف قطرها إلى حوالى ثلاثة كيلو مترات حول المكان ، وقد نصبت فيها صفوف وصفوف من المتاريس . وطلب رجال الأمن من سكان المنازل الموجودة بالمنطقة اغلاق نوافذ منازلهم واحكام اغلاقها . وكان المخبرون السريون يجوبون المنطقة للتأكد من تنفيذ هذا الأمر. وفوق أسطح المنازل العالية كانت هناك وحدات من صفوة ، الجيش ومعهم رجال القناصة . وقد جاء كل المدعوون للجنازة عبر متراس نصب عند تقاطع شارعى رمسيس وصلاح سالم . وكان على الشخصيات « المهمة » بعد هذا المتراس المرور عبر سبع نقاط تفتيش أخرى قبل أن تصل إلى المكان الذى خصص لها فى خيمة كبار الشخصيات . وباستثناء رؤساء الدول وكبار الوزراء ، فقد تعرض سائر الحاضرين إلى التفتيش تفتيشا دقيقا . فقد طلب منهم إظهار الوثائق الخاصة التى منحت لهم ، والنزول من سيارتهم والسماح لرجال الأمن بتفتيش أمتعتهم وحقائبهم وتفتيش حقائب السيارات الخلفية . حتى رجال الأمن المصريون ووحدات الجيش التى اصطفت بمنطقة الجنازة كانت قد تعرضت إلى تفتيش رجال حرس الرئاسة الذين كانوا فى ذلك الوقت السلطة العليا والوحيدة فى كل ما يتعلق بالإجراءات الأمنية .

وفى الساعة ١٠,١٥ هبطت الطائرة التى كانت تحمل نعش السادات فى استاد المترو الذى يقع قريبا من منصة الشرف ومكان الجنازة ، وقام ستة ضباط من الحرس الجمهورى بإخراج نعش السادات وقام ستة آخرون بحمل النعش من هناك إلى السيارة الجيب التى

كانت تنتظر هناك ، ووقف كل ثلاثة ضباط فى جانب ، وفى نفس الثانية هبطت الطائرة الهليكوبتر الأخرى ، ونزلت جيهان وأفراد عائلتها منها وتوجهوا إلى المنصة الرئيسية بساحة العرض ، وتحركت السيارة الجيب التى تحمل النعش ببطء فى اتجاه ملتقى طريقى رمسيس والسادس من أكتوبر مارا بخيمة كبار الشخصيات .

ثم نقل النعش من الجيب إلى عربة المدفع التى يقودها ستة احصنة سوداء ، وكان هناك ستة ضباط من الحرس الجمهورى يقفون جانب عربة المدفع ، ثلاثة فى كل جانب . وكان يقف وراء عربة المدفع اثنى عشر ضابطاً يحملون على أيديهم الأوسمة والنياشين التى منحت للسادات فى حياته ، وكان يقف وراءهم اثنا عشر من كبار الضباط ممثلين لأسلحه الجيش المصرى .

وفى الساعة ١١,٤٥ أخذت الموسيقى تعزف السلام الوطنى للقوات المسلحة ثم المارش الجنائزى لفريدريك شوبان ، ورفع حرس الشرف سلاحه وبدأت القافلة فى التحرك . كان يسير فى مقدمتها وحدات رمزية تحمل أعلام الكلية الحربية المصرية وكلية القوات البرية والكليه الجوية والبحرية . بعدها — وحدات رمزية تمثل أسلحة الجيش المختلفة والشرطة ، وأخيرا ١٥٠ جنديا يحملون على ايديهم أكاليل الزهور .

وفجأه بدأت الأحصنه التى تجر عربة المدفع تهيج وتجمح ، وأوشك النعش الانزلاق من العربة. وربما كانت الموسيقى هى التى أخافت الاحصنة ، إلا أن صوت المذيع كان له تفسير آخر إذ قال : « إن الأحصنه ترفض ، كأنها تأبى أن تقود الزعيم إلى القبر — كأنها أحست أن هذا الزعيم زعيم خير لشعبه ولم يحن وقت رحيله بعد » . وكان يسير إلى يمين العربة — وبمفرده — رجل يرتدى الملابس المدنية وحليق الشعر وقد حلق يديه وراء ظهره وبدت إمارات الحزن تكسو وجهه ، وكان هذا الرجل رئيس وحدة الحرس الخاص لأنور السادات — اللواء سرحان .

وكان كبار الضيوف الذين تجمعوا بالسرادق ينتظرون لحين مرور عربه المدفع بهم ليسارعوا فى الاصطفاف فى الصف التالى للصف الأول من المرافقين الذى كان يضم أبناء عائلة السادات والرئيس المرتقب حسنى مبارك ورئيس السودان جعفر النميرى الذى كان الضيف الأجنبى الوحيد الذى أقحم بدائرة الاسرة الضيقة . ولم تسر بالجنازة جيهان ولا بناتها الثلاثة بل بقين بالمنصة ، حيث أغتيل السادات . وقد أعيد اصلاح المنصة بسرعة وصبغت من جديد ، حيث سدت الثقوب التى أحدثتها الرصاصات ودهنت من جديد .

لقد كان مسار مسيرة الجنازة قصيرا بالفعل ، حيث سارت فى نفس الطريق الذى كانت تتحرك فيه منذ ثلاثة أيام طوابير عرض الجيش المصرى ، ومن بينها سيارة خالد

الاسلامبولى اللورى . إلا أن معدل السير كان سريعا . ونظرا لسرعة المسير ، فقد ارتبك النظام وتداخلت الوفود وامتزجت بعضها ببعض . فقد وجد رئيس الحكومة بيجين نفسه فجأة بين رئيس الولايات المتحدة السابق جيرالدفورد والرئيس الفرنسى السابق جيسكار ديستان، وقد كانت ركبته تؤلمه إلا أنه واصل السير . ووجد وزير الداخليه د . بورج أنه من الصعب عليه اللحاق بإيقاع السير السريع فاستعان بأريك شارون الذى وجد نفسه فجأة يسير إلى يمين جعفر النميرى ، وبالطبع كان كثيرمن الزعماء الاجانب ، لا سيما الاسرائيليون – محاطين بحلقه محكمة من رجال الأمن . وكانت طائرات الهليكوبتر تحلق فوقهم . وكان جنود المظلات ذوى الملابس المزركشة بصفة مستمرة يحملون البنادق ذات السناكى المرفوعة وصفان من جنود الحرس الجمهورى يطبقون على المرافقين من الجانبين ، وكانت كل المسيرة تسير بين صفين من الجنود ذوى الملابس البيضاء منكسى الرؤوس ، وكان يفصل كل جندى عن الآخر مسافه ١٠ أمتار . وفى المقابل كانت تسير على جانبى الطريق العريض سيارات مدرعة للاستعمال عند الضرورة ، وكانت تسير خلفاً سيارات مدرعة أخرى منها السيارة التى جلبت خصيصا من إسرائيل .

لقد أدى كثرة عدد رجال الأمن والحراسة المتوترين ومشدودى الأعصاب الذين أخذوا يتنقلون بين المرافقين الأجانب إلى حدوث شبه مصادمات . فقد كانت حركه الجنود المصريين الفجائية – وهم رافعى السناكى لكى يفصلوا بين قافلة المرافقين المصريين وبين جماعات المشتركين فى الجنازة الأخرى – تثير الفزع والهلع ، بين جمهرة المشتركين وكانت تجعل رجال الحراسة والأمن الأمريكيين يقفزون من أماكنهم ، وكانوا أول من يستل مسدساتهم .

وبعد ١٥ دقيقة من الساعة الثانية عشرة ظهرا وصلت عربة المدفع إلى مكان قريب من المنصة الرئيسية وتوجهت يسارا فى اتجاه شاهد الجندى المجهول الذى حفر أسفله قبر أنور السادات ، وطلب من المرافقين أن يأخذوا أماكنهم على المنصة ، ولم يكن هناك سوى سلم واحد ليصعدوا عليه ، الأمر الذى سبب ازدحاما وفوضى . وأخذ رؤساء الحكومات ورؤساء الدول يدفع بعضهم البعض واضطر رجال الأمن إلى مصارعة كل منهم للآخر لكى يشقوا طريقا للشخصيات التى كلفوا بحراستها .

ودفن أنور السادات فى الوقت الذى كانت تجرى فيه « المعركة » فوق المنصة . ووقفت جيهان السادات أمام قبر زوجها المفتوح وبالقرب منها بناتها وابنها جمال ، وأزدواج بناتها . وخلفهم – وان كان قريبا منهم – كان يقف ابن الشاه الأمير رضا . وأنزل النعش إلى القبر عبر درجات الرخام وبين أضلع تمثال الجندى المجهول ، وكان حارس السادات الشخصى اللواء سرحان هو الذى ساعد فى إنزال النعش إلى القبر ، وقفت جيهان وقد

وضعت إحدى يديها على الأخرى ، وأخذت شفتاها تتمتم بآيات القرآن والدموع تنسال من عينيها . وانحنى ابنها جمال عليها لتهدئتها بينما وقفت إحدى بناتها « تسندها » من الخلف . وإلى يسارها وقف حسنى مبارك صلد الوجه .

وبعد مراسم الدفن نقلت جيهان وأفراد عائلتها إلى المنصة ومنها إلى الغرفة الثانية بحائط المنصة الصدفيه التى كانت ترقب منها عملية اغتيال زوجها . وظلت مايزيد عن نصف ساعة تقف هناك لاستقبال معزيها وقد اخذ هؤلاء يصافحونها ، ويصافحون الضيوف الآخرين ، وفى هذه الفوضى التى سادت المكان وجد رئيس الحكومة بيجين نفسه يصافح عن غير قصد رئيس السودان جعفر النميرى .

وعندما تفرق المشيعون ، لم يبق هناك سوى شاهد من حجر البازلت الأسود وقد كتبت عليه آية القرآن : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء ولكن لا تشعرون » . ثم كتب أسفل الشاهد : « الرئيس المؤمن محمد انور السادات ، بطل الحرب والسلام . عاش من أجل السلام واستشهد من أجل مبادئه » .

وفى ختام مراسم الجنازة أخذ الوفد الإسرائيلى طريقه عائدا إلى النادى الرياضى . وشق السير على رئيس الحكومة واستند إلى مرافقه المصرى ، مندوب وزارة الخارجية عمر سرى . وتأثر بيجين لهذه اللغة وحدث نفسه قائلا : ربما كانت هذه طريقة المصريين ليشكروه على قراره بالاشتراك فى الجنازة على الرغم من المعاناة والألم .

وباستثناء مظاهرة تأييد وحيدة للاعراب عن الحزن لوفاة الرئيس ، والتى تجمعت بتقاطع طريق صلاح سالم - رمسيس ، فقد ساد القاهرة صمت غريب وموحش . فقد كانت الشوارع فارغة تماما وكانت المحال مغلقة ونوافذ المنازل مغلقة أيضا .

وفى جلسة الحكومة الإسرائيلية التى انعقدت فى الحادى عشر من أكتوبر أبرز رئيس الحكومة أهمية حضور الوفد الإسرائيلى لجنازة السادات بالنسبة للعلاقات الإسرائيلية المصرية حيث قال : « لقد كان اشتراك الوفد الإسرائيلى بالجنازة مهمة إنسانية استحالت إلى مهمة قومية . لقد كان استثمارا مهما لمستقبل العلاقات بين الشعب الإسرائيلى والشعب المصرى . وشهد بيجين على نفسه بأنه قد بات مطمئنا الآن إلى مستقبل العلاقات مع النظام الجديد فى مصر بزعامة حسنى مبارك ، وإلى كل ما يتعلق بمعاهدة السلام بين الدولتين وبمسيرة السلام بشكل عام ، واقتنع بأن تصريحات الرئيس المنتظر الخاصة باستمرارية عمليه السلام صادقه تماماً .

وفى الاجتماع الذى عقد فى يوم الجمعة بين رئيس الحكومة وبين الرئيس المنتظر حسنى مبارك حكى الأخير لرئيس الحكومة أن السادات اعتاد على اطلاعه أولا بأول على

مضمون وتفاصيل « الاجتماعات » التى كانت تقتصر عليه مع الزعيم الإسرائيلى . وأعجب رئيس الحكومة بمقولة مبارك « سلام إلى الأبد » . وقد علق بيجين على ذلك بقوله : « إن الناس يمكن أن يقولوها مجرد كلمات ، ولكن عندما تقال فى ظروف حزينة ومأساوية كتلك التى قالها فيها مبارك فإنها تكون بلا شك كلمات صادقه » .

واتفق بيجين ومبارك فيما بينهما على أن تستمر – وكما كان مقررا –كل الاجتماعات واللقاءات الثنائية التى كانت قد تقررت فى حياة الرئيس السادات فى مواعيدها، وكذلك وزياره وفد مصرى لإسرائيل لاستمرار محادثات الحكم الذاتى فى ٢٥ اكتوبر ، كما اتفقا مبدئيا على عقد لقاء قمة بينهما فى موعد لاحق .

وفى جلسة لجنة الشئون الخارجية والدفاع التابعة للكنيست – التى عقدت فى نفس هذا اليوم – تحدث أيضا وزير الدفاع ، استنادا إلى انطباعاته التى تكونت لديه فى زيارته للقاهرة ، حيث قال إنه لا ينبغى التشكيك فى نوايا مبارك الإيجابيه نحو استمراره فى خط السادات السياسى ، وأضاف : « ونحن من جانبنا سوف ننفذ كل الاتفاقيات الخاصة بالانسحاب والتى كانت قد تقررت من قبل » .

الفصل الواحد والعشرون

« قضية رقم ٧/٨١ - أمن دولة »

ظلت مصر كلها تنتظر بلهفة محاكمة قتلة السادات . واعتبر الكثيرون ان الطريقة التى ستتصرف بها المحكمة العسكرية مع الأربعة وعشرين متهماً سوف تكون بمثابة أول محل تختبر به زعامة مبارك . فإذا شدد العقوبة معهم - فإن ذلك معناه أنه قرر السير على نهج سابقه وشن حرب على التطرف الإسلامى فى مصر . أما إذا أظهرت المحكمة معهم قدرا من الرحمة - فإن ذلك سيدل على رغبة الرئيس فى فتح صفحة جديدة والسير فى طريق يغاير الطريق الذى سار فيه أنور السادات .

لقد برهنت هذه الحقيقة - على الأقل - على تفتح النظام وانفتاحه : ذلك أن القيادة العليا اتخذت قراراً بأن تكون المحاكمات علنية ، وأن تقوم بنقل وقائعها كاميرات التليفزيون والفضوليون من الصحفيين الذين احتشدوا صباح الثانى عشر من نوفمبر ١٩٨١ أمام بوابات « نادى القطار » . ويقع هذا النادى بمنطقة الجبل الأحمر ، قريبا من مدينة نصر - المكان الذى أغتيل فيه أنور السادات .

وتضمنت القضية العسكرية « رقم ٧/٨١ أمن دولة » التى وضعت على طاولة المحكمة أسماء ٤٢ متهماً من أعضاء « الجهاد » . والتهمة هى : اغتيال رئيس الجمهورية . وكان على رأس قائمة المتهمين أسماء المغتالين الأربعة وهم : ملازم خالد الاسلامبولى ، وعبد الحميد ، وحسين عباس ، وعطا طايل . وفى سياق القائمة كانت هناك أسماء قادة « الجهاد » محمد عبد السلام فرج وعبود الزمر وطارق الزمر والشيخ الأعمى عمر عبد الرحمن . كذلك تضمنت القائمة أسماء « أمراء » الصعيد : كرم زهدى وفؤاد الدواليبى وأسامة حافظ (رجل الاتصال) ومحمد طارق اسماعيل وعاصم عبد الماجد . وقد أتهم بعضهم بتقديم مساعده .. مباشرة أو غير مباشرة فى عملية الاغتيال .

كانت هناك عدة سمات مشتركة جمعت بين المتهمين الـ ٢٤ ربما كان أبرزها حداثة أعمارهم : إذ لم يكن هناك سوى اثنان فقط تجاوز عمرهما الثلاثين عاماً .

وكان معظمهم من مواليد قرى أو مدن صغيرة بصعيد مصر ثم إنتقلوا فى أعمار أكبر نسبياً للإقامة فى المدن الكبيرة . وقد نشأ التعارف بينهم فى معظم الأحوال إما عن طريق العلاقات الأسرية أو أثناء الصلاة بالمساجد .

وكان أكثر من نصفهم ذوى ثقافة عليا أو على الأقل متوسطة (ثانوية أو دبلوم) ، أى من « الصفوة » الطبيعية لتجنيد أعضاء جدد للتنظيمات الإسلامية : فقد كان تسعة

منهم طلبه جامعيين واثنان من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات وطبيب أسنان وصيدلى وتلميذ ثانوى .

وكان هناك سبعة متهمون آخرون عسكريون ، منهم المغتالون الأربعة. وتبين من التحقيق ايضاً ان المتهمين الآخرين أيضا كان لهم كثير من الأقارب العسكريين . ثم اختتمت قائمة المتهمين بثلاثة منهم : اثنان حرفيان ، والثالث – سائق .

وكانت الإجراءات الأمنية التى اتخذت عند محاكمتهم صارمة للغاية . فقد تعين على كل من يريد حضور جلسة المحكمة الأولى أن يسجل اسمه فى قائمة خاصة قبل بدء الجلسة بوقت كاف ، ثم سمح للجمهور فى الساعة الـــ ٧,٤٥ بدخول قاعة المحكمة ، وكان من بينه بعض أقارب المتهمين . وقد طلب من المصورين تشغيل كاميراتهم ومن الصحفيين تشغيل أجهزة تسجيلهم أثناء عملية التفتيش الدقيقة التى جرت لأمتعة وملابس الداخلين للمحكمة . وقد نقلوا جميعا من ساحة المحكمة فى اتوبيسين إلى مبنى منخفض محاط بالأسوار والجنود وبابه من الحديد السميك ، وطالعتهم لافتة كبيرة علقت بواجهة المبنى كتب عليها : « المحكمة العسكرية العليا » .

لقد كانت هناك أسباب ثلاثة على الأقل دفعت السلطات المصرية إلى اتخاذ قرار بمحاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية بصفة خاصة ، سببان منهما رسميان تماماً وهما أن القتلة الأربعة خرجوا من صفوف الجيش ،كما أن عملية الاغتيال تمت فى منطقة العرض التى تعتبر منقطة عسكرية ، وكان ضحيتها رئيس الجمهورية الذى يشغل أيضا منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة .

بيد أنه كان هناك اعتبار آخر على مايبدو يتعلق بتشديد العقوبة ، فحكم المحكمة العسكرية أيا كانت شدته لن يقبله الشعب المصرى فقط تفهم اكبر من حكم المحكمه المدنيه ولكنه سيجد أيضا حقيقه ان الجيش المصرى لن يعد يتحمل اطلاقاً مظاهر عنف وارهاب تنطلق من بين صفوفه .

وقد قام رجال الأمن بتوزيع « بادجات » هوية خاصة على جمهور المنتظرين أثناء تجمعه أمام البوابة الحديدية .

وداخـــل القاعــه ذهل الجمهور لما يراه أمام عينيه ، فقد رأى المتهمين الاثنين واربعين – باستثناء المتهم رقم ٨ الذى كان لايزال نزيلا بالمستشفى – موجودين بالقاعة لكن أحدا منهم لم يكن جالسا بقفص الاتهام . لقد تم تجميعهم داخل قفص حديدى ضخم وضع فى مؤخرة القاعة ، وكان القفص مقسما إلى أربعة أقسام ضم كل قسم منها ستة متهمين ، وقد أخذوا جميعا ينظرون إلى جمهور القاعة الذى أخذ يشغل أماكنه فيها .

وقد بدا معظمهم صغيرو السن ،كانوا شبه غلمان ، بعضهم كان يرتدى « الجلابية » والطاقية البيضاء ، والبعض الآخر كان يرتدى ملابس فضفاضه ، وقد بدا خالد الاسلامبولى أنظف فى مظهره وأكثر هنداما فى ملابسه من رفاقه . فقد ارتدى بنطلونا فضفاضا بسيطا وقميصا أزرق اللون وجاكت رماديا ، وكان عبود الزمر الوحيد الذى يرتدى الملابس العسكريه ذات اللون الكاكى إلا أنه لم يكن يرتدى قبعة .

ولثانيه واحدة فقط بدا أن جيش المصورين والصحفيين يتمتعون بمزية وهمية على المتهمين القابعين بالقفص . فقد كان المتهمون يرتدون إلى الخلف وقد اعتراهم بعض الخوف من انقضاض الصحفيين والمصورين المفاجىء عليهم ، وقد أعمى بريق الكاميرات أبصارهم ، ولذا بدوا مرتبكين بعض الشىء للفوضى والاضطراب الذى أحاط بهم .

وكان الاسلامبولى هو أول من أفاق من المفاجأة وأدرك الميزة الكامنة فى حضور مندوب الصحافة والإعلام بالقاعة . فتقدم ناحية قضبان القفص الحديدية وأخذ يلوح بالمصحف وطفق يصرخ بأعلى صوته : « ها أنا قاتل الطاغية. أنا قاتل فرعون . أنا لا أخشى شيئاً – حتى الموت » . واخذ يجول ببصره لينظر تأثير كلامه على الحاضرين ولما لم ير أحداً يسكته راح يزمجر مرة ثانية ، وإن كان هذه المـرة بصوت الواثـق من نفسه ، صوت الآمر : « مالى لا أرى أحدا من أقاربى . أين هم ؟ هل اعتقلتموهم أيضاً ؟ » .

كانت أم خالد وخالته وأخته يجلسن بالقاعة صامتين ، وربما لم يشاهدهن خالد بسبب ذلك من النظرة الأولى . وظلت الأم – قدرية – تعلق بصرها بإبنها وراء القضبان ولم تنزل بصرها عنه .

وكانت قدرية قد غادرت القاهرة قبل العرض كما أمرها خالد ، فقد أمرها بالذهاب إلى نجع حمادى لكى تتمكن من استكمال الاستعدادات الخاصة بعيد الأضحى الذى كان سيحل فى اليوم التالى للعرض ، وقد وعدها بأنه سيلحق بأفراد أسرته فور انتهاء العرض ليتناول إفطار العيد معهم .

وفى يوم العرض نزلت قدرية ضيفة على خطيبة إبنها محمد أخو خالد فى قرية ملوى القريبة من نجع حمادى ، وكان الإثنان قد خططا للزواج والاحتفال به فى القرية إلا أن المشروع ارتبك بسبب اعتقال محمد . وكان محمد قد طلب من أخيه خالد قبل اعتقاله أن يحضر معه الحلوى والشيكولاته لحفل الزواج عند مجيئه إلى ملوى للاحتفال معهم بعيد الأضحى وحضور عقد قرانه ، وعندما ودع خالد والدته بالقاهره أكد لها أنه سيلبى طلب محمد وسيتوقف بعد العرض عند محل الحلوى ليشترى له ما طلبه منه .

لقد سمعت قدرية صوت طلقات الرصاص بالعرض العسكرى أثناء مكوثها فى منزل

خطيبة محمد ولم يخطر ببالها أن خالد ابنها هو الرجل الذى كان يرأس مجموعة المغتالين .

ولم تعلم بذلك إلا مساء هذا اليوم عندما حوصر البيت بوحدة من رجال الشرطة والجنود والمخبرين الذين يرتدون الملابس المدنية واقتحم ضباط الشرطة البيت طالبين من الوالد أحمد شوقى اغا مرافقتهم ؛ وسألهم الوالد بعد أن افاق من ذهوله : « ماذا فعلت لكى تتصرفوا معى هكذا ؟ » .

وقد مضى شهر فقط على اقتحام المخبرين لبيته واصطحابهم له مع ابنه محمد الذى لم ينجح أحد منذ ذلك الوقت فى رؤيته ، وسألهم : « وماذنبى ، ما الذى ارتكبته » . فأجابه الضابط بنوع من الشده والصرامه : « ابنك خالد أطلق النار على رئيس الجمهورية » ، فامتقع وجه الوالد وتسمر فى مكانه . وكادت قدرية ان يغشى عليها ، فقال لها زوجها : « أنا مقتنع أن هناك خطأ ، ولا أكثر من ذلك . سأعود بعد يومين » .

وفى خلال ثوان كانت نجع حمادى كلها والقرى التى حولها قد علمت بما يحدث بأسرة الاسلامبولى . ولم تبق صورة خالد التى نشرتها الصحف غداة الاغتيال أى شك فى قلب أحد . وانهارت قدرية تحت وطأة الأزمات التى تعاورت عليها وعلى أبناء بيتها الواحد تلو الآخر : فإبنها محمد مسجون فى سجن ليمان طره بتهمة الانتماء إلى الجماعات الإسلامية ، وزوجها مسجون بشبهة مساعدته لإبنها الآخر خالد الذى يجرى التحقيق معه بالمستشفى لاغتياله لرئيس الجمهورية .

وللحق ، فقد عامل سكان نجع حمادى قدرية معاملة حسنة اتسمت بالاحترام وبضبط النفس ، فلم يؤذوها ولم يؤنبوها ، بل على العكس – شاطروها أحزانها وحاولوا مساعدتها بقدر الإمكان ، وأخذت قدرية منذ الاغتيال تتنقل مرة ثانية بين شقق بناتها بالقاهرة ، وقد فشلت كل محاولاتها للالتقاء بزوجها فى سجن أبو زعبل الذى كان يسجن به او مقابلة محمد فى سجن ليمان طره . إلا أنه سمح لها فجأة بزيارة إبنها خالد فى المستشفى العسكرى ولعدة مرات . فهل كانت تأمل أجهزة الأمن بأن تتمكن من معرفة أعضاء جدد بالجهاد من خلال التصنت على الحوارت التى تجرى بين الأم وإبنها بالسجن ؟

لقد وجدت قدرية إبنها وقد اعتراه الهزال والضعف وهو مضمد الجراح ، ولم تكن جروحه التى أصيب بها من الرصاص الذى أطلق عليه بالعرض قد التأمت بعد ، وقد لوحظت بوضوح آثار الكلمات التى كان يوجهها المحققون له أثناء التحقيق – بيد أن روحه المعنوية كانت صلبة وقوية ، فقد ظل يقرأ القرآن بصفة مستمرة ودون توقف ، ولم يكن بقلبه مثقال ذرة من ندم على ما فعله . كان كل ما يؤلمه فقط هو ما سببه من معاناة وإيلام

لأفراد عائلته من جراء ما فعله . فقد قال « لم أرتكب إثما ولا جريمة ، ما فعلته كان من أجل الله ، فإذا ماضايقوكم وآذوكم بسببى فمعلهش . سامحونى . إننى لست نادما على ما فعلته لكن اريد أن تغفروا لى ما سببته لكم من عناء وتعب » .

لقد آلمه بصفة خاصة ماحدث لأخيه محمد وأبيه السجين ليته يستطيع رؤيتهما . لقد بكت قدرية مر البكاء وحاول تهدئتها ومواساتها : « كونى قوية . تشجعى يا أماه . صلى لله وكونى مستعدة لتقبل حكمه » ، فردت عليه قائلة: « الم تفكر فىّ وفى أبوك؟ » .

« آسف أماه . لم أفكر سوى فى الله (سبحانه) فقط . فهو (سبحانه) الذى سيحاسبنى » .

لم تكف قدرية عن الصلاة والدعاء لله كيلا يصب رجال أسرتها الثلاثة بمكروه وذلك منذ آخر لقاء لها بإبنها فى السجن وحتى اللحظة التى رأته فيها بقاعة المحكمة من وراء القضبان .

وفى مقابلة أجرتها معها صحيفة سعودية قالت إنها سمعت من خالد إنه أراد قتل السادات ، فقط ولم يرد إصابة مبارك لأنه كان يعتقد أنه لا طائل من وراء قتله ولن تستفيد مصر بذلك ، وتوجهت من فوق صحاف الصحيفة السعودية بنداء إلى مبارك لإطلاق سراح ابنها محمد وزوجها السجينين لأنهما لم يقترفا إثما . وحتى الآن وهى تجلس بقاعة المحكمة كانت شفتاها تتمتمان : « اللهم اغفر لخالد » .

ولوكان خالد قد نظر خلفه فيما بعد ورأى أمه وخالته وأخته بالقاعه – لما كان قد التفت لوجودهن . وقد نظر إلى الصحفيين وأخذ يحل حنجرته ، وفى غمضه عين انضم إليه كل المتهمين من وراء القضبان وأخذوا يصيحون: « قمنا من أجل الله ، وتوكلنا على الله ، أردنا رفع الراية ، لم نعمل من أجل حزب ، أرواحنا فداء للدين ، الله أكبر ، لا اله الا الله ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله ، ومن أجلها سنخوض الحرب المقدسة ... »

كان خالد مسرورا من حسن إصغاء الجمهور ، وكانت تعلو الابتسامة وجهه أحيانا . وخفت حده لهجته ، وصاح على أحد الصحفيين وكان يقف بالقرب منه « هيه » . « من أنت ؟ وما إسمك ؟ ما الذى تفعله هنا ؟ » وظل الصحفى واجما ، وحاول خالد جذب أطراف الحديث معه ، فقال وقد بدت عليه إمارات الفخر : « أرأيت ما فعلته بالعرض ؟ ما رأيك فيما فعلته ؟ » . ورويدا رويدا ، وفى الدقائق المعدودات التى تبقيت حتى دخول القضاة قاعة المحكمة بدأ أعضاء « الجهاد » أيضا يفهمون ويدركون ما أدركه خالد منذ اللحظه الأولى التى رأى فيها طاقم الصحفيين والمصورين فى قاعة المحكمة . لقد فهموا

كما فهم أن الذى سيجرى محاكمته هنا هو أنور السادات لاهم ، إنهم سرعان ما سينجحوا بقوة اتحادهم وترابطهم ، وبما بدا على الجمهور داخل وخارج القاعة كتأييد وتعاطف معهم، سينجحوا فى أن يتحولوا من متهمين ، سينجحوا فى إثبات كفر السادات وخيانته للأسس والعقائد الدينية .

وفى الساعة ٩,٠٣ أطبق الصمت على المحكمة عندما صاح الحاجب بصوت مدو يعلن : « محكمة » – وبدأ القضاة يدخلون القاعة . كان أول من دخل القاعة رئيس المحكمة – اللواء سمير محمد فضل ، ثم دخل بعده القاضيان : اللواء مصطفى ماهر واللواء عبد العزيز الشاعر ، وشغلوا مقاعدهم على المنصة العالية . وإلى يمينهم جلس رجال النيابة العسكريه ومن بينهم اللواء فؤاد خليل ، والمدعى العام العسكرى والعقيد محمد عبد القادر رجل السلاح البحرى الذى شغل منصب المدعى بالمحاكمة .

وكان لعدد من المتهمين محاميون بالقاعة ، أما الآخرون فلم يكن لديهم محاميون ، ومن بينهم المتهمون الخمس الأوائل ، وقرأ رئيس المحكمة أسماء المتهمين وطلب منهم النهوض من أماكنهم عند نداء أسمائهم للتعرف عليهم :

« المتهم رقم ١ .ما اسمك ؟ »

« خالد احمد شوقى الاسلامبولى » .

« سنك ؟ »

« أربعة وعشرين عاماً »

« بتشتغل ايه »

« ملازم بالقوات المسلحة »

« معك محامى ؟ »

ونظر الاسلامبولى إلى القضاة وقال : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ، وقال رئيس المحكمة : « ستعين لك المحكمه محامياً ». وتلا على خالد وعلى المتهمين الآخرين لائحة الاتهام باغتيال السادات وبالمساعده فى الاغتيال ثم فض الجلسة.

وقد اتضح للمحكمة فى نهاية « الجولة » الأولى أن عليها أن تعين تسعة محامين آخرين كدفاع ، وقد حظى خالد الاسلامبولى بعبد الحليم رمضان وهو محام ممتاز عمره ٥٧ عاماً ، وقد اشتهر بعدائه للسادات ونظامه ، ولهذا وافق أيضا طواعية على الدفاع عنه . وفى عام ١٩٧٧ تولى الدفاع عن شكرى مصطفى زعيم « التكفير والهجرة » الذى أتهم – من بين اتهامات أخرى – باغتيال وزير الأوقاف السابق بالحكومة المصرية حسين الذهبى ، ولم يجد الدفاع المستميت عن شكرى حيث أعدم ، لكن هذا الدفاع اسهم فى ذيوع صيت

رمضان ، وقد برز اسمه منذ ذلك الوقت بضعة مرات فى دعاوى قانونية كثيرة رفعتها المعارضة السياسية ضد أعمال النظام الحاكم . وفى إحدى المرات حكمت المحكمة لصالحه عندما رفع دعوى للمحكمة لكى تحظر على رئيس الجمهورية مهاجمة وتشويه صورة المعارضة عبرموجات الإثير .

وسرعان ما أظهر عبد الحليم رمضان خبرته وبراعته عند انعقاد الجلسة الثانية للمحكمة ، فقد استهل رئيس المحكمة الجلسة بتلاوته لصحيفة اتهام المتهمين ، ومرة أخرى تتجه الأنظار إلى المتهم رقم ١

« ملازم خالد الاسلامبولى – أنت معترف بالتهمة ؟ » قرب خالد وجهه من القضبان . وصحيح أنه كان هو ورفاقه متهمين إلا أنهم بدوا أصدقاء أقوياء ، ولم تلاحظ عليهم آثار تعذيب فى هذه المرة ولا معاناة بالسجن ، راح خالد يتنفس الهواء بملء رئتيه ويقول :

« لقد قتلت أنور السادات . أعترف بهذا . ذلك أمر دينى ... » ولم يتركه رمضان يسترسل ، وقفز من مكانه كمن لدغه عقرب وطلب من المحكمة السماح له بالحديث مع المتهم ، وظل رمضان يتحدث همسا مع الاسلامبولى لبضعه ثوانى ثم عاد إلى مكانه ، وقال :

« موكلى يريد من المحكمة اعادة تلاوة صحيفة الاتهام » .

وتلا رئيس المحكمة بنود الاتهام مرة أخرى ، وساد القاعة صمت مطبق . كان الجميع ينظرون إلى الرجل ذى الوجه المستدير المزدان بلحية سوداء كثة .

« لا أعترف » . وإذا بالاسلامبولى يغير كلامه تماما . « إننى برىء » لقد اتضح خلال بضع دقائق معدودة اتجاه الدفاع . فهو سيدعى أولا ان المحكمة غير مخولة بالبت فى مقتل السادات نظرا لأن الموضوع يحمل طابعا دينيا صرفا ، وسوف يدعى الدفاع أن المسلمين مارسوا عملهم مدفوعين بدوافع دينية . إن رمضان سوف لا يحاول فقط إثبات كفر السادات لكنه سيحاول أيضا أن يثبت أنه حاكم تصرف بما يتعارض ومصالح الدولة . ولتبيان صدق مزاعمه فقد طالب بالإتيان بسلسلة من الشهود من الشخصيات البارزة والشخصيات العامة . وقال : إن القاسم المشترك الذى يجمع بين هذه الشخصيات هو تضررهم بشكل أو بآخر من سياسة أنور السادات الخارجية والداخلية ، وكان من بين هذه الشخصيات – على سبيل المثال – وزيرا خارجية استقالا احتجاجا على سياسة سلام أنور السادات وهما – إسماعيل فهمى وإبراهيم كامل ، ومن بين هذه الشخصيات أيضا الرئيس السابق لنقابة المحامين عبد العزيز الشوربجى الذى فصل من وظيفته بأمر من السادات بعد

إفراطه ومبالغته فى نقد النظام ، وكذلك زعيم الإخوان المسلمين عمر التلمسانى الذى أودع السجن فى حملة الاعتقالات التى جرت فى الثالث من سبتمبر مع الشيخ صلاح أبو إسماعيل ،كذلك أيضا لم يشغل مكان محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام السابق الذى اعتقل هو الآخر وأودع سجن طره .

إن قائمة الشهود التى تقدم بها الدفاع لم تدع مجالا لأى شك إزاء نواياه فى استغلال محاكمتة قتلة السادات وأعضاء الجهاد لتشويه صورة وشخصية الرئيس المتوفى ، وبذلك يبرىء ساحته ويضىء أوجه موكليه بإعتبار عملهم هذا كان لمصلحة الدولة . ولم يشعر محاميو الدفاع أنهم قـد تجاوزوا الحدود حينما طـالبوا بمثول كل هؤلاء أمام المحكمة للشهادة – وكذلك جيهان السادات ، لكى تشهد على فساد زوجها وربما لكى تعترف أيضا بأنها قد انحرفت عن الصواب .

ولم يكن بوسع المحكمة أن تتحمل أكثر من هذا فرفض رئيس المحكمة الموافقة على طلب الدفاع والتوقيع على استدعاء قائمة الشهود ، وكان حضور الصحفيين محرجا فى حد ذاته بالنسبة لهيئة المحلفين . وإزاء التنافس الشديد بين المتهمين فى الصياح والضجيج وترديد الشعارات وهم وراء القضبان قررت المحكمة عدم السماح للدفاع بأن يحول المحاكمة إلى عرض مسرحى ، بيد أن المحاميين نهضوا من أماكنهم مغادرين قاعة المحكمة كما لو كانوا رجلاً واحداً . وقد توجه ٢٠ منهم مباشرة إلى قصر العروبة للاحتجاج والتظلم للرئيس مبارك من قرار القضاة .

ورفض مبارك استقبالهم وقررت المحكمة التنازل مطلقا عن خدماتهم ، ولم يكن من الحكمة أن ينتظر هؤلاء المحامون البارعون من مبارك أن يقف إلى جانبهم ويعضدهم بعد أقل من شهرين على مقتل السادات فى تشويه صورة السادات والاساءة إليه تحت سمع وبصر اجهزة الاعلام المحليه والعالميه .

وتراجع محامو الدفاع بعد فترة قصيرة عن احتجاجاتهم ، وقد عزفوا إهانة المحكمة وعادوا ليمثلوا المتهمين مرة أخرى . إلا أن الأمور تغيرت فى هذا الوقت تغيرا تاما وجذريا . فبداية افتقد المتهمون المنبر العام الذى أملوا فى الاستفادة منه والتعويل عليه وذلك حين قررت المحكمة أن تكون الجلسات القادمة مغلقة ، وأن تتم بعيداً عن أعين اجهزة الإعلام والجمهور ، « حتى تلاوة قرار الحكم » . ثم فقد بعد ذلك المحامون كل مايبدد الثقة التى أولتها لهم مجموعة « الجهاد » الواقفة أمام القضبان . وقد توقف خالد الاسلامبولى منذ الجلسة السابقة عن التعاون مع محاميه ، بل رفض الالتقاء به . وظل خالد مطمئنا جدا واثقا فى دفاع اللـه عنه منتظراً بأناة وسكينة حتى انتهـاء المحاكمة ، وكان دائما ما يردد لحراسه :

« إن الله هو المدافع عن المؤمنين » .

وكانت تتلى طيلة الجلسات المغلقة جانبا من اعترافات المتهمين التى أدلوا بها فى التحقيق معهم :

ملازم خالد الاسلامبولى

« ما الذى اردت ان تجنيه باغتيال رئيس الجمهورية ؟ »

« أن أحذر كل من سيأتى بعده وأردع كل من يرد اقتفاء أثره والسير على دربه » .

« الم يقرر السادات أن الشريعه الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع فى مصر ..»

« لم يكن سوى منافقا . لقد أراد فقط التظاهر بأنه حاكم مسلم ، لكنه فى الحقيقة ضحك علينا جميعا وخدعنا »

لقد زعم خالد بإصرار أنه لم يقصد سوى إصابة السادات فقط فوق المنصة ، ولهذا صرخ فى أبو غزالة : « ابتعدوا عن الطريق . لا أريد إلا هذا الكلب » (ولم يسمع أبو غزالة إطلاقا هذا النداء) .

حسنى عباس

« قبل أن أطالب بالانضمام للعملية كنت قد توصلت إلى استنتاج بأن هذا الرجل ينبغى أن يقتل » (لقد حرص المتهمون على ألا يذكروا اطلاقا لقب أنور السادات كرئيس للجمهورية) . « لقد دعوت الله بأن يمنحنى شرف قتل الطاغية ليدفع ثمن أخطائه » .

« هل كنت تكره السادات ؟ »

« لم أشعر بكراهية شخصية تجاهه . فأنا مسلم وأصلى والإسلام هو كل ما يهمنى »

عطا طايل

« ألم تخشى من تعرض أناس أبرياء على المنصة أيضا للإصابه والضرر ؟ »

« كلهم سيحاسبون جميعا يوم القيامة على أفعالهم ونواياهم . فإذا قتل شخص برىء فسيدخله الله الجنه يوم القيامة » .

« وأى عيب وجدته فى رئيس الجمهورية ؟ »

« إن السادات لم ينفذ الشرائع والقوانين الإلهية . لقد أراد الفصل الدينى عن الدولة . لقد عارض حكم الله ، الذى يأمر المرأه بالبقاء فى البيت ولا تغادره إلا اذا كانت مضطرة . لقد سخر من النقاب وترك الكفار يعيشون فسادا ويفعلون ما يشاءون . وهل خطر ببال أحد أن يسمح مجلس الشعب (البرلمان) بالرقص وبيع الخمر وبالزنا ؟ .. إننا لا نملك جيشا ولا نملك قوة سوى الاغتيال كوسيلة للقضاء على الحكام الذين أحاطوا أنفهسم بأسوار

حديدية »

« هل كان الرئيس فقط هدفا للهجوم ؟ »

« أردت أيضا اغتيال إسماعيل نبوى (وزير الداخلية) لأنه عزب المسلمين بالسجون» .

« لكن السادات كان يصوم ويصلى فلم لم تنتظروا حتى ينفذ ماجاء بالدستور ، أى بأن الإسلام هو دين الدوله ؟ »

« إن النص المكتوب على الورق لا يساوى حتى قشرة الثوم ...لقد ألغى السادات فى الحقيقة كل ما تبقى من الشريعة الاسلامية » .

عبد الحميد

« لا وجه للمقارنة بيننا وبين ثورة الخومينى ، فالخومينى أبعد ما يكون عن تطبيق الشريعة الإسلامية . فهو شيعى . ومثل هذه المقارنة تشوه صورة الحكم الإسلامى وليست فى محلها » .

عبد السلام فرج

« هل من المعقول أن نهاجم شخصا حاول ادخال نظام الديمقراطية فى مصر ؟ »

« عن أيه ديمقراطية تتحدثون ؟ تقصدون ديمقراطية انجلترا ، يقر فيها مجلس اللوردات قانون العلاقات الشاذة جنسيا ويصادق عليها ويجعلها علاقات شرعيه ؟ فهل هذه ديمقراطية ؟ »

(واشتكى عبد السلام فرج من التعزيب العنيف الذى تعرض له فى سجن القلعة بالقاهرة » .

وتحددت جلسة المحكمة للنطق بالحكم على متهمى « الجهاد » فى السادس من مارس عام ١٩٨٢ وتقرر أن تكون جلسة علنية يحضرها الجمهور والصحفيون والمصورون . وكانت هناك مفاجأة تنتظر ١٥٠ من هؤلاء الذين خضعوا مره أخرى لسلسلة من التفتيشات والإجراءات الأمنية المشددة عند مدخل المحكمة ونالوا شرف الدخول إلى القاعة . فالمتهمون الأربعة وعشرون الذين يقفون وراء القضبان كانوا يبدون وكأنهم عائدون من معسكر استجمام. فقد كانوا نشطين يقظين وكأنهم مستعدون للمعركة .

فقد ازداد وزن خالد ٢٠ كجم خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة ، وسمن وجهه المستدير الذى يشع بريقا ينم عن رضا وسرور ، وكانت الروح المعنويه لجميع المتهمين عالية ، وعلقوا على القضبان شعارات تستهجن أنور السادات وتستهجن سياسة سلامه مع اليهود أعداء الإسلام وعلى إحدى اللافتات رسمت نجمة داود وهى تقطر دما ، وكانت هناك لافتات أخرى مكتوب عليها آيات القرآن ، وتسلق أحد المتهمين إلى سقف القفص وأخذ يدلى منه

شالا مربوطا فى شكل حبل المشنقة ، دلالة على ماينتظر الكفار من نوع أنور السادات ، وكان المتهمون يرددون كل بضع دقائق الأناشيد ، ويلوحون للجماهير بالمصاحف التى كانوا يحملونها فى أيديهم .

وفى الساعة ١٠,٤٥ دخل القضاة قاعة المحكمة . وتوقفت الجلسة بعد ٢٥دقيقة بسبب عطل فى الدائرة الكهربائية . وفى البداية أخرج الصحفيون من القاعة إلى غرفة مجاورة ، ثم خرج بعدهم القضاة وظل المتهمون وأقاربهم بالقاعة المظلمة . وحاول السجناء استغلال الوقت فى زيادة الفوضى والاضطراب أثناء محاولة الفنيين إصلاح العطل ، ولكن عبثا . وبعد ساعتين تقرر نقل منصة القضاة إلى الحجرة المجاورة التى تم فيها تركيب مصابيح ضوئية مؤقتة ، إلا أن المتهمين ظلوا فى قفصهم ، ولم يستمعوا إلى رئيس المحكمة وهو يتلو قرار الحكم إلا عبر مكبرات الصوت .

وفى الساعة ١٢,١٠ افتتحت الجلسة فى قاعة جديدة ، واستغرقت عملية تلاوة الحكم حوالى ١٠ دقائق ، وقد حكم بالاعدام على الاسلامبولى ، وعبد الحميد حسين عباس وعطا طايل ، وزعيم « الجهاد » عبد السلام فرج ، أما بقية رفاقهم فقدحكم عليهم، بالأشغال الشاقة والسجن لمدد تتراوح بين عامين والمؤبد .

ولم تحدث سوى مفاجأة واحدة فقط أثناء تلاوة قرار حكم المتهم رقم ٢٤ وهو الشيخ الأعمى عمر عبد الرحمن الذى كانت فتواه بمثابة الغذاء الروحى ومصدر إلهام قتلة السادات فقد برأته المحكمة.

وأخليت قاعة المحكمة بسرعة. واستقبلت القاهره أخبار الحكم - كما استقبلت خبر مقتل أنور السادات بالعرض العسكرى - دونما تأثر ملحوظ .

الفصل الثاني والعشرون

خمس مشانق

كان بمقدور العمال المصريين الذين ذهبوا مبكرا لأعمالهم صباح الخامس عشر من أبريل عام ١٩٨٢ رؤيه الراية السوداء التى رفعت فوق سطح سجن الاستئناف . ويقع سجن الاستئناف – الذى تطبق الأسوار البيضاء عليه من كل جانب – بميدان باب الخلق بالقاهرة المواجه للمتحف الاسلامى الذى يقع على الناصية الأخرى من الميدان .

ولم تثر قطعة القماش السوداء التى أخذت ترفرف فوق السجن اهتماماً خاصا ، بسبب رفعها فى وقت مبكر . فقد جرت العادة فى الأيام التى يجرى فيها اعدام بالسجن أن يواكب رفع الراية فوق أسوار السجن دراما مأساويه مثيرة للحزن خارج الاسوار . حيث ترد أسر المحكوم عليهم بالاعدام مبكرا – بعد إعلانهم بموعد تنفيذ الحكم – وينتظرون خارج السجن لاستلام جثه المحكوم عليه بالاعدام . وكان الرجال يتجمعون بجانب بينما تلتف النساء المتشحات بالملابس السوداء فى حلقه حول جثة الميت يندبن ويولولن ويشددن شعرهن ، وفى بعض الأحيان كان الماره يتوقفون وينظرون إلى هذا المشهد ، ثم يواصلون طريقهم وكأنهم لم يروا شيئا .

إلا أنه لم تلاحظ أية خاصية خاصة بالخارج ، ولم يكن هناك من ينتظر وراء بوابة السجن فى يوم الخميس هذا الذى رفعت الرايه السوداء حدادا عليه فوق سطح السجن . ولم يكن هناك ما يدل على مايحدث داخل الاسوار سوى تلك الرايه .. السوداء التى ترفرف بالهواء .

لقد مضت خمسة اسابيع منذ أن أصدرت المحكمة العسكرية حكم الاعدام على زعيم « الجهاد » عبد السلام فرج وقتلة السادات الأربعة ، وقد بدأ كثير من رواد المقاهى من المصريين فى التشكك فى نية الرئيس مبارك فى حكم الاعدام .

ولم يكن هناك من يعمل لصالح المتآمرين سوى ذلك الوقت الطويل الذى مضى منذ الاغتيال بالعرض العسكرى . فقد أخذت الصدمة تنمحى من الذاكرة رويدا رويدا ، وبدأت هنا وهناك تسمع اصوات منددة ومشوهة لصورة الرئيس المتوفى ولاسهامه فى اعمار مصر وبنائها إلى حد اظهار مبالاة عند اغتياله وابتعاده عن الساحه .

ثم جاءت المحاكمة بعد ذلك واختصت المتآمرين ومنحتهم منبرا لطـرح آرائهم ودعاويهم . وقد جسد ما تناقلته الصحف من وقائع الجلسات – أعظم تجسيد – للقراء

عملية تحول المتهمين من جناة إلى مجنى عليهم ور الشعارات التى رفعت بقاعة المحكمة أكدت هويتهم الاسلامية ونشرت صورهم وهم ينددون ويقفون متباهين فخورين امام منصه القضاء بأنهم ليسوا هم الذين يحاكمون بل الذى يحاكم هو انور السادات الكافر والخائن للقيم الاسلاميه . الرجل الذى شاء الله له الموت .

لقد مالت فجأه شرائح كامله بالمجتمع المصرى الى تقبل دوافع القتله الدينيه المتطرفه « لتطهير مصر من الفساد والكفر » ، وإن لم توافقهم رأيهم بالضروره . والبعض اظهر تسامحا وصبرا مذهلا تجاه دعاوى المتهمين ومزاعمهم بأنهم كانوا مضطرين إلى اتباع وسائل واساليب عنف وارهاب لتحقيق هدفهم . واخذ كتاب المقالات يسربون هنا وهناك بين سطور مقالاتهم نداءات تلميحيه للرئيس مبارك بالعفو عن الاسلامبولى ورفاقه وعبروا بذلك أيضا عن الامزجه التى سادات كثير من الدول العربيه .

وكان كل يوم يمر و يزيد من فرص ويضاعف من امل القتله بالبقاء على قيد الحياه ، واعتقد الكثيرون بأن حسنى مبارك غير سعيد باستمرار المواجهه مع الدوائر الدينيه التى عادت السادات فى الأشهر الأخيره من حياته . واعتقدو ان العفو عن المتآمرين من شأنه ان يمنح مبارك اعتمادا لا يستهان به فى فتح صفحه جديده مع حاملى لواء التطرف الاسلامى فى مصر ، وأن يشكل دليلا ، على إعتزامه السير فى طريق جديد يختلف عن ذلك الذى سار فيه سلفه .

لقد برهن رفع الرايه السوداء فوق سجن الاستئناف فى ميدان باب الخلق على عظم خطأ هؤلاء المقامرون على العفو . وإلى اى حد اخطأوا فى تفسير تردد مبارك .

إن مبارك لم يشفق على القتله . بل على العكس ، فقدكان مصراً على انزال اشد العقوبه بهم لردع الآخرين عن انتهاج نهجهم وسلوك سلكهم وهو لا يزال يذكر جيدا الرشاش فاغراً فيه الذى كان يحمله امامه خالد الاسلامبولى ، وهو لايزال يدرك أيضا ان المتآمرين ارادوا استبدال الحكم كله فى مصر عن طريق اغتيال السادات . إن العفو عن المتآمرين معناه الاعتراف بشرعيه تطويع اعمال العنف لخدمه الاغراض السياسيه وقبولا بإغماد سيف الاسلام فى اظهر حكاما مسلمين .

وليس ذلك على الأقل على انه استمرار للسادات سائراً على دربه مخلصاً لنهجه مستمسك بعقيدته . وريث دوله مؤسسات القانون التى اقام صرحها انور السادات . فإذا لم يصادق على الحكم فإنه سوف يعتبر كمن يساهم فى تشويه سمعة سلفه .

وفوق كل هذا – فإن الالتزام بمواصله السير على الدرب معناه ايضا التمسك بكل الوعود السياسه التى قطعها على نفسه انور السادات ثم ان مبارك اراد ان يثبت لاسرائيل –

التى توشك على اكمال اجلاءها عن سيناء - انه لم يغفو ولو للحظه ولم تغره نداءات المتطرفين الاسلاميين بقطع علاقات مصر مع اسرائيل واحترام معاهده السلام التى وقعها انور السادات مع مناحم بيجين .

هذا الاعتبار وحده كان يكفى ليكون مبررا لتنفيذ حكم الاعدام ، كما ساعد مبارك ايضا التوقيت الذى اختاره لتنفيذ حكم الاعدام . إحتفى مبارك يوم الخامس عشر من ابريل عام ١٩٨٢ اى قبل موعد الانسحاب من سيناء بعشره ايام فقط ليزيل بذلك آخر الشكوك فى اسرائيل ازاء النوايا المصريه ، وربما أيضا ليستغل اهتمام الشعب فى مصر - والدوائر الدينيه من بينه الذى كان منصرفا إلى الحدث المنتظر فى سيناء ولم يكن منصرفا نحو مصير قتله انور السادات .

لقد اتخذت اجراءات امنيه مشدده إستعداداً ليوم الاعدام وصحيح ان الرايه السوداء رفعت فوق سطح السجن الا ان اسر الذين سينفذ فيهم حكم الاعدام لم تتلق اشعارا مسبقا لمنع تجمهر غير مقبول لدى اسوار السجن . وكان هناك مبرر آخر غير المبرر الأمنى وهو الرغبه فى تأكيد تدنى مكانة وشأن قتله السادات عن غيرهم من القتله ، ولذا كان ميدان باب الخلق خاليا من الماره عندما بزغ اول ضوء من الفجر صبيحة الخامس عشر من ابريل .

وفى الرابعة قبل الفجر صعد الحراس إلى الطابق الاول من السجن حيث كانت تقع هناك بالزنزانات فرج وعبد الحميد وعطا طايل المنفصله . وكان يرافق الحراس رجل الدين الخاص بالسجن « والمأمور » ، المشرف العام .

وايقظ ضجيج الاقفال التى يجرى فتحها الثلاثه من نومهم كما ايقظ ايضا جيرانهم بالزنزانات المجاوره الذين اخذوا يرقبون مايحدث بفضول . وادرك الثلاثه على الفور : ان هذا صباحهم الاخير . وبدون ان يظهروا ايه علامات تأثر اخذوا يقرأون ويدعون ويتناجون سرا وتركوا حراسهم يفعلون بهم ما يشاؤون .

وقيد الحراس ايديهم خلف ظهورهم واقتادوهم الى غرفه المشنقه بالطابق الأرضى . وامرهم « المأمور » بالوقوف صفا واحدا . وقرأ عليهم بصوت جاف الحكم « بالاعدام شنقا» . ثم ابلغهم بعد ذلك ان الرئيس مبارك صادق على الحكم ووقع عليه . وقد تلقوا كل هذا بثبات ورباطه جأش .

وبناءاً على طلب رجل الدين نطقوا بـــ « الشهاده » - « اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله » .

وسأل المأمور كل منهم على انفراد « هل لكم طلب أخير ؟ » . ولم يجيبوا كانوا مشغولين بترتيل آيات القران ، فى اقصى درجات التركيز . ولم يكفوا عن قراءه القران حتى

عندما غطيت رؤسهم بكيس أسود والتف حبل المشنقه حول رقبتهم . ولم يوقف ترتيلهم للقرآن سوى صوت الباب الحديدى المثبت بالارضيه عندما سحب من تحت ارجلهم .

وفى صباح ذات اليوم ، يوم الخميس تم اخراج الملازم خالد الاسلامبولى والرقيب حسين عباس ، وهما العسكريان الاثنان من بين المتآمرين - من زنزاناتهم بالسجن العسكرى. ونقلوا تحت حراسه مشدده بسياره لورى عسكريه إلى ميدان الرمايه بالمنطقه العسكريه بالجبل الأحمر - الذى يقع على بعد نصف كيلو مترات من مدينة نصر . ويطل هذا الجبل على إستاذ تمثال الهرم المجوف الذى حفر تحته قبر انور السادات .

كان طاقم اطلاق النار ينتظر فى مكان الاعدام . وجاء المتهمان وقد غطيت اعينهما بقطع من القماش وقيدت أيديهما من خلفهما . ونفذ حكم الاعدام بسرعه وبلا أيه مراسم. وكان مرمى اطلاق النار قصيرا . وقد قرر الطبيب المرافق وفاتهما .

وفى نفس اليوم نقلت جثث الخمسه إلى مكان ما لدفنها . وقد دفنوا كل بجانب الآخر الا أنه لم توضع ايه علامات فوق قبورهم . وكانت تلك هى رغبه السلطات وهى الا يحظى الخمسة بما حظيوا به تقريبا اثناء محاكمتهم فيتحولوا إلى رموز مقدسة معذبة ضحت بأنفسها وأرواحها الطاهره فداءاً للاسلام .

ومرت ثمانى ساعات حتى سمح بإعلان خبر اعدامهم . فقد اعلنت إذاعة القاهره فى نشرة الساعة ١٤,٣٠ بعد الظهر : « طبقا لحكم المحكمة العسكرية العليا الصادر فى ٣ مارس ١٩٨٢ تم تنفيذ حكم الاعدام صباح هذا اليوم فى المتهمين الخمسه فى قضية اغتيال الرئيس المرحوم محمد انور السادات » . ولم يتكرر النبأ فى النشرات التاليه ، كما نشر الخبر فى الصفحات الداخليه من صحف الغد بصوره مقتضبه .

وتلقت مصر الخبر بلا تأثر . ولم تسجل محاضر اقسام الشرطه فى جميع انحاء القاهره أو بالصعيد وقوع اى حادث شاذ . حتى فى اليوم التالى تفرق المصلون بعد صلاه الجمعه بالمساجد إلى بيوتهم فى هدوء تام . وظل رجال الأمن العديدون الذين كانوا مستعدين وجاهزين للعمل - ظلوا بلا عمل .

خاتمة

« ظل المستقبل »

لم يمض أسبوع على اغتيال انور السادات بمنصة الشرف بمدينة نصر ، حتى عادت القاهرة لتمارس حياتها العادية . فقد أضيئت الانوار بواجهات محلات قصر النيل استقبالا وترحيبا بالزبائن .

ومن الطبيعى ألا يشعر سوى الاجانب فقط بعدم وجود الملاهى الليلية التى أغلقت طيله ٤٠ يوما – هى أيام الحداد .

كان سكان القاهرة غاضبين من اغلاق دور السينما ومن وقف مباريات كره القدم ومن وقف عرض المسلسل التليفزيونى « دالاسى » . وفى إحدى الملاهى الليلية التى استأنف نشاطها بعد ايام الحداد قالت إحدى الراقصات لجمهور الرواد : « كفانا حزنا وحدادا ينبغى العودة إلى حياتنا » .

وعادت عشرات السيارات تختنق الشوارع المزدحمة بالمدينة الجديدة ولم يتبق من ذكرى الاغتيال سوى قبر جديد اسفل النصب التذكارى وأرمله ذات رداء اسود تتلقى عزاء المعزين .

إن الغالبية العظمى من المصريين لم تبد مشاعرها ، ولم تخلف وفاة السادات الزعيم – على الاقل بالنسبة للخارج – احساساً باليتم وبفقدان الأب والمعلم مثلما حدث بعد وفاه جمال عبد الناصر . لقد قال محمود – وهو موظف بوزارة حكومية – إن ناصر قد اخطأ عندما انشغل فقط بالعالم العربى واهمل مصر ، اما السادات فقد اخطأ عشرين مره عندما اقحم نفسه داخل عملية السلام وعزل مصر عن شقيقاتها العربيات . « والآن يلزمنا مبارك كيلا يدير ظهره للسلام ، ولكن يبحث عن طرق يصل به إلى قلوب العرب » .

وتردد بدوائر المثقفين الزعم – الذى كان معارضو السادات قد استخدموه اثناء حياته – « ان الغرب والصحف الغربية تتحمل مسؤوليه فقدان انور السادات للصله بشعبه وعدم احساسه بنبض جماهيره قبل ان يغتال بفترة طويلة . لقد صدق السادات ما قالوه عنه فى الغرب فأخذ يتصرف كفرعون . إلا أن الشعب المصرى لم يرد هذا الفرعون » .

وكف المصريون فى خلال بضعه اسابيع عن الانشغال بالسادات والحديث عنه ، بل كان يبدو فى بعض الأحيان انه قد محى من القلوب . ولم يتذكروه إلا بعد ستة أشهر وذلك عندما تابعت مصر كلها الدراما التى حدثت فى اسرائيل مع جلاء آخر المستوطنين عن سيناء وتدمير ياميت .

ولم يحاول حسنى مبارك اقتطاف هذا الانجاز والاستئثار به لنفسه ، ذلك الانجاز الذى كثيرا ما تمنى السادات ان يراه وقد تحقق فى حياته . ومرة أخرى عاد انور السادات ليصبح بطل مصر طوال يوم واحد ، وربما يومين : « بطل الحرب والسلام » . الرجل الذى اعاد لمصر ارضها بذكائه وبشجاعته ، ولكن ما ان انطفأت الصواريخ النارية والاضواء فى شوارع القاهرة ، حتى زحت صورة أنور السادات جانبا لتحل محلها صورة الرئيس الجديد .

لقد بعث مبارك فى سنى حكمه الأولى روح الأمل فى الجماهير . فأطلق سراح مئات السجناء- لا من رجال المعارضة السياسية والصحفيين فقط كمحمد حسنين هيكل، ولكنه اطلق ايضا سراح الكثيرين من زعماء « الاخوان المسلمون » الذين امر السادات بسجنهم .

إلا أن حسنى مبارك سعى جاهدا لكى لا يكرر اخطاء انور السادات . فقد اتبع اسلوبا جديدا فى نظام ادارته لشؤون الدولة . فلم يعد هناك زعيم متعال عن شعبه يسعى وراء الاضواء والتصفيق والمديح ، بل مدير مجتهد يعمل سرا وبعيدا عن الاضواء ولا يلتفت ولا يصغى للعالم الغربى ، بل لاحتياجات شعبه . وحاول الحد من علاقته مع الغرب الذى يمثل والذى يصدر كل القيم التى تتعارض مع الاسلام ، وقرر إلغاء المناورات المشتركة مع جيش الولايات المتحدة وبدأ يؤكد ويبرز دور مصر ومكانها فى اطار دول العالم الثالث والدول غير المنحازة .

لقد حظر على الصحفيين وصفه وتلقيبه ببطل الحرب والاشاده بماضيه العسكرى أو التنقيب فى حياته الشخصية ، وحظر على زوجته - التى كان لها نشاطها ، كجيهان السادات فى الميدان الاجتماعى العام - ان تعقد مقابلات صحفية او تكثر من حضورها الاحتفالات والمناسبات العامة لكى لا تلحق بسابقتها التى كانت عرضه لانتقادات الدوائر الاسلاميه المتطرفة .

حاول قدر جهده تنفيذ السلام مع اسرائيل بإيقاعات بطينه وبنفخات منخفضه لكى لا يؤثر ذلك على جهوده التى يبذلها لإعاده مصر إلى حضن الأمة العربية .

فأصدر أوامره بوقف الهجمات الكلامية على الزعماء العرب .. الأمر الذى كثيرا ما أحب السادات تضمينه بخطبه . وأعلن عن القيام بنشاط واسع وحثيث لازالة الفساد من مصر والقضاء عليه والذى اتضح من محاكمة عصمت السادات الأخ غير الشقيق لأنور السادات ، وفصل وزراء الاقتصاد الذين اتهموا بالاختلاس والرشوة وعقد اجتماعات لخبراء اقتصاد لمناقشة المشاكل الاقتصادية .

إلا انه اتضح فى العام الثانى لحكمه ان كل هذا لم يكن سوى فقاعات فى الهواء . فالأزمة الاقتصادية لم تخف حدتها بل تفاقمت ، واستمر النقص فى الشقق والمساكن وفى فرص العمل ، وازداد إحباط خريجى الجامعات . حتى فى السياسة الخارجية لم يستطع مبارك تحقيق انجاز هائل.

كل ذلك أسهم بطريق غير مباشر فى عدم زوال العنف الاسلامى من العالم . فكما حدث فى ايام السادات ، فقد استمر الاسلام يعرض ويطرح طريقا بديلا لطريق الاشتراكية والليبرالية الغربية اللذين فشلا فى مصر ، وظل الاسلام متنفسا لكبت واحباط مئات الألاف من الشباب الذين عجزوا عن الحصول على مسكن يأويهم ومجال عمل يقتاتون منه .

وبشكل مفاجىء – وادراكا منه لكل هذا – قام حسنى مبارك بتعزيز اجراءات الأمن والحراسة التى يتبعها . وفى اكتوبر ١٩٨٢ ، أى بعد عام من الإغتيال وافق البرلمان المصرى على مد اجراءات الطوارىء عاما آخر لمكافحة الارهاب . والغى العرض العسكرى الذى خطط لاقامته فى نفس الشهر بدعوى نقص الامكانيات ، وتم استبدال وتغيير كل رجال الأمن والحراسه الشخصيه الذين كانوا مسؤولين عن تأمين حياه أنور السادات .

وبدأت فى القاهرة فى السادس من ديسمبر ١٩٨٢– وبعد تأجيلات متواصله – محاكمه أعضاء الجهاد الـ ٣٠٢ الذين اتهموا بالتآمر لاسقاط الحكم عن طريق القوه وبالاغتيال وبمحاولة الاغتيال . وكانت هذه المحاكمة اكبر محاكمة تجرى فى تاريخ مصر الحديث . وقد اتهم معظم المتهمين بالاشراك فى المعارك التى دارت حول أقسام الشرطة فى اسيوط والمنيا بعد اغتيال السادات . وكان حتى بينهم الشيخ الاعمى عمر عبد الرحمن الذى برىء فى محاكمه الاسلامبولى ورفاقه .

وطالب الادعاء بإعدامهم جميعا ، وقد تجمع المتهمون فى ١٢ قفصا حديديا وراحوا يهتفون بنداءات وصيحات مديح لمقاتلى انور السادات الذين اعدموا . فقد قال احد المتهمون « كانوا اقدس من بالقرن العشرين » . واضاف : « ليتنا نلحق بهم فى الجنه » . وفى الجلسات الأولى من المحاكمه دعى بعض المتهمين : « حرروا مصر من اليهود » .

لقد ظلت السلطات المصرية تعلن منذ بدء المحاكمة عن اكتشافها لمؤامرات الاسلاميين المتطرفين لقلب نظام الحكم . إن الحكومة فى مصر تجرى تحت ظل الاستعداد والتوجس والخوف فالسؤال المهم الذى يطاردها هو : أين سيولد « الجهاد » القادم ؟ فنشاط الجماعات الاسلامية مستمر تحت السطح وإن كان بشكل سرى وأقل علنية من نشاطه الذى كانت تمارسه فى عهد انور السادات . وليس هناك من يعرف حجم هذه الجماعات ولا حجم اختراقها للجيش .

واى نوع من الدعم والتأييد تتلقاه من « الاخوان المسلمين » وماهى فرصها وامكانياتها فى الاستعانة بالجماعات الارهابية التى قدمت إلى مصر من الخارج ، مثل مجموعة احمد جبريل التى ارسلها القذافى الى مصر عام ١٩٨١ ، ولم يعرف مصيرها . إن المئات ، بل ربما الآلاف من حركيى الاسلام المتطرف الصامت لا يزالون ينتظرون اليوم الذى يستطيعون فيه القيام بثورة اسلامية فى مصر ، واقامة الخلافة بها والنجاح فى المكان الذى فشل فيه سلفهم .

* * من اصداراتنا * *

* الموساد : الملفات السرية لجهاز المخابرات الإسرائيلية
* تأليف : رولاند راين
* تقديم الترجمة العربية : د . رفعت سيد أحمد
* ترجمة : طلعت غنيم * مجدي عبد الكريم

* مذكرات زعماء صهيون : قراءة في أوراق ووثائق إسرائيلية
* اعداد : د. رفعت سيد أحمد

الناشر

مكتبة رجب

١٧ شارع البيدق ميدان العتبة – القاهرة

ت : ٣٩٠٥٩٤٣ – ٨٦٢١٥٦ – فاكس : ٣٩٢٦٢٥٠